

محمود السعدني

خو خفا السعدان

منتديات المكتبة العربية
www.TipsClub.net



يوليو ١٩٨٥

الكتاب الذهبي

روزاليوسف

اهــداء

الى الأجيال السعيدة المقبلة ،
جيل أكرم وأحمد السعدنى •

« محمود السعدنى »

الفهرس

الصفحة	الموضوع
٥	الاهداء
٦	الفهرس
٧	المقدمة (كوميديا السعدنى .. ومأساة البشر) بقلم
١١	صلاح حافظ
٢١	خوخة السعدان
٣٣	الأفريكى
٤١	اجدع الناس
٤٩	الانجليزى الحر
٥٩	خاتم سليمان
٦٩	شيخ الخفراء
٧٩	المأمور
٩٣	العبقرى
٩٩	السماء السوداء
١٠٥	واعظ الليمان
١١٥	الى طها
١١٩	المرحوم
١٢٣	البولوبيف
١٣٣	مادام هناك نساء
١٤٣	مولد الشيخ حمزة
١٥٣	خواجهات شارع الهرم
١٦١	جاء الشتاء
١٦٩	فى ليلة العيد
١٧٣	ديان بيان فو
١٨١	جنة رضوان
١٨٧	غيط القصب
١٩٣	شد اللبان
	يا عزيز

توحيد السعدني.. ومأساة البشر



بقلم: صلاح حافظ

الأدب عند محمود السعدني ليس تصويراً للحياة ، وإنما هو الحياة نفسها .

وشخصيات قصصه ليسوا رموزاً لتجسيد واقع يريد إبرازه أو أدوات يحركها للتعبير عن فكرة لديه . إنما هي حقائق حياة ، عاشرها بنفسه ، وجاء يحكي لنا عنها .

وهو قد عاش هذه الشخصيات لأنه يحب أن يعاشر الناس .

وهو يحكي لنا عنها ، لأنه يحب أن يحكي .

وسر السعدني هو أنه لا يوجد مكان ، أو بيئة ، أو مدينة ، أو شعب ، لا يشعر معه أنه في بيته . فهو يأكل الكافيار في قصور السادة بنفس اللذة التي يأكل بها كوز الذرة على الرصيف ، وهو في السجن كان يداعب السجناء ، ويقاسمه طبق العدس ،

ويسمع أمجاده بلذة حقيقية . وفي بورسعيد كان يقضى الليل والنهار مع الصيادين . وفي لندن كان يسمع بشغف متعاصب أصحاب الملايين . وفي حوارى الجيزة كان يشغله الجزار الذى قبض عليه رجال التموين ، وصاحب المقهى الذى سقطت لافتته لأنه ثبتها بجيبس مغطوش .

وحياة السعدنى أعرض من حياة أى كاتب مصرى أعرفه . وهو فيها قد عرف من الناس أكثر مما عرف أى كاتب . وعاش أدوارا لم يعيشها غيره . . عاش فقيرا ، وعاش وجيها ، وعاش بطلا ، وعاش خوافا . وهاجم ودافع . وكر وفر . . وقال الحق حيث كان يجب أن يكتبه . وكذب بدون سبب ، لمجرد العبث والتسلية . وخاف أمام أخطار هزيمة . وتحدى أخطارا رهيبية .

ولا يمكن تفسير حياة محمود السعدنى إلا على ضوء الشخصيات التى عايشها ، والتى لا حصر لها ، ولا حدود لتنوعها . فهو لم يكتب بأنه عايشها . وإنما عاش كلا منها على سبيل التذوق . . وتوحد مع كل منها فى لحظة من اللحظات .

وهو لهذا لا يحكى عنها من طرف أنفه . ولا يبدو مشرفا عليها من أعلى . ولا يحاول أن يجرى على لسانها فلسفته الخاصة . إنما يطلقها تتصرف ، وتتحرك ، وتتفلسف ، وهو محب لها . . ومؤمن بها .

يسخر منها ، نعم . لكن هذا ليس استخفافا بها . . إنما تعبير عن مودته وحبه ، وإعلان بأنها قد صارت بعض حياته . وأنه قرر أن يعاملها كما يعامل نفسه . . ومحمود السعدنى لا يحب أن يسخر من أحد كما يحب أن يسخر من نفسه .

والقيمة الكبرى للقصاص التى فى هذا الكتاب هى أنها جميعا حقيقية ، وأنها جزء من حياة الكاتب . . لا من خياله .

أحداثها ، شخصياتها ، سلوك الناس فيها ، مآسئها ومهازلها ، كلها من خلق الحياة ، لا من خلق الخيال . وجاذبيتها ليست من ثمار الصنعة الفنية ، أو الافتعال . وإنما من ثمار الصدق في الرواية . . . ومن ثمار المقدرة الفذة التي يتمتع بها السعدنى في تجسيد المشاهد والمفارقات . وقدرته على أن يكتب كما يتكلم . . بطلاقة ، وسخريّة ، واستمتاع .

وميزة هذه المجموعة المتفقاة من قصص السعدنى . والتي سبق أن نشر بعضها ، أنها تصور مجتمعا بلا رتوش ، ولا اغطية ولا زينات . . . وأنها صادقة مائة في المائة . وأن صاحبها قد عاش كل قصة منها بكل جوارحه ، وبعين ناظية ، وذاكرة حديدية . . . وعندما كتبها كان لا يروى عن أبطالها فقط . . . وإنما كان يكتب عن نفسه أيضا . وكان يفصح في كل قصة منها عن بعض ذاته كإنسان . . . وفنان . . . وأديب . . .

لا أدري ماذا سيقول النقاد . . . ولا أعرف ما سيكون موقع محمود السعدنى في تاريخ الأدب العربى .

لكفى واثق من أن المتعة التي تتيحها هذه المجموعة من قصصه لا يسهل العثور على مثلها فيما نقرأ اليوم .

وواثق من أنها ليست مجرد متعة عابرة . إنما هى تفوص فى النفس . وتغذى الوجدان بعصارة حياة خصبة ، عريضة ، لاذعة . نافذة ، لا يقاح لأحد أن يعيش مثلها .

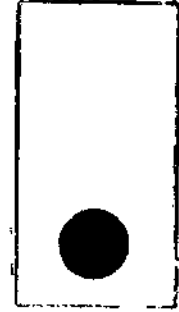
ومع ذلك . .

فهى فى النهاية متعة تخلف مرارة .

تبهج القلب . ثم تعود فتعصره . تسعدنا لحظات بكوميديا الحياة . ثم ينسدل الستار فنشعر بأن هذه الكوميديا — فى حقيقة الأمر — طلاء من السكر يغلف المأساة !



خوخة السعدان



وراحت شوشو من ميدان السيدة زينب تخترق الأزقة والحواري ، وتسأل بعد كل خطوة عن خوخة السعدان . وهي على طول الطريق ترمقها ألف عين نصف نائمة نصف يقظانة ، يتمطى أصحابها في كسل لذيذ وفي شمس الشتاء على المقاهي الكثيرة المتراسة بجوار بعضها على الطريق وأحست شوشو بالضنا وأحست بالتعب وتمنت لو استطاعت أن تعود من حيث جاءت بعيدا عن هذه الخرائب التي تفوح منها رائحة كريهة ، وكأنها رائحة خنزير مذبوح !!

ولكن ماذا يقول عنها بابا وماما وكل اخوتها وقد تحدثهم جميعا ، وأصرت أن تسير وحدها حتى نهاية الشوط ٠٠ نعم ماذا يقول كل هؤلاء لو انها تكصت على عقبيها وعادت الى قصر أبيها من جديد ولكن لو أن هؤلاء الناس المتبطلين الخاملين لم يسددوا اليها نظراتهم وكأنها رصاصات مدفع رشاش تخترق كل مكان في جسدها اللدن الجميل ٠٠

ترى ما السبب الذي يجعلهم ينظرون اليها وكأنهم جوعى أمام وليمة فاخرة رفع الغطاء عنها فجأة وبلا تدبير !

الم يسبق لهم أن رأوا نساء ؟ أليست لهم زوجات وبنات وصديقات ٠٠ وربما خيلات أيضا ٠٠

ولكن أليس هؤلاء هم الفقراء الذين وطدت العزم على خدمتهم والدفاع

عنهم والسهر على مصالحهم . وهذه الرحلة الطويلة الشاقة التي تقطعها الآن
فى سبيل رفيع مستواهم وانتشالهم من الحضيض الذي يعيشون فيه .
وتوقف عقل شوشو قليلا عن التفكير وفركت بأصابعها النخيلة المديسة
الورقة المطوية المعطرة التي كانت تنام مستريحة فى راحة يدها . واستوقفت
رجلا كان يعبر الطريق . وألقت نظرة على الورقة ثم سألت المعلم المعمم .
وقنهدت ببطء قبل أن تسأله عن خوخة السعدان . وطلب الرجل جيبته . وضيق
ما بين عينيه ورفع سبابته وضربها فى أنفه . ثم ألقي نظرة طويلة فاحصة على
الاست الملبس التي تقف أمامه كألهة من ألهة الجمال ثم قال فى هدوء :
- خوخة السعدان .

وردت شوشو فى ضيق شديد .
- أيود .

وعاد الرجل ينكش بسبابته فى شعر رأسه ثم فى فتحة منخاره ، ثم
تننى إحدى ركبتيه وكأنه على وشك الجرى فى سباق عنيف . وقال فى نفس
هدوئه المعهود .

- اللهم صلى على كامل النور . بقى خوخة السعدان على طول كده .
وبعدين تكسرى على إيدك اليمين كده . وتمشى على طول لما تلاقى قهوة قدامها
تألجة . تيجى كسرة شمال . وبعد شويه يصادقك جامع . وهناك بالمصلا على
النبى تسألى عن خوخة السعدان . ألف واحد يدلك .
ولم تفهم شوشو حرفا مما قال . وعادت تواصل رحلتها المضنية الى حيث
أشار الرجل المعمم الكريه .

ووقع نظرها على عشش مهدمة ، وبرك طين تسبح فيها الكلاب واستاءت
شوشو لكل هذا الفقر المحيط بها . وتمنت لو تعثر على حل سليم للقضاء على
كل ما فى هذا الحي من فقر . وتمنت لو أنها تملك ملايين كثيرة . اذن لتبرعت
بآلاف عديدة . لتشتري لهؤلاء الناس صابونا وجازا وخبزا وسيارة لتتنقل
أطفالهم الى المدارس ، وأجهزة راديو ، وأسطحسوانات لموزارت وبيتهوفن
ورميسكى كورساكوف . آد لو استمع هؤلاء الفقراء الى موسيقى كورساكوف
اذن لارتقت أحوالهم ، وتغيرت معالم حياتهم ولاصيحوا خلقا جديدا !!
وتاهت شوشو قليلا عن الفقر الذي خلفها . والفقر الذي أمامها . والطين
الذي يلطخ كل شيء فى الشارع الضيق الملتوى وكأنه بداية طريق يؤدى الى
المقابر .

وسرح عقل شوشو فى الكلب الذى خدعها والذى وعدها بالزواج . كانت
تظنه رجلا . وكانت هيئته تدل على أنه رجل فعلا ، هيئته الطويلة العريضة .
كلامه المسول ، شاربه الأصفر الجميل ، عضلاته المفتولة ، قلبه الذى لا يخشى
مواجهة الأسود . ولكن كل هذا تبخر فى لحظة ٠٠ وبدأ لها فى ثوبه الحقيقى ،
عاطل مفلس جبان ، وهيئته الجميلة هى كل مهنته فى الحياة !!

وانحدرت عبءة على خد شوشو ، ولكنها سرعان ما تداركت نفسها ،
فراحت من جديد تنظر الى الناس ، والى الحيطان ، والى الأطفال والكلاب .
واقترحت سماعها كلام غريب يطلقه الناس بل استحياء ٠٠ ويقصدون به التحية
والسلام .

كلام لم تسمع مثله من قبل وأوصاف تكاد تجعلها تضرب رأسها فى
الحائط . هؤلاء الفقراء ليسوا مؤدبين . لو أنهم دخلوا مدارس أجنبية اذن
لتعلموا الذوق ولفهموا معنى الاتكيت . وبإسلام ياشوشو لقد هبط الحل
السليم الذى كانت ترجوه .

ولیکن حل المشكلة من هنا ٠٠ من المدارس الأجنبية . هاتبا لو لاقت وسيلة
لاقناع هؤلاء الناس بضرورة الالتحاق بالمدارس الأجنبية . اذن لضيقت
تخريج جيل جديد من هؤلاء الفقراء يعرف كيف يتحدث وكيف يأكل . وكيف
يحب وكيف يتصرف برشاقة . . . وعندئذ سوف تصفى لهم الحياة . .

واستيقظت شوشو من أحلامها على حائط عريض يسد الطريق . واحترات
من أين تنفذ ٠٠ لابد انها ضلّت الطريق . وسألت شوشو حتى علمت انها
لم تضل وكان عليها أن تحنى هامتها الرشيقه لتمر من ثقب فى الجدار ويوصلها
الى خوخة السعدان ، وانحنت شوشو ومرت من الجدار . وتمزق جوربها
الحريير الطبيعى واتسخ معطفها الفرو . ولكن ماذا يهم ٠٠ مادام كل هذا
فى سبيل الفقراء !

وامتلا قلب شوشو بالخوف عندما هلت على خوخة السعدان ليس هذا
المكان بشوارع ، ولا بحارة ، ولا بزقاق ، الوصف الصادق له انه خرم فى
الحى ، وهل من المعقول أن أحدا من الأحياء يعيش فى هذا المكان ؟ ٠٠
وسألت شوشو ودلها أولاد الحلال على المكان الذى تريد . ومضت
من جديد عبر الخوخة تفكر فى الحالة النفسية الرهيبة التى ظلت تعانيها
عاما كاملا بعد أن فر من يدها العاطل الجبان كم مرة فكرت فى الانتحار :

وكم مرة فكرت فى دخول الدير ، وكم مرة بكت وبللت وسادتها بالدموع ، لقد فر الجبان ومعه شيء عزيز كان من الواجب أن تحرص عليه ، ولكنها لم تبك من أجل هذا . كان السبب فى بكائها هذا النذل نفسه ، فكم أحبه قلبها الصغير . ولكنها أخيرا عرفت الطريق الى السلوى والى النسيان . ليس هناك من ميدان تستطيع أن تسلو فيه أحزانك الا ميدان خدمة الفقراء . وهى ترجو أن توفق وترجو أن تنجح فى الوصول الى حل سريع . انها واثقة من الفوز . لقد تحدثت أسرتها وتحدث رئيسة جمعية سيدات المجتمع ، وستتيت لهم جميعا أنهم كانوا على خطأ . وهى وحدها التى كانت على صواب . انها لا تنسى أبدا حديث بابا عندما همست له برغبتها فى خدمة الفقراء .

— هؤلاء الفقراء كلاب ، لا يحمدون الله أبدا . واذا شبعوا تنمردوا . . .
ومن الخير أن يبقوا على ما هم فيه من شقاء . . .

ولكن شوشو لم تصدق بابا أبدا ، فمن الممكن جدا أن ينصلح حال هؤلاء الفقراء . فقط لو وجدوا واحدة تفهم الحياة ، وليس مثل شوشو من يفهم الحياة !

واستراحت شوشو من عقلها الباطن ، فقد وصلت أخيرا الى المكان الذى تقصده فى خوخة السعدان . . .

وسألت عن محمد كبار ، وقادها طفل عار تماما الى مكانه . رجل مههم رغم أنه فى الخامسة والثلاثين ، يلف رأسه بخرقه بالية لا لون لها ، وجلباب تزيينه الثقوب ، يجلس على الأرض والى جواره كوز من الصفيح يتصاعد من داخله بخار ويتأرجح فى أعماقه شيء أسود اللون لا بد أنه شاي ، أو ربما هو هذا الشيء الذى تسمع به . . . والذى يسميه الناس . . . الحشيش ! ووقفت أمامه برهة تنظر اليه ثم الى الورقة المطوية ، وبدا من منظر كباره انه لم يفاجأ بمنظرها . . . فقد كان وجهه جامدا وكأنه نائم فى مكانه هذا منذ عام . وسألته شوشو برفق :

— انت الأستاذ محمد كباره ؟!

وضحك كباره ضحكة ميتة . . . ولكنها ساخرة :

— هو . . . قال أستاذ . . . ليه شايفانى لايس عمه . أيوه أنا كباره . ايه

فيه حاجة انسقرت منك انت رخره . حكومة انت . . .

وارتاعت شوشو جدا ، واقشعر بدننها لهذه البداية السيئة ، ولكنها

تمالكت نفسها .. فهي تجربة على أية حال . ومن يتصدى للخدمة العامة
يجب أن يكون مسلحاً بالمصبر والایمان .. حكمة قراتها شوشو في
كتاب !!

وفكرت شوشو في طريقة أخرى ترضى كبراً وتبدأ بها الحديث . ولكن
كبراً نفسه كان لا يزال يملأ الدنيا صراخاً وسباباً . وألفاظاً يكاد شعر شوشو
أن يقف من هولها !!

وحاولت شوشو جاهدة أن تهدئه . ولكنها لم تكذباً حتى برزت امرأة
عجوز من جحر خلفها وفي يدها فردة شبشب ، ولسانها يطرقع في الهواء
كالمسوط .. تسب الدين والدنيا وكبراً وكل الناس !! .. وانهالت المرأة
العجوز على كبراً بالشبشب . وظل كبراً يصيح ويشتم ويسب هو الآخر
دون أن يتحرك من مكانه ، وفوجئت شوشو بشلة كبيرة من الرجال والنساء
والأطفال يلتفون حولها .. أكثرهم يتفرج .. وقلة قليلة تحاول فض المشكلة .
وفهمت شوشو خلال هذا كله أن الذي جرى أمامها لحظة لم يكن إلا حلقة
أحدة من سلسلة طويلة بدأت منذ الصباح الباكر بين كبراً والمرأة العجوز .
والسبب أن المرأة افتقدت صفيحة قديمة كانت لديها ، فلما لم تجدها اتهمت
كبراً بسرقتها .. وأهل الخوخة جميعاً يؤكدون أنها صادقة .

وعندما علمت شوشو بالحكاية كلها ، حاولت أن تتدخل لعقد صلح بين
الرجل الذي جاءت تبحث حالته .. والمرأة التي ليس لها من صفات المرأة إلا
الاسم فقط .. حتى ملابستها نفسها كانت رجالي .. وكانت ممزقة !!

وقالت شوشو وهي تحاول - صادقة - فض المشكلة :

- يا جماعة بسيطة .. لازم كلنا نحب بعض ..

ولكن صوتاً مازحاً جاءها من الخلف من آخر الحلقة المضروبة حولها :

- كلنا نحب القمر .. والقمر هأو .. يا خرابي يا جدعان .. أموت أنا!

وضحك الجميع .. حتى المرأة العجوز صاحبة الصفيحة تقصصت

وتمايلت .. وقالت بصوت مرتفع :

- آل نحب بعض ، ياختي بلا نيلة !!

وانفض السامر .. كل إلى وجهته .. وبقي بعض الناس ملتقنين حول

شوشو .. وكأنها مخلوق عجيب يتفرجون عليه لأول مرة ..

ودارت شوشو بنظراتها تتفحص الذين من حولها . الشيء العجيب الذي

حيرها أن الجميع كانوا يشبهون كبارة ، وكأنهم اخوته من أب وأم . وعندما نظرت شوشو الى كبارة . . خطر لها أن تجرى وتفر . فقد كانت عروقه بارزة ، والزيد يغطي شفتيه . وعيناه جاحظتين ، وهو يلطم خدوده بين الحين والحين . وينفخ من شدة البرؤس والضجر . .

وسألت شوشو واحدا من الذين يلتفون حولها عما به . . وجاءها
الجواب بسرعة من أكثر من واحد :

ـ أصل الأسياذ ماسكينو . .

ولم تفهم شوشو شيئا . . فقالت فى براءة طيبة :

ـ أسياذ ايه ؟

وجاءها الجواب . . وفى الصوت رنة استنكار :

ـ أسياذنا اللى تحت الأرض . .

وسرت رعدة فى جسد شوشو ، ولم تدري ماذا تقول . . وأخرجها من ورطتها واحد من بين الملتفين حولها . . كان يبدو أنه أكبرهم سنا ، وأيسرهم حالا كذلك . فقد كان ممسكا برغيف يقضمه ، سألها الرجل فى ود عميق :

ـ الست عاوزة حاجة منه ؟

واجابت شوشو على الفور . . وبلهجة املائية كأنها تلقى قطعة

محفوظات :

ـ أنا مندوبة جمعية سيدات المجتمع ، وجايه أبحث حالته عشـ

نساعد . .

وقال الرجل الأشيب العجوز فى نفس الود العميق :

ـ أهلا وسهلا . . يا ألف مرحب . .

ثم التفت الى كبارة . ولكزه بأطراف أصابع قدمه :

ـ ياواديكبارة . . قوم اتكلم مع الست . . عاوزة تساعدك .

ولكن كبارة لم يرد ولم يتحرك . . فزق الرجل العجوز فى وجهه :

ـ قوم يا شيخ جتك نيلة . . حد يطول . .

وأخيرا رد كبارة فى صوت أجش :

ـ ايه . . عاوزين منى ايه ؟

وهمست شوشو فى صوت لين حنون وكأنها تردد أغنية :

ـ بس . . كنت عاوزة اسألك كام سؤال . .

- ورد كبرارة على الفور هذه المرة ٠٠ دون أن يرفع بصره إليها :
- أى خدمة ؟ ٠٠
- وسكت برهة ثم أردف على الفور :
- أنا موش حرامى ٠٠ أنا أشرف واحد هنا ٠٠ آل صفيحة آل ٠٠
- وقالت شوشو :
- انت ٠٠ حضرتك اسمك ايه ؟
- محمد ٠٠ زفت ٠٠ كبرارة
- وعندك كام سنة يا سى كبرارة ؟
- أى حاجة ٠٠ أنا يعنى كان عقلى دفتر ٠٠
- ورأت شوشو أن تتفادى الثورة ٠٠ فقالت على الفور :
- طيب معلش ٠٠ انت مؤهلاتك ايه ؟ ٠٠
- ورفع كبرارة بصره لأول مرة ٠٠ وابتسم ابتسامة بدت — رغم فقره وقذارته — فى حالة ليست جميلة ، ولكنها أيضا ليست بشعة مثل منظره ٠٠
- وأجاب على استحياء :
- أنا لسه ما تأهلتش ٠٠
- ثم عاد الى طبيعته الأولى ٠٠ وأكمل حديثه بعصبية حادة :
- أنا لاقى أكل ٠٠ أما أتأهل ٠٠
- ولم تفهم شوشو شيئا ٠٠ ولكنها رأَتْ أيضا أن تتفادى كل ما من شأنه أن يعكر هدوء الموقف ٠٠ فسألته :
- طيب ٠٠ ويتشتغل ايه ؟
- وقال كبرارة :
- أشتغل ايه ؟ ٠٠ حلوه دى ٠٠ أعبى شمس فى أزايز ٠٠ آل ٠٠ شغلينى انتى ٠٠ شغلينى ريس أو أى حاجة ٠٠ حلوه دى ٠٠
- أمال عايش أزاى ياسى كبرارة ؟
- عايش على الله وع الست ٠٠
- وبانت الدهشة على وجه شوشو فسألته مستنكرة :
- ست مين ؟
- وكأنما استفزد هذا السؤال ، فتجهم وجهه ٠٠ وبدا شريرا كوجه غول ٠٠
- وأحاب متحديا :

- انتى كمان موش مصدقة .. اساليهم .. بقولك الست .. انا مخاوى
ست جفيه من تحت الأرض .. أجدع ست جنية من تحت الارض .. اجدع
ست ، وطيبة ومسلمة زى حضرتك بالضبط ..
وسكت كباره قليلا ، وحقق ببصره فى وجه شوشو قبل أن يضيف
قائلا :

- ايه موش مصدقانى ؟!
وانتزعت شوشو مندليها الحريرى المعطر من حقيبتها . وراحت تمسح
به العرق الذى أخذ ينهمر من جبهتها على عينيها ، وأجابته وهى خائفة
وجسدها كله يرتعد من منظره :
- مصدقاك ..

واستطرد كباره حديثه قائلا :
- أجدع ست والله .. بتطلعلى هنا مرة كل شهر .. تجيبلى كل حاجة،
ونستحمه سوا .. ربنا يخليها ..

كانت شوشو قد وصلت الى حالة قاسية من الاعياء .. كانت تود لو
ألقت بنفسها على الأرض وبكت الى ما لا نهاية .. أحست أنها ألقت بنفسها
فى حفرة مظلمة بشعة .. وهؤلاء الفقراء الذين آمنت بهم وتمنت أن تخلصهم
من شقائهم مجموعة من الوحوش الضارية .. جهلة .. وحمقى .. وأشرار ..
مثل أكله لحوم البشر ، ورأت أن تنهى الحديث مع كباره .. فقالت لسه
مطمئنة اياه على مستقبله :

- طيب ياكباره .. احنا راح نساعدك ان شاء الله ..
ورد كباره على الفور :
- امتى ؟!

- بعد يومين ثلاثة ان شاء الله ..

قالتها واستدارت لتنصرف .. وأفسح لها الناس الواقفون ونظراتهم
الحادة مصوية نحوها .. وقبل أن تخطو خطوة قال كباره فى جد ووقار هذه
المسرة :

- وحياتك تبقوا تساعدوا الست هيه كمان .. دى ست طيبة قوى .. لما
تشوفوها راح تنبسطى قوى .. هيه بتطلع هنا مرة كل شهر .. أيوه ..
فاضل أسبوع على ميعادها ..

وهزت شوشو رأسها موافقة ٠٠ واستدارت فأعطت الجميع ظهرها وسارت
تقطع خوخة السعدان بخطوات مترنحة ٠٠ ونفذت شوشو من الخرم الذى
فى الحائط فأتى على بقية الجورب ٠٠ ولطح الجزء التنظيف الباقى مسن
البالطو الثمين ٠٠ وراحت تحث الخطى فى الشارع الضيق الملتوى نحو
ميدان السيدة ٠٠ حيث تنتظرها العربية الفارغة هناك ٠٠

وعندما أطلت على الميدان الكبير ، استراحت نفسها واطمأنت ٠٠ وعندما
دلفت داخل العربية ٠٠ ألقت بنفسها على الفور متعبة منهوكة القوى ٠٠ وأمام
عينيهما الجميلتين صور كثيرة غير واضحة ٠٠ صورة النذل الحقيق ، ورئيسة
جمعية سيدات المجتمع ، وكبارة ، وبابا ٠٠ ورنرت فى أذنيها كلمات بابا
الخالدة : « هؤلاء الفقراء كلاب ٠٠ لا يحمدون الله أبدا ، وإذا شـسـبـعـوا
تـمـرـدوا ٠٠ ومن الخير أن يبقوا على ما هم فيه من شقاء » ٠٠

وقبل أن تدير شوشو مفتاح العربية ، مدت يدها فى خفة وسحبت مسن
تحتها كتابا أزرق أنيقا ٠٠ وألقت نظرة على الصفحة المفتوحة ٠٠ كانت هناك
جملة تحتها خط باللون الأحمر : « الذين يتصدون للخدمة العامة يجب أن
يكونوا مسلحين بالصبر والايمان » ٠٠

ومدت شوشو أناملها المصبوغة فطوت الكتاب وألقته فى المقعد الخلفى ،
وانطلقت بالعربية تسابق الريح ٠٠

ومع الريح طارت الورقة التى كانت تحمل العنوان : « خوخة السعدان ٠٠
محمد كبارة » ٠٠



الأفريكي



كان علينا ان نمر امام كامب الافريكان مرتين كـمـل
يوم ، مرة في الصباح عند ذهابنا الى المدرسة ، ومرة
في المساء عند العودة ..

وكان كامب الافريكان يعكس حالة اليأس والخراب التي سببتها
الحرب ، كان يحتل خرابة في منتصف شارع المدارس ، وكانت بواباته الكبيرة
مكسورة والكامب في منتهى القذارة ، وجنوده دائما ثعلون يترنحون في
الشارع الذي يقع فيه الكامب يصفرون لحنا غريبا وينشدون كلماته في حمرة
شديدة « أنا احارب من أجل الملكة بشلن في اليوم » ..

وكنا نجفل منهم اذا اقتربوا منا ، فنفر كارانب مذعورة ، وكانوا هم
في حالة هياج مستمر ، واسلحتهم البيضاء الصغيرة تلمع في اصصابهم ،
وكانوا يهيمون على وجوههم في الليل حول المنطقة المحيطة بالكامب يبحثون
عمن يشتري منهم ميممات قديمة مسروقة من داخل الكامب لقاء زجاجة من
الخير الرخيص .

وذات عصرية ونحن نلعب الكرة أمام الساحة الواسعة في مواجهة
الكامب . خرج جندي « افريكي » كما كنا نطلق عليهم ، واتجه نحو الساحة
ووقف بتفرج في هدوء على اللعب ويقذف اليها بالكرة كلما مرقت من الجول ،
ويصفق في حماس كلما سجل احدها هدفا ، ويصرخ في نشوة مسـادقة ،
برافو .. رائع ..

ومرت ايام قليلة والجندي الافريكي يأتي كل عصرية وينفق الساعات
الطويلة بتفرج فيها علينا ، وتوطدت الصداقة بيننا اكثر فتطوع بأن يكون

حكما بين الفريقين . ثم أصبحت عادة لديه أن يحمل الينا الهدايا ليوزعها على الفريق الفائز عقب انتهاء المباراة .

وجاء مرة واللعب متعطل لأن حارس مرمى فريق الاسد المرعب تخلف عن الحضور : فخلع الأفريكي زيه العسكري ونزل الى الملعب بالفانلة واللباس وحذائه الميري : وانتهت المباراة بعد أن سجلنا خمسة أهداف نظيفة . وليلتها وزع على كل لاعب من الفريقين قطعة شكولاته ولما ساومناه على أن يسترد منا الشيكولاته مقابل علبة سجائر واحدة للفريقين . صـاح في استنكار : يا للعار !

و ذات مرة سألنا في ود عميق : أين تذهبون بعد اللعب ؟ فاجبنا به زهو : الى المقهى .

فقال في هدوء : هل اذهب معكم ؟ وبعد أن تبادلنا النظرات أجبناه ، نعم تستطيع . ولكن واجهتنا مشكلة عويصة : كيف نصحب معنا الأفريكي الى حوارى الجيزة ، ثم الى قهوة المعلم أمين وهو بلباسه العسكري ؟

وتطوع أحدنا بحل المشكلة بمأبى استعداداه لاحضار طقم بلدى كامل ليرتديه الأفريكي أثناء سيرته معنا فى قهوة المعلم أمين . وغاب هذا الصديق لحظات ثم عاد ومعه جلباب كشميرى وكوفية صوف وحذاء بكعب كباية ، وأصبح الأفريكي المعلم الأخرس : فقد اتفقنا معه على أن يلزم الصمت طوال الجلسة : لاننا لا نستطيع أن نقدر مدى الشر الذى سيلحق به اذا فتح فمه فى قهوة المعلم أمين .

وقضى الأفريكي ليلته فى المقهى سعيدا بما يرى : وفى النهاية دفع الحساب كله ، ونفخ الجرسون عشرة قروش كاملة .. بقشيش . وبذلك أصبح المعلم الأخرس حديث المقهى .. كله .

وأصبحت عادة الأفريكي أن يتردد على المقهى معنا كل مساء . ويجلس صامتا لايتكلم حتى ينتصف الليل ، فيدفع الحساب والبشيش وينصرف الى حال سبيله : وأصبح صديقا لأكثر رواد المقهى دون كلام ، صابر الطباخ وحشيف الكوجى : وبرهومة العجلانى : وأصبحت هوايته الوحيدة ، هى الفرجة على الكوتشينة خصوصا عندما تكون المباراة بين صابر وحشيف .

و ذات مساء لم يستطع غزالى . وهو اسم صديقنا الذى تطوع بحل

المشكلة واحضار الملابس . لم يستطع احضار الطقم البلدى من منزله ، وقررنا ان نترك الأفريكى يعود الى الكامب بعد المباراة ونذهب نحن وحدها .

وفى هذه الليلة سألنا المعلم امين عن المعلم الاخرس ، ولماذا تخلف عن الحضور ؟ وهل اصابه مكروه ؟

واجبنا على اسئلته فى تحفظ . فقد كان المعلم امين هو السبب الذى من اجله نخشى ان نصحب معنا الأفريكى فى زيه والسبب ان المعلم امين فوجيء ذات مساء وهو جالس امام باب الدكان جلسة انسجام : الشيشة بين اصابعه وأتلاسة انحرير تلف حول عنقه . والحذاء يبرق فى قدميه ، ودستة خواتم ذهب تلمع فى اصابعه والدنيا صيف ، ونسمة طرية تهب من ناحية اشوارع وتثير معها الغبار . والمعلم يجلس منفوخا كالديك الرومى . ينتظر فى اطمئنان ورقة اللحم من الفرن . وسلطانية الطرشى البلدى ، عشائوه الذى اعتاده منذ أصبح معلما وله قهوة .

فى هذا الجو الجميل المثير . هبط على المعلم امين خمسة عساكر أفريكان ، وجوههم فى لون الخبر . ونظراتهم تلمع فى الظلام كأنها نصوص الماس ، وبرطنون بكلمات لم يفهم منها المعلم امين حرفا ، ولكنه فهم انهم يريدون الجلوس ، وانهم فى حاجة الى شاي ساخن ، والى شيشة تشبه التى فى فم المعلم امين .

وابتهج المعلم امين وطابت نفسه للصدف الحلوة التى ساقته اليه هذه الصيدة . فهؤلاء الأفريكان من بلاد بعيدة وعساكر فى الحرب ، ولا بد معهم فلوس ، وستكون هذه الليلة ، ليلة انس وانسجام للمعلم امين .

وصفق المعلم امين فى حماس وطلب شاي وشيشة للأفريكان وجلس يحاول التفاهم معهم ، وكان كلما عجز عن فهم ما يقولونه رفع أصبعيه ، السبابة والوسطى وقال فى انشراح . عربى أفريكى سوا سوا .

ثم يهز رأسه ويتمتم فى سرور : مطبوط ، والتقط الأفريكان الخمسة كلمة « سوا سوا » من فم المعلم امين ، فرددوها فى حديثهم معه ، وبذلك انشكع المعلم امين ، وكيف لا ، واللغة الانجليزية ليست سعبة كما يزعم طلاب المدارس !

والحقيقة التى لم يدركها المعلم امين . ان الأفريكان الخمسة كانوا

غالبية . وقد يكن معهم نقود بالمرءة . حتى أردأ واحقر اصناف النقود . وانهم عندما هبطوا عليه سألوه منذ اللحظة الاولى .

— هل نستطيع أن نشرب الشاي . اننا لا نملك نقودا ؟
وعندما هز المعلم أمين رأسه موافقا طار الأفريكان من الفرحة .
وتبنوا دعوته على الفور . وكان حديثهم كله خلال الوقت الطويل السدى
قضوه معه . يدور ويلف حول معنى واحد . هو شكر المعلم أمين على كرمه
وحفاوته بهم .

وعندما قال لهم المعلم أمين كلمته المأثورة عربى أفريكى سوا سوا
فهوا ان الدعوة مفتوحة فطلبوا الشاي اكثر من مرة . أما الشيشة فكان
المعلم أمين يطلبها لهم بنفسه كلما خمدت النار . وعندما انتهت الجلسة
كان الحساب خمسين قرشا لو كان الزبون عربيا . أما للأفريكى فهو ثلاثة
جنيهات . . هكذا طلب المعلم أمين من الأفريكان الخمسة . بالرغم من أن
« عربى وأفريكى سوا سوا » .

وعندما طلب المعلم أمين الحساب لم يفهم الأفريكان أول الامر ولكنهم
فهوا عن طريق الإشارة انه يطلب نقودا . . فذكروه بما قالوه له في أول
لحظات لقائهم معه . ولكنه لم يفهم شيئا وظل يطالبهم عن طريق الإشارة
بالنقود . رافعا ثلاثة أصابع من أصابعه في الهواء هاتفا في صوت يشبه
الصراخ بكلمة جنية . ولكن بطريقة غريبة ومضحكة . حتى بيدو نطقه اقرب
الى اللغة الانجليزية ! .

وفي بساطة شديدة سحب الأفريكان الخمسة بطانات جيوبهم كلها
ليقتنع المعلم أمين انهم لا يملكون شيئا . ثم خيل اليهم أن المعلم أمين قد
اقتنع تماما . فمدوا اليه ايديهم يصافحونه . . كما يفعل الاصدقاء ! .
وعندئذ تأكد المعلم أمين انه فقد نقوده . ولكن كيف يسكت على ذلك .
وهو الفتوة السابق الذى يتباهى دائما امام زبائنه أن أحدا منهم لا يجرو
على أن يأكل المعلم أمين في ملهم .

ونظر المعلم أمين الى أحد الجنود الأفريكان . وقال وقد تطب جبينه
رضيق ما بين حاجبيه . وارتدى قناعا من الشر على وجهه :
— يو . . موش كويس . . اخمى . .

وهز الأمريكى رأسه .. ولم يهمهم شيئا فأعاد المعلم أمين فلسفته من جديد .

— يو .. نصاب .. اخص افريكى نصاب .
وعندئذ استدار الافريكان .. ومضوا فى طريقهم ..

ولكن هذه النهاية لم تكن من النهايات التى تروق المعلم أمين ، خصوصا وان الزبطة التى حدثت جذبت انتباه الناس فاجتمعوا حول المعلم أمين والافريكان ليروا حقيقة الامر . ثم فهموا حقيقة ماحدث من النقاش انذى دار بين المعلم أمين ونفسه خلال الربع ساعة الاخير . ولما كانت الفتونة هى رأس مال المعلم أمين فى الحياة . فقد خساف على اسمه ان يهبط فى بورصة الفتونة . واذا كان الافريكى يستطيع ان يأكل المعلم أمين . فما الذى يفعل به حشيف الكوجى وصاير الطباخ فى مستقبل الاسباب ..

فضيحة .. يجب ان يضع لها المعلم أمين نهاية لانفة .

ورفع المعلم أمين مقعدا ضخما وهوى به على رأس احد الافريكان . فهوى على الارض . وهكذا دارت المعركة التى لم تستمر طويلا . والتى كانت هذه الضربة من المعلم أمين . هى الاولى والاخيرة من جانبه . وخمسون يوما والمعلم أمين يتقلب على فراشه فى القصر العينى ، والافريكان شربوا بعد المعركة . وشقوا لانفسهم طريقا فى الزحام بفusel المطاوى التى معهم . ولم يجرؤ احد ان يتصدى لهم .. فليس اخطر من جندى مغلس فى زمن الحرب .. هكذا أفتى محمد خليل كاتب المحامى الذى قضى نصف قرن فى مهنته . ثم تفرغ اخيرا لمقهى المعلم أمين ! ومن يومئذ والمعلم أمين لا يكره احدا فى الدنيا اكثر من مطلقته .. ثم الافريكان .

وفى مرات كثيرة كان يسحب مقعدا ويأتى ليجلس الى جانبنا . ثم فجأة يسألنا وهو يزمزج بشدة :

— الابلاد الافريكان دول زينا ؟

ونسأله نحن بدورنا :

— زينا ازاى ياعم أمين ؟

— يعنى عندهم قهاوى وترمايات وبنى آدمين كده زينا ؟

— طبعاً ! ..

ولكن اجابتنا لا تروقه . غيلوى عنقه ويجز على أسنانه ويقول
في ثقة العالم الخبير :

— ابدا ، دا كلام فارغ . دى بلادهم غابات كلها ، انا املئ عارف
صنف الافريكان دول .

ثم ينهض . ويتركنا وينصرف .. وفى مرات أخرى كان يقول وكأنه
يعزى نفسه :

تعرف صنف الافريكى ده . مايحاربش . أصله صنف جبان ، دول
يفتحوا خنادق بس . اللي بيحارب همه الانجليز .
وكان اعجاب المعلم أمين بالانجليز لا حد له ..

— احسن صنف وحياة دى النعمة . صنف دوغرى . يشرب الطلب
ويدفع . مافيش كلام .. عشان كده ربنا مبيض وجوههم .
وعندما قلنا له ذات مساء وهو يجاذبنا الحديث .
— ما هو انت افريكى ياعم أمين .

ثار ثورة عارمة . وكاد يطردنا من القهوة . وعشا حاولنا انهاله أن
بلادنا فى افريقيا . وانه تبعا لذلك يصبح افريكى .. كالأفريكان ..

— آل افريكى آل . ليه . شايف خلقتى سودة . احنا اجدع ناس من
غير مؤاخذه . دا الافريكى يعنى عبد . يشرب ولايدمئش ربنا حكم عليه
بالفقر بعيد عنكو ..

وكان دائما يتبنى ان يمارع افريكا ويعصره :

— بامانسى اتلايم على واحد افريكى وأكل زمارة رقبته .

ثم يستدرك على الفور :

— بس يكون لوحده . حاكم الكثرة تغلب الشجاعة من غير
مؤاخذه .

ولهذا السبب كنا نصحب معنا الافريكى بالطقم البلدى : فقد خفنا
أن « يتلايم » عليه المعلم أمين فيأكل زمارة رقبته .

ولكن .. انكشفت كل الحيل التى لجأنا اليها لاختفاء شخصية الافريكى

فقد هبط على المقهى آخر الليل وهو في زيه العسكرى وعندما اقتحم المقهى كان المعلم أمين يجلس جلسته المعتادة على الرصيف المقابل . فنهض مذعورا والمقعد في يده . وجاء يستطلع الامر . فقد ظن أن فرصته الذهبية قد حانت ، وإن الزمان صفا له فساق اليه « أفريكى » وحيدا لينتقم منه .

ونفضنا لاستقبال الإفريكى ووقف المعلم أمين يفكر لحظات عندما اكتشف شخصيته ، ثم انسحب الى مكانه وقد قرر أن يفكر في عمق قبل أن يحسم الامر معه ! .

وقبل أن ينتصف الليل بقليل جاء المعلم أمين وجلس بجوار الإفريكى ، وطلب منا أن نترجم بينهما . وجلس يحكى للإفريكى قصته مع الإفريكان الخمسة ، وكيف شربوا الشاي ودخنوا الشيشة ثم رفضوا الدفع ، ولما طالبهم بالثمن ضربوه حتى حطموها ضلوعه . وجمجمته . والقوة طسريح الفراش خمسين يوما رهيبة . . ثم تساءل في النهاية :

— يصح دا يا إفريكى ؟

ورد الإفريكى . .

— هذا لا يصح . .

وفى نهاية السهرة دفع الإفريكى ثمن ما شرب ودفع بقشيشه المعتاد . . وانصرف .

وأصبح الإفريكى زبونا في المقهى يأتى معنا . وأحيانا يأتى وحده ، وكان المعلم أمين ينفرد به وقتا طويلا . ثم يستدعى احدا ويقول له :

— وصيه على كام بطانية من بتوع الإفريكان .

وكان الإفريكى يبدى أسفه كلما طلب المعلم أمين شيئا ، ولكنه كان يمهده بين الحين والحين بكميات هائلة من السجائر .

وذات مساء اقبلنا على المقهى فوجدنا الإفريكى يشارك المعلم أمين طعام العشاء وأن يشارك احد المعلم أمين عشاءه . . فهذا شيء غريب . . وأن يكون الإفريكى هو شريك المعلم أمين ، فهو الشيء الاغرب ! .

وبعد أن انتهيا من العشاء جلسنا جميعا نشرب اقداح الشاي على حساب المعلم أمين ، وقال وهو يرتشف الشاي فى لذة فائقة :

— صبيح يجدهم صوابت مش زى بعصيب .. هو ذا أفريكى
ابن ناس اتا فتى يتوللى انه مسلم .. اسالوه كده .

وسالت الأفريكى عما اذا كان مسلما فاجاب بالنفى . فلما اخبرنا المعلم
الذين قال فى اسى حقيقى :

— ياخسارة .. غ العموم هوه ابن ناس . الأفريكان اتلى عملوا
مديا الفحصل ده لازم خدامين . حاكم برضه عندهم كده وكده .

وجاء الأفريكى ذات مساء ليودع متبى المعلم امين . فقد جاءه الامر
بالتسفر الى الجبهة .

وجلسنا فى المتبى طول الليل يحكى كل منا قصصا حدثت له فى الماضى
البعيد . والأفريكى ساهم لا ينكلم . كنما كان يشعر بحزن حقيقى يعتمر
قلبه للراقى . وعندنا نهض صافح الذين كانوا حوله . واعطى كسلامتهم
مصورته مونتجا غنيا بامضاه واعتذر المعلم امين عن عدم وجود صورة معه
وطالب من الأفريكى عنوانه يبعث اليه بالصورة . ولكن الأفريكى اعتذر
لأنه لايعرف بالضبط المكان الذى سوف يذهب اليه . ووعد المعلم امين بأن
يكتب له خطابا فى اول فرصة . يخبره فيه بمكانه على وجه التحديد .

ومضت ايام طويلة قبل ان يتسلم المعلم امين رسالة من الأفريكى . .
ولم يكن بالرسالة سوى جنيئات ثلاثة . وخطاب قصير باللغة الانجليزية ،
يقول فيه الأفريكى : « انا فى ايطاليا الفرقة الاولى الإفريقية . الجنيئات
الثلاثة من الإفريكان الخمسة . وهم يشكرونك » .

« ماير فوندا »

وكانت هذه هى المرة الاولى التى نعرف ان الأفريكى الصديق اسمم
ماير . فلم يهتم أحد منا بسؤاله عن اسمه . كان (الأفريكى) هو الاسم
الذى نعرفه ! .

وكان واضحا ايضا أنه يكذب . وان الجنيئات الثلاثة دفعها من جيبه
للمعلم امين . لكى يرضى ويبدأ . ولكن لماذا لم يدقمها له وهو هنا فى القاهرة
لكى يوهم المعلم امين أنها حقا من الإفريكان الخمسة .

وفى الايام التى تلت وصول الخطاب انبهك المعلم امين فى المصوبير .

وأعداد الصورة التي وعد بها الأمريكي . وأمر أن تكون الصورة ملونة ، وأن يكون في كامل زينته ، ثم استعان بنا لنكتب له الخطاب ، وأمر على أن تكون الترجمة حرفية ، وظل يملأ علينا نص الخطاب أكثر من ساعة . . . وسلامى اليك كثير السلام . وللأفريكان الخمسة كثير السلام . . . وبلغهمسم اننى مسامحهم . ونحن فى شوقا شديدا لرؤيتكم والتمتع بكم . . ثم سكت قليلا وسألنا فى اهتمام :

— هوه احنا صحيح افريكان ؟ . .

ولما اجبناه بالايجاب ، قال :

— طيب اكتبوا . . لأننا جميعا افريكان زى بعض بلغكم الله السلامة والسلام ختام .

وعندما انتهى سألنا فى خبث :

— ايه رايكو فى الجواب ؟

— حاجة عال .

— طيب بس خضعتوا ازاي لايطاليا يطلع بكام لحد هناك ؟ .

وتطوع كل منا فذكر رقما . . ثم قال بعد أن انتهينا من حديث الأسرار :

— مش الواحد بيعتوا فى البوسطة بناعتنا برضه ؟

— طبعاً . .

— تبقى داهية لو بعنوه الصعيد .

وعندئذ تناول الخطاب ، ونظر العنوان المكتوب بحروف لاتينية على الظرف وتفحص فيها طويلا ، ثم قال وكأنه اكتشف حقيقة الكون :

— ياسلام يا جدعان ، شوف البنى آدم ، قدر يستقرا الكلام اللسى مالوش راس ولا رجلين .

ومضت أعوام الحرب كلها ، وصورة ماير تحتل ركنا ممتازا فى مقهى المعلم أمين داخل برواز شمين ، عثر عليه المعلم أمين فى سوق الشلالات والخطاب الذى كتبناه للمعلم أمين يحتل جيبه ، وبمناسبة وبلا مناسبة ، كان المعلم أمين يخرج الخطاب ويفتحه ثم يحكى قصة الرجل الأمريكى الذى كان زبونا فى المقهى ثم سافر الى ايطاليا . ثم يسأل من حوله فى النهاية .

— الواحد بيعت الجواب في البوسطة بتاعتنا دي .
ثم يطوى الخطاب في رفق . وينظر الى العنوان في استغراب ويدسه
فى جيبه ويتحسسه وكأنه شيء ثمين .

وكان المعلم أمين اذا جلس جلسته المبهودة والتف حونه بمض الزبائن
الذين لم يشهدوا قصه الافريكى معه . اخذ يستعيد فصولها معهم :

— تعرفوا . وحياة العيش والملح كنا نتمد نتكلم انجليزى بالخميس
ساعات .

وكان الجالسون معه يصدقون مادام المعلم أمين لا ينسى أن يطلب
الشاي كلها شعر بالبرد . ويضع النار فوق الشيشة كلما احسوا بالصداع .
وكان اذا عثر في الجريدة على صورة في ميدان القتال وفي الصورة
جنود افريكان ، دقق النظر فيها . وأشار بأصبعه الى جندي باهت الصورة
ويؤكد في ثقة :

— العسكرية دا فوندا .

فاذا قلنا له ان العسكرية فوندا يحارب في ايطاليا ، والصورة المنشورة
امامه التقطت في افريقيا ، قال في هدوء :

— دول بس بيقولوا كده . عشان الاعداء مايعرفوش مكانهم .

وذات مساء اقبلنا على القهوة ، وقلنا له فى عبث صبيانى :

— فوندا مات ياعم أمين .

ولم نكن ندرك أننا بهذا الخبر قد سددنا رصاصة الى قلب المعلم أمين .
نقد بدا مهموما كأنه فقد ولده ، وانزوى طول الليل صامتا كئيبا لا يتحدث
مع أحد ، حتى عشائه الذى اعتاده منذ عشر سنين لم يذقه .

وفي الليل والدنيا ساكنة والمعلم أمين وحده على الرصيف ، ونحن
نتأهب لمغادرة المقهى ، انفجر المعلم أمين باكيا .

وعندما اتجهنا نحوه كف عن البكاء وتظاهر بان الغبار آذى عينيه .
ليس الا .

وفي الصباح احضر المعلم أمين نقاشا وطمس على الياقطة التى كانت
مرموعة على القهوة ، وكتب عليها بخط جميل ، قهوة فوندا .

وخفنا ان نذكر الحقيقة للمعلم امين . واصررنا على كذبنا . . ان فوندا مات . وذهبنا اليه في المساء لتعزيه . فوجدناه قد رص الكراسي امام باب انتهى ، وجلس الزبائن صامتين ومقرء عجوز يرتل شيئا من القرآن . ثم انتهى العزاء ونسى الناس قصة فوندا ، ولكنها أصبحت عادة لدى المعلم أمين ، ان يحتفل بذكرى الافريكى في نفس الموعد كل عام .

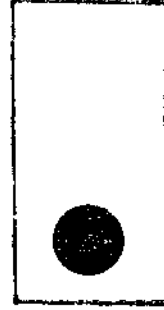
وحتى الآن ، وبعد مرور عشر سنوات ستجد مقهى صغيرا في شارع عباس بالجيزة اسمه قهوة فوندا وحولها شريط أسود . ورجل عجوز يجلس خلف مكتب قديم متهاك . وفي جيبه عدة أوراق بالية : أهمها خطاب باللغة الإنجليزية ، تلقاه منذ عشرين عاما من رجل كان يحارب في ايطاليا . . ولا احد يعرف مصيره .

ولكنه كلما وقع بصره على الخطاب هز رأسه اسفا وقال في نى عميق :

— يرحمه الله .



أجمع الناس



اضفى عبد العاطى اسبوعا ، من شهوة امين ثم ظهر .. الباطلو على كنفه والكوفية حول عنقه وعرقه بفعل يديه ، فتد كان الجو حارا لايطاق ، ولقد كان اختفاء عبد العاطى مثار تخمينات من رواد شهوة امين بعضهم قرر انه طنشى والبعض أكد انه مات ، اكاه قرام وهـــــ عائد من المخبز في الصباح ، والبعض قال انه مسرعى وربما سافر الى مكان بعيد .

وعندما ظهر عبد العاطى في شهوة امين ذلك المساء ورأى الناس يديه مصبوغتين بالحناء عسرفوا أن عبد العاطى تزوج من بنت الحلال .

والتف اصحاب حول عبد العاطى يسألونه في فضول عن دنياه الجديدة . أنهم جميعا عذاب لم يدخلوا دنيا بعد . وعبد العاطى وحده هو الذى قرر واقتحم دنيا الجواز ، وعبد العاطى كان مثالا في دنيا العزوبة . وراية في الزجراج له وزن وله مقام .

ونظر عبد العاطى في هدوء الى الجالسين حوله : محمد حنيف ومساير الطباخ ، وعبد المكوحي . وسيد السكرى . ثم رفع يديه الفايظتين المصبوغتين بالحناء وصفق طويلا ، وجاء الجرسون وطلب مشاريب للجميع . ثم اعتدل في جلسته واصليح من هيئته وقال في اهتمام بالغ :

— الجواز حلو .

واتسمت عيون الجالسين : ومالوا جميعا الى الامام وشهق عبده
المكوجى من الدهشة وسأل فى استنكار .
— حلو ! ؟

ومرت فترة صمت قبل ان يجيب عبد العاطى فى هدوء شديد .
— أيوه حلو .. بس للجدة .

وكان عم ابراهيم العجوز يجلس بعيدا عن الصحاب الملتفين حول
عبد العاطى ، لكنه فيما يبدو كان يتتبع النقاش ، فما أن استمع الى جواب
عبد العاطى الاخير حتى زحف بكرسيه الى الامام ، وقال وهو يزحف :
— اسم الله عليك .. ده كلام مضبوط .

وافسح عبده مكانا لعم ابراهيم .. وجلس وسط الحلقة المضروبة
حول عبد العاطى ، ينظر فى شغف ووله الى الشيشة التى تتداولها أيدي
الجالسين .

وقال عبد العاطى بعد أن رشف من كسوب الشاي رشفة طسولة
لها صوت منسوع :

— الراجل الجدة من غير مؤاخذه .. مفيش خوف عليه .

وهتف عبده المكوجى فى سرور :

— الله اكبر .. دا الكلام الجد : الراجل الجدة يغلب ميت واحدة

سست ..

ثم عاد الصمت من جديد .. وعادت الانظار تتعلق بعبد العاطى وهو
جالس فى وقار والبالطو على كتفه والكوفية حول عنقه : والعرق يفسل
يديه .. والشيشة مدفونة بين شفتيه ، ولكنه نظر الى الجميع بعد قليل
نظرة فيها اعتداد شديد ثم قال :

— تعرفوا انا عملت ايه أول يوم .

وقال الجميع :

— هيه .

— رحت البيت الساعة واحدة بالليل .

وكان عم ابراهيم قد نجح فى خطف الشيشة من يد صابر فهتف وهو
ينفث من حلقه سحابة من الدخان :

— براوه عليك ، أهو كده الجدة .

رواصل عبد العاطى حديثه وكأنه لم يسمع تعليق عم ابراهيم :

— انا كنت باقول ايه ؟ .

ورد عبده المكوجى بسرعة :

— رحت البيت الساعة واحدة بالليل .

— أيوه مذبوط .. انا رحت الساعة واحدة بالليل . وكنت سسكران
طينسة .

وضحك الجميع ضحكة هسترية استغرقت وقتا طويلا . وعند ما كفوا
عن الضحك : ظل عم ابراهيم يضحك وحده : ثم قال بعد ان زايته نسوبة
الضحك :

— غفارم عليك .. انا يعجبنى أمور الجدعنة دى .

وانتهز عبد العاطى الفرصة واختطف الشيشة من يد ابراهيم وجذب
انفاسا سريعة ثم ناولها لصابر وقال :

— دخلت لقيتها مبوزة .. زعلانه ليه مابتدش .. حصل ايه مابتتكلمش
الغرض .. قلت لها قومي اخلعيلي الجزمة ..

وهتف عم ابراهيم وهو يمسح فمه بياطن يده :

— أيوه .. اسم الله عليك .. اهى دى حركة جدعنة مذبوطة .. اطلب
لنا شيشه اطلب ..

وصفق عبد العاطى طويلا وجاء الجرسون : وطلب شيشة لابراهيم ..
ثم استأنف حديثه قائلا :

— الغرض .. عملت نفسها مش سامعة ، ورحت لهفتها حسوز اقلام
خليتها وحياة سيدى النبى طرشت دم ..

وهتف عبده فى جنون وهو يصفق بشدة :

— تسلم ايدك يا عبد العاطى : اهوذا الشغل صحيح : مش شغل
الافتدية ، اللى يروح البيت يغسل الحل لمراته .

وتسأل عم ابراهيم وهو يشفط انفاس الشيشة فى اخلاص :

— غضبت ؟

ورد عبد العاطى فى ثقة شديدة :

— ما عنديش حد يغضب أنا ..

وقال ابراهيم :

— اسم الله عليك .. راجل طول عمرك يا عبد العاطى .
وصفق عبد العاطى مرة أخرى .. طلب شيشة للصحاب ، ثم وضع
ساقا على ساق وأحكم وضع الكوفية حول العنق تماما ، وقال وهو يهز
ساقه فى دلال :

تانى يوم رحت الساعة ثلاثة بالليل قابلتني بتضحك مديت رجلى فى
وشها راحت خلعالى الجزمة بسرعة البرق .
وتمايل الجالسون فى نشوة ، وقال عم ابراهيم وفى رنة صوته الفرحة
بالانتصار :

— ماهى شافت العين الحمراء ، ولو كان راجل طرى شويه ، كانت
ركبته ، اسالنى انا ، حاكم انا اتجوزت اربعة واستويت ..

وبعد ان سادت فترة صمت قصيرة ، تساءل عبده المكوجى فى همس :
— انما الجواز عاوز مصاريف كتيره ياسى عبد العاطى .
ورد عبد العاطى فى استخفاف ..
— ولا كتير ولا قليل .. اللى معايا بتصرفه .
ورد عبده مشفقا :

— البيوت برضه تتكلف يا عبد العاطى والست سماعات بتبقى ايدها
مخروقة .

وقال عبد العاطى فى استنكار :

— والست مالها ومال الحاجات دى .

وتساءل عبده المكوجى :

— امال مين اللى يصرف ؟

— انا اللى ماسك المصروف ، واللى معايا بادفعه ، امال ها اطلب
روحي .. هوه انا بنكير .

وصفق عبد العاطى ضجرا ، وجاء الجرسون وصرخ فى وجهه فى
سأم شديد :

— هات دور شاى هنا يا بنى .

ثم التفت الى عبده وقال :

— ست ايه وبتاع ايه ، طب ايه رايك انا امبارح رميتها شلن رجعت
لقيتها طابخة وواكله والحمد لله . وأول امبارح مكنش معايا وسبتها نص
فرنك ، جابت طعمية وعيش وكلت هوه انا ها اموت روحى .

وكان الشاى قد حضر ، وأطبق عم ابراهيم على الكوب ، وراح يرشف
منه فى لذة فائقة ، وعندما اتى عليه سال عبد العاطى فى اخلاص :
— والحمد لله يعنى مبسوط ؟

ورد عبد العاطى وشفته تطرقع بالسعادة وهو يقبل يده ظهرا
وبطننا :

— الف حمد وشكر ، أروح البيت الاقى البنت نضيفه .
وفرشة نضيفه .. والحقيقة البنت نضيفه ، وخدمة تحت رجليه ،
وآلف حمد وشكر ياعم ابراهيم .
وهتف الذين كانوا يجلسون جميعا .
— الف حمد وشكر ، وآلف مبروك ياسى عبد العاطى .

وفتر حماس الجالسين بعد أن خمدت النار فى الشيشة ، وفرغت أكواب
الشاى ، وألقى عبد العاطى نظرة على الساعة ، فاكتشف أن الوقت قد
زحف نحو العاشرة وأن عليه أن يغادر المقهى سريعا الى المخبز الذى
يعمل فيه .

وصفق عبد العاطى للجرسون وسأله عن الحساب ، ثم ارتفع صوته
محتجا عندما هتف الولد :

— الحساب ريال .

وقال عبد العاطى :

— ريال ايه يا ضاللى انت مش حتبطل سرقة بقى ؟

واحتج الجرسون أيضا لاتهامه بالسرقة وأثبت أمام الجميع بعملية
حسابية بسيطة أن المشاريب التى طلبها عبد العاطى بلغت ريالاً بالكامل
والتمام ، ومد عبد العاطى يده فى جيبه ، وأخرج الريال ضاغرا ، ودفع به
للجرسون ، ثم ألقى تحية المساء على الجدعان .. وانصرف .

وعبد العاطى يعمل فى مخبز بعيد .. ويقف طول الليل أمام النار ، ويتقاضى

أربعين قرشا ، ينفق ريالاً على القهوة ، وأحياناً ثلاثين قرشاً ، والباقي ينفق منه على الأفيون الذى يستحلبه طوال الليل وهو يقف معذباً أمام النار .

وانقضى الليل وجاء الصبح .. وخرج عبد العاطى من المخبز يترنح كأنه حطام وجرحه جراحاً إلى المنزل وعندما جلس يرتشف كوب الشاي نظر إلى زوجته نظرة حاقدة وقال فى جفاء شديد :

— طول الليل نائمة زى الملك ، وأنا عدمان العافية ، والآخر أفضل واقف ساعة ع الباب اخبط ، يعنى انت الصغيرة عزيزة لازم تنامى لحد الضـهر .

وتكورت زوجته حول نفسها ولم ترد .. اكتفت فقط بالبكاء ، وارتفع صياحه مرة أخرى :

— خليكى ورا العياط لما تخربى البيت .. ما أنا عارف وشـك الفقر دا .

كانت البنت صغيرة لم تتعد السادسة عشرة ، ضئيلة ، يستطعم عبد العاطى لو أراد أن يلمها كلها فى فيه ، كان وجهها شاحباً ، وجلدها أصفر وجلابها الأحمر القטיפى يظهر ساقها الضامرتين .. وقدميها المتسختين كأنها كانت تغوص فى بحر من الطين .

والقى عبد العاطى نظرة على قدميها الملطختين وبصق عليها بشدة وقال وهو يسعل :

— بقى دى رجلين عروسة ، دى ولا رجلين معزة ، على الطلاق ان ما غسليهم دلوقت ، ما انت قاعدة فى البيت .

وقفزت البنت واقفة كأنها أبو الفصاد وخرجت إلى الحمام ، وراحت تحف بالكوز من الزير وتلقى على قدميها وهى تبكى بكاء مضغوطاً مسلوخاً كأنها تطفئ تموت .

واستراحت نفس عبد العاطى وهذات ونهض فخلع ملابسه وقفز على السرير ، وتأهب لنوم طويل ، ولكنه تذكر قبل أن يشرع فى النوم أن زوجته ليس لديها نقود لتعدله طعام الغداء .

قفز من السرير ، وضرب يده فى جيبه كانت هناك ورقة صحيحة بربع جنيه وحتة بقرشين .. وقلب عبد العاطى الورقة الصحيحة بين يديه ثم

دسها فى جيبه ، وانتزع القرشين والقى بها على المخذة بجوار راسه ، ثم تمدد على السرير وراح فى نوم عميق .

وعندما عادت زوجته الى الحجرة ، كان شحير عبد العاطى يملأ الجو وكان يبدو بقمه المفتوح ووجهه المنتفخ وجثته الغليظة كأنه ثور وقع نائما بعد مجهود عنيف .

ومدت الزوجة أصابعها الى القرشين فالتقطتهما ، كأنها نشال يحذر أن تقع عليه أعين الناس ، ثم ألقت على زوجها الغطاء ، وتعمدت أن تغطى حتى رأسه الاصلع الكبير .

ووقفت عند النافذة ٠٠ والقت على زوجها نظرة خبيثة مأكرة ، قبل أن تستدير لتلقى نظرة على نافذة صغيرة عبر الحارة يقف فيها تلميذ صغير ، ثم مدت بوزها من خلال حديد الشباك وقبلت الهواء ثم فتحت فمها فى ابتسامة بلهاء قبل أن تغلق النافذة وتقفز على السرير وتتمدد الى جوار عبد العاطى .



الانجليزى فى الحر



وحياة اليوم العظيم ، وحياة اليوم المفترج ، وحق
من جمعنا بلا ميعاد ، ليس هناك اجدع من الانجليزى
الحر . والانجليز تشاء حكمة الله شكل واحد ، ولكن
صنفين ؟ الوجه احمر والعين زرق والشعر اصفر .
ولكن هناك انجليزى مزيف وانجليزى حر . .

وحكمة الله تتجلى دائما ، احيانا فى الفواكه واحيانا فى البنى آدم
والبرتقال الحادق له شكل الليمون الحلو ولا يستطيع احد ان يفرق بينهما
الا اذا غرز اسنانه فى الثمرة وتذوقها ! ولا احد فى العالم تذوق الانجليز مثل
الحاج حسن ، انبرت اسنانه من كثرة ما انغرزت فى لحم الانجليز ليكشف
أيهما المزيف وأيهما الحر ، وعندما انبرت اسنانه اكتفى بعينه ، نظراته
اصبحت كأسنانه . . نظرة واحدة من عيون الحاج تكفى لمعرفة الصنف ،
ولكن ما أندر هذا الصنف بين الانجليز ، والكلام لا يلقيه الحاج على عواهنه
فهو الخبير وهو العليم وهو الذى قضى رحلة حياته فى معسكرات الانجليز
يعيش كجندى معهم من كوم حمادة فى البحيرة الى الشلوفة فى القناة الى
حيفا فى فلسطين الى البصرة على شاطئ الخليج وكأنه الطفل الصغير
لا يترك أباه . وكان يخاف الانجليز فى بادىء الامر وكان يخشاهم اكثر عندما
يرطنون ! حكمة الله ان الانجليز لهم كلام مثل كلامنا ولكنه لا يفهمه .
وعام بعد عام أصبح الطفل صبيا . وأصبح الرطن مفهوما وعندما
فهم لم يعد يخاف الانجليز ! وكانت دهشته عظيمة لان الانجليز لهم شكل
واحد ، وكأنهم جميعا من امرأة واحدة ورجل واحد !

هكذا كان يظن وهو طفل صغير ولكن عندما أصبح شابا اكتشف السر .. الانجليز لهم شكل واحد لانهم جميعا يشربون الخمر !! هو نفسه عندما اعتاد شرب الخمر أصبح مثلهم ، وجهه الاسمر أصبح في حمـار البطيخة اليافاوى ، ولكن الخمر والحق يقال لم تنجح في تلوين العينين .. هناك سر آخر اكتشفه الحاج حسن في شبابه ، السر هو البرد !!

وبرد الانجليز قارس وشديد ، هكذا علم الحاج حسن من الانجليز انفسهم ، ولكن هؤلاء الانجليز سذج لا يعلمون أن البرد هو سر العيون الزرق .

وعندما اكتشف حسن السر كان يتحدث به الى الناس ، ولكن الناس لم تكن تؤمن على الفور ! ولم يكن حسن يجد صعوبة شديدة في اقناعهم .
— مش مصدق ان السقعة تعمل كده ، طيب حظ ايدك في البرد .
بعون الله تبقى زرقا !

— ياسلام !!
— امال .. انت عارف السما زرقا ليه ؟ عشان الجو فوق ساقع .
— عفارم عليك .

وهكذا ببساطة كان يقنع الناس وكان يكسب احترامهم !
ورجل فهلوى وحقق مثل الحاج حسن لا يمكن أن تخدعه المظاهر ،
الانجليز فعلا لهم شكل واحد ، وله من بينهم اصدقاء ، وهم جميعا انجليز ،
وجميعا يرمطون .. وكلهم لهم نفس السحنة ، ونفس الطريقة في الحلاقة ،
حتى السجاير صنف واحد !

ولكنه بالملاحظة والمراقبة والاختلاط بدا يكتشف شيئا آخر . انهم اصناف وعدة اشكال ! هناك انجليزى اذا خلا بك بدا عليه اصله ، فلاح ابن فلاح .. يجلس على الارض ، ويأكل بأصابعه ، ويتمدد وينام ، فاذا غطس في النوم ارتفع شخيره ! وهناك الانجليزى ابن البلد ، على صدره اكثر من نخلة مدقوقة وعلى ظهر يده اكثر من امرأة ويسبب ميت دين في الدقيقة ، ويزوغ فلا يرعى عملا ولا يحترم مسئولية ، ويمد ايده فيهبش من مخازن الجيش ، فاذا احتك به مخلوق أو احتك بمصالحه فتح مطوة وبدا يتكلم !

ولكن الانجليزى الحر ما احلاه ، يموت من الجوع ولا يأكل بأصابعه ،

وتلقى عليه السلام فيلقى عليك الف تحية . ويضبطك ، في فراش زوجته ،
يفلق الباب ويجلس في الصالة ينتظر ! وتلذذه على قفاه فيحنى في ادب
ويعتذر !

والعلام ليس ببلاش ، العلام بثمن ! والحاج حسن اكتشف هذا السر
في لحظة تجلى ، ولولا الحظ . لولا ان التجربة التي خاضها كانت مع
انجليزى حر ، لفتح كرشه بمطوة ، أو فتح رأسه برصاصة ! والحاج حسن
عندما كان شابا في الثلاثين ، كان آخر عياقة وشياكة وكان فحلا ، ولو كان
في هوليدو لاصبح ممثلا وشهيرا ومعبودا للنساء ! وكان الحاج حسن يعمل
وقتنذ في معسكرات العائلات ، وبين العائلات امرأة ضابط طيب ، كانت
ناشفة كالحطبة ، ضيها بارز كأسنان الشوكة ، ولكنها كانت رغم كل شيء
جميلة متحركة وشابة ! وكانت ترغب في الحاج حسن — ولم يكن قد حج
بعد — وكانت صريحة فطلبت وصاله ، وكان غشيمافرض ، وألهب رفضه
النار المتأججة في نفسها فطارده وحاصره وتمكنت منه في النهاية ! ولايدري
الحاج حسن كيف حدث هذا ، ففي تلك الليلة كان اللقاء في الدكان ،
والدكانة داخل المعسكر وعلى مقربة من مستعمرة العائلات ، وكان القمر
مستديرا والجو خريفا ، وصيحات عرييدة من جنود سكارى ترن في الفضاء
البعيد !

ولان الحاج حسن كان فحلا فقد كانت المرأة منسجمة ومنشكعة ،
وكان صوتها عاليا يرن بين جدران الدكانة ويتسرب الى الخارج ! وممر
عسكري سكران عند الباب فسمع صياحا في الداخل ، وهو صياح لم يتعوده
في لحظات الانبساط ، فتوهم ان في الداخل قاتلا وقتيلا فطار الى الضابط ،
وللحظ المهيب كان الضابط المقيم في المعسكر هو نفسه زوج السيدة الناشفة !

وعندما اكتشف الرجل الحقيقة على ضوء المصباح الذي في يده ،
تراجع مذهولا ، وسقط قلب الحاج حسن بين ركبتيه وأغمض عينيه وتلا
الشهادتين على روحه !

ولكن مر وقت طويل ، وشيء لم ينطلق في رأسه ، وشيء لم يخترق
كرشه ، والاغرب من ذلك أن المرأة الناشفة حاولت مع الحاج حسن ان

تعيد الكرة والرجل زوجها كان قد انصرف منذ لحظة ، ولكن حسن كان قد تحول الى شيء كالمرأة ، لا يفرقه عنها الا الشارب المفتول !! وعندما خرجت المرأة خرج حسن لتوصيلها ، وانكت شيء في الوجود ان الرجل زوجها كان واقفا عند الباب ينتظر !!

وكل شيء ممكن .. ولكن ان تضيق حياة حسن في شربة ميه .. لا وتحسن حسن مطواته ليدافع عن نفسه ، فلايد ان الرجل الانجليزى سيقتله ، ولكن الانكت هو الذى حدث .. لقد انحنى الرجل يعتذر عن سلوكه ، وراح يشرح حقيقة الامر ، وانه لم يكن يقصد ازعاجه — ازعاج حسن — ولكنها الصدفة السيئة والجندى السكران الذى ظن انبساط زوجته نوعا من الشجار !!

وشهر كامل بعد ذلك والضابط الانجليزى يمر على حسن فى دكانه ويحييه ويعتذر ! وحسن مكسوف يقطر خجلا ويتصصب عرقا ، ويفكر فى الهرب من المعسكر ، ويود لو ان الارض انشقت وابتلعتة ، ولكن التكرار يعلم الحمار ، وقد تعلم حسن فى النهاية ان يكون ابرد من هذا الانجليزى الذى يبدو ان الذى يجرى فى عروقه ليس دماء ولكن مية ساقعة ! ثم تجرا حسن أكثر فانغمس أكثر فى العلاقة مع المرأة الناشفة ، وتجرا أكثر فلم يعد يذهب معها الى الدكان ، ولكن كل شيء أصبح يتم فى بيتها وعلى فراش الزوج . وكل شيء كان يتم فى البداية والزوج فى المكتب ، وبمرور الايام ، أصبحت الاشياء تتم فى حضوره وتحت رعايته ! والاغرب حقا ان السرور كان يبدو عليه أكثر مما يبدو على امراته !

رجل سافل هذا الانجليزى وقواد ، هكذا كان حسن يفهم ، ولكنه فى النهاية اكتشف السر ، ان الرجل الذى امامه انجليزى من صنف ممتاز ، طيب نادر كالأماظ ، انجليزى حر !!

وتعلم حسن اشياء كثيرة ، وظل يتعلم حتى شاخ ، الانجليزى الحر غير مسئول عما يقع من الانجليز من فظائع .. فى الحرب يتولى الانجليز المزيغون عملية القتال ، ويقومون بالقتال ، ويرتكبون السرقة ، وينهبون خيرات البلاد . والانجليزى الحر لا ذنب له فى شيء ، على انه فى كل الاحيان يشتمز وفى اغلب الاحيان يعلن هذا الاشتمزاز فهو لا يحب القتل . ولا يحب الضرب ولا يأكل عرق الناس !!

وما أكثر الانجليز الاحرار الذين صادفهم حسن . وما أكثر الذين

صادفهم .

ولكن الذى احبه حسن أكثر كان ضابطا شابا ، وحسن كان قد أصبح حاجا وشيخا ، وكان يحلو للضابط الانجليزى أن يأتى كل مساء الى دكان الحاج حسن ويجلس معه ، فهو لم يكن يرغب فى الجلوس مع غيره من الانجليز فى المعسكر ، لانه لم يكن يوجد بينهم انجليزى واحد حمر . كلهم كانوا مزيغين . والانجليزى المزيف يا مستر حسن — فهكذا كان يناديه — حثالة مثل الهندى والأفريقى . ليسوا اصلا من بلاد الانجليز ، فهم من بلاد اخرى عاشوا فقط فى انجلترا ، وأصبحوا انجليزا بالجنسية وليسوا انجليزا فى واقع الامر !

وكان الضابط الشاب صديق الحاج حسن يقدم الدليل كل يوم على انه حر فعلا ، سجائره للحاج حسن . أشهى المأكولات للحاج حسن ، طلبات الحاج حسن كلها مستجابة ، رغباته أوامر ! ومعاملة ولا معاملة ملوك . إذا اقبل على الحاج حسن صافحه بأدب وإذا ذهب ودعه فى أسف ، فإذا سار ظل يلوح له طويلا حتى يختفى !

ولم يكن أبدا شابا متلافا ، لم يكن يحب الخمر ، ولم يكن يلعب المقمار ، ولم يكن من هذا النوع من الشباب الذى يتهافت على النساء ، رغم انهن كن يتهافتن عليه ! وكان شديد الأسف لانه يعيش بعيدا عن لندن ، وفى صحراء مصر ، وكان يتمنى دائما أن يعود الى بلاده .

— وهل تدرى يا مستر حسن ، امنيتى الوحيدة أن أعود الآن الى لندن وأسكن فى بيت له حديقة لأتمكن من زراعة الورد .

ولهذا السبب كان الحاج حسن سعيدا رغم لوعة الفراق لان صديقه عائد الى لندن ، وليلتها كان لها العجب . كان على رأس آخر فرقة خرجت من مصر وجلس معه على ظهر الباخرة التى كانت فى طريقها به فى الصباح الى بعيد . وعندما بدأت الباخرة تتحرك فى طريق الرجيل ، ظل الحاج حسن على ظهرها يغالب دموعه ، ويقسم الف يمين أنه سيحاول أن يذهب الى لندن خصيصا ليراه . ويقسم الضابط هو الآخر انه لابد عائد كسائح فى شهور الشتاء !!

وجاء الشتاء فعلا ولكنه لم يكن شتاء سياح ، يقول الناس المتعلمون

أن الحرب على الأبواب ، والانجليز هم الذين سيشتعلون نار الحرب ،
والحاج حسن يسمع ويسكت ، أحيانا يصدق ، وأحيانا أخرى لا يصدق .

ولكن الحرب وقعت فعلا يا حاج حسن وجاء الانجليز !! المصيبة انه
لن يأتى مع الحرب انجليزى واحد حر ، سيأتى الهنود ، وسيأتى الافريكان ،
وسيعود الموريثان ، وهنا تكون الكارثة فهو ساكن أمام الميناء وسيكون
بيته صيدا سمينا وسهلا لهؤلاء الاوغاد المسلحين !!

وفكر الحاج حسن طويلا فى مصر عائلته . واستقر رأيه على ترحيل
الأولاد الى مصر على أن يبقى هو نفسه يواجه العاصفة التى تتجمع فى
سماء بور سعيد . ثم طرد هذا الخاطر نهائيا من نفسه ، فهو رجل مجرب
وخبير ، وليس من المعقول أن يعود الانجليز ، وليس من المعقول أيضا أن
يهجم الموريثان والهنود والافريكان . . لسبب بسيط هو ان قائدهم انجليزى
دائما ، والقادة دائما من الصنف الممتاز .

ومضى شهران وكل شىء على مايرام ولكن فى آخر اكتوبر حدث الذى
لم يكن يتوقعه ، لقد هجم الانجليز . وبدأ الضرب فى المينان ، وبعد الضرب
بدأ الغزو وانتشر فى فضاء المدينة ملايين المظلات ، حمراء وصفراء ومن
كل الالوان !

وصعد الحاج حسن الى سطوح بيته فى انتظار الصيد الذى تلقى به
السماء .

وكان الحاج حسن مستعدا ومسلحا ومطمئنا الى شجاعته وخبرته
فى استعمال السلاح !

وجاءه الصيد سريعا ، فقد هبطت مظلة على سطح بيته ، واختبأ
الحاج حسن خلف عشة الفراخ ليشاهد أولا وجه هذا العدو قبل أن يقتله ،
وهى دقائق معدودة يرى فيها وجهه . وجذب ابنه من قفاه ليطحه ارضا
هو الآخر ، ولكن ، فضول الولد الصغير لم يكن يقل أبدا عن فضول ابيه :
فمد بوزه وفتح عينيه ليرى وجه هذا القادم الغريب !

ولم تمض ثوان حتى كان الرجل الغريب الذى هبط من السماء منذ
لحظة قد تخلص من حبال المظلة ، ورفع مدفعه الرشاش وبدأ يتحرك فى
حذر ويخطو كالفهد على السطح متلصصا فى كل اتجاه !

وعندما نظر الوافد الغريب ناحية الحاج حسن كان السلاح قد تحول الى كتلة من الاعصاب منتبهة ومتحفزة ومستعدة للقتال ! ولكن هذه الكتلة تراخت وتمطت ، كأنها قالب زبد ساح تحت حرارة شهر يونيو . والحاج حسن معذور وله الحق فلم يكن الهابط من فوق بمدفعه الرشاش الا الضابط .. الانجليزى الحر !

ونسى الحاج حسن كل شيء الا هذا الصديق ، والايام التى ولت والعيش والملح الذى كان بينهما فى زمن مضى ٠٠ خواطر شتى جالت فى نفس الحاج حسن قبل ان تلتقى انظارهما فجأة ! وعندما التقتا ، التى الحاج حسن بسلاحه ، ذهب مفتوح الذراعين للقاء الصديق .. واى صفة يمكن ان يكونها هذا الانجليزى الحر اكثر من انه صديق !

وكان الولد الشقى قد راح يعدو امام ابيه فى اتجاه العدو ولكنه لم يكذب يخطو خطوة حتى سقط على الارض ، فقد فتح الضابط الانجليزى مدفعه الرشاش فى كرش الصبى فسقط يتخبط فى دمه !

وصاح الحاج حسن مذعورا على الخواجا الذى لابد ان الامور اختلطت عليه .. ولكن يبدو ان الانجليزى الحر لم يفهم شيئا فقد ضغط على الزناد مرتين ، وعندما تأكد الحاج حسن انه لن يتوقف استدار يبحث عن مدفعه ، ولكن الانجليزى الحر ضغط على الزناد مرة اخرى ، واصبح الحاج حسن اسما فى قائمة شهداء بور سعيد .

الشيء الذى لابد فكر فيه الحاج حسن وهو يتأهب للموت هو السر الذى جعله يتغير .. هذا الانجليزى الحر !!



حنان سليمان



اصبحت الليلة مزاج وحلاوة ، فقد جاء ابو حسن ،
واذا جاء ابو حسن فكل شيء يطيب .. فهو لا يأتي خالي
الوفاض ابدا بل يحضر دائما وبين يديه أشياء ، وفي ثنايا
جيوبه أشياء أخرى طيبة تحلو بها السهرة وتنجلي ،
وليس ابو حسن نكرة ولا هو بالمجهول في المدينة ، فهو
تاجر كان سبع زمانه أيام الحرب وبعدها . ثم وفدت
الازمة بعد ذلك فطحنته وأودت بتجارته واشتدت الازمة
أكثر عندما اضطربت الأحوال في القتال ، وعندما نشبت
الحرب وأصبحت الاسماعيلية مسرحا للقتال انهار مركز
ابو حسن التجاري تماما ، واصبحت قدمه على شفا
الافلاس .

ولكن ابو حسن ، رغم ذلك ، لم يقنط ابدا ولم يشك لاحد بل هو حريص
ابدا على ان يظهر بمظهره القديم يوم ان كانت الأحوال عال والدنيا مقبلة :
حطبه دائما من الصوف أو الحرير ومن أغلى الأصناف ، والخواتم الذهبية
لا تزال في مكانها حول أصابعه تلمع وتخطف الابصار .. صحيح أنها نقصت
خاتما أو اثنين . ولكن بعضها موجود على أية حال . وابو حسن راض عن
اقتناع ، والدنيا في نظره هكذا ، لا النعمة دائمة ولا العسر يدوم . وهو نفسه
شبع من الحياة وارتوى . وعندما كان شابا طاف بأنحاء شتى من الارض ،
واستمع بطيبات الله وقضى سهرات حمراء عنيفة في بيروت وفي فلسطين وفي

الشم وكان دائم الترحال ليعاين بضاعة ، أو يسلم نقودا حان وقت سدادها ، وهو لم يزل شابا كله صحة وفتوة ولم يبلغ الخامسة والاربعين بعد .

وكانت له مجالات واسعة زمان ، كان يعيش السفر ، ويهوى التمثيل ، ويعجب بيوسف وهبى ، وكان أحيانا يقلده وهو يصرخ على المسارح وفي يده سكين تقطر من دماء ضحاياها . ولكن مجالاته أخذت تضيق بعد ذلك حتى لم يبق له الا سهرات الحشيش . ففى ضباب الدخان تعود أبو حسن أن يدفن أحزانه ، وأن يجتر ماضيه فى صمت ، وأن يتجرع حاضره فى شجاعة . ويفكر فى مستقبله فى تفاؤل رغم كل شيء . وفى هذه السهرات يجد أبو حسن مجالا فسيحا ليحكى جولاته وغزواته فى حلب ، ولياليه العامرة فى بيروت ، ومغامراته فى جبل لبنان .

ولكن هذه الحكايات مل تكرارها ، وتعود الصمت بعد ذلك . ولكن غريزة الرغى كانت تدفعه أحيانا الى الحديث عن السياسة ومشاكل الأرض . وأصبح شغفوا بتتبع انباء الحرب التى تنشب بعيدا ، والتجارب التى يقوم بها العلماء لتحسين القنابل والصواريخ . وكان تعليقه الذى يختتم به أحاديثه حول هذه المسألة يحمل رأيه بصراحة فى هذا الجنون الذى أصبح هدف الانسان : — ربنا بيخلق الحياة وبنى آدم بيخلق الموت .

كان يكره الحرب ، فقد كانت الحرب سبب خرابه . ولولا الحرب لكان أبو حسن فى حال غير حاله ، وكل شيء تغير فى الوجود حتى الحرب . فى الحرب العالمية الأخيرة كانت الاموال تدخل له بلا حساب ، كان يكسب المئات كل يوم ولم يشعر فى يوم ما خلالها بأنه يخاف القنابل أو يجزع من الطائرات . . . ولكن هذه الحرب الأخيرة كانت شيئا آخر ، كان هو نفسه هدفا لها . . . وكان يقف مستعدا ليخوض غمارها لولا أنهم توقفوا وانسحبوا وخرجوا الى غير رجعة .

وهو رغم المشاكل ، ورغم الخوف ، ورغم الإفلاس الذى يعاينه ، لا يزال يعيش الحياة ويحبها ، ويأمل أن تعود أيامه الحلوة ، فيضع قدميه فى المركب ليطفو بمسرح شبابه بين حلب وبيروت .

ولكنه أحيانا يشعر بضيق شديد يبلغ حد الكفر ، ولقد مرت به أحيانا أوقات عصيبة تمنى فيها لو تنشب الحرب ، وتمسح القنابل نصف الأرض . . . وتقتل نصف الناس ، ويبقى من يبقى بعد ذلك سعيدا ، فأحيانا يخيّل إليه أن

سبب زوال الخير هو كثرة الناس وازدياد المخلوقات . ولكن الانبياء التي يسمعونها ويقرؤها تؤكد أن أحدا لن يعيش لو قامت الحرب . وأن الأرض نفسها قد تزول . وتقوم القيامة .

ولقد مضى عليه وقت غير قصير وفكرة غريبة تلح عليه وتغريه : لماذا لا يفلق دكانه ويستريح ؟ . . فهو لا يعاني الفلوس فقط ، ولكنه يعاني أيضا من البلدية . ومن الضرائب ، ومن أشياء أخرى كثيرة سببها أن الدكان لا يزال مفتوحا . . الزبائن تتردد عليه ، والنور يشيع في أرجائه ، وأن كان هو نفسه لا يستفيد شيئا من الزبائن ولا من النور ، ولكنه صرف هذه الفكرة واستطاع التغلب عليها ، فالدكان رغم كل شيء مركز وقيمة ، وهو على اعتبار ما كان لا يزال يتصدر المجالس ، ويختارها بنفسه ، وسهرة الليلة على مزاجه، فهي تضمه مع محام شباب حديث العهد بالتخرج ، على شيء من الثراء ، وصاحب مزاج وطموح يحب الحياة ، ومتعلم يعرف الأخبار والأسرار ومشاكل الكون . . وهناك أيضا موظف في المحافظة هادئ ورزين ووقور ، وفي حاله لا يراه أحد بعد ساعات العمل ، فهو دائما في المنزل يستعد لاستقبال عدد من الاصدقاء المعدودين ، ومعهم أيضا مراسل صحيفة يطو له الحديث في كل شيء . وأبو حسن تحلو له هذه الجلسة وتروقه ، فحديثها يتناول كل شيء الاسيرة الناس .

وعندما هبط أبو حسن عليهم هلّل الجميع لمقدمه ، ورحبوا به ، وافسحوا له مكانا في الصدر ، فقد كان يحمل معه برتقالا وكنافة ، ويخفى في جيبه كمية لا بأس بها من الحشيش . وعندما ارتاح أبو حسن في الجلسة ، أخرج منديله فجفف عرقه ، وخلع طربوشه فمسح حافته من الداخل ونحاه بعيدا ، وانصرف بكليته يشرف على اعداد النار . وبدأت الاحاديث تنتشر من أفواه الحاضرين ، سرد المحامي الشاب موجزا لأهم أنباء اليوم ، ثم علق عليها وحاول المراسل أن يستنتج من الاخبار أحداث المستقبل ، وجلس الموظف يستمع فقط ، ويهز رأسه أحيانا كلما كانت هناك حاجة لشعر المتكلم بأنه يسمعه . وعاد الصمت فخيم على الحاضرين ، ثم قطعه المحامي الشاب بسؤال لأبو حسن ، وكأنها راعه بسكوته :

— أنت ساكت ليه يا أبو حسن ؟

وهز أبو حسن المروحة في يده ليزيد النار اشتعالا .

وقال في هدوء :

— اصل النهاردة حصل لى فصل غريب قوى .

وتناول المراسل طرف الخيط وسأل أبو حسن عن الفصل الغريب ...
وأجاب أبو حسن على الفور :

— النهاردة اشتريت سمك حلو قوى ، وبعدين بينضفوه فى البيت لقينا
جوه سمكة صباع بنى آدم وفيه خاتم .

وقال الموظف الوقور فى شىء من الدهشة :

— دا كلام ايه ده ؟

ورد أبو حسن فى هدوء شديد :

— زى ما بقولك كده ..

وهتف الجميع :

— وبعدين ؟

وضحك أبو حسن ضحكة طويلة ، وقال :

— أبدا ، شلت الخاتم وقلت فى نفسى مين يعرف ؟ يمكن خاتم سليمان ..

وضحك الحاضرون ، ثم قطعوا الضحك عندما أخذت الجوزة تدور عليهم
وأخذت سحب الدخان تتجمع فوق رؤوسهم ، صلبة لا تتحرك وكأنها مشدودة
الى السقف بحبل غير منظور .

واقترح أبو حسن أن يفتح أحدهم النافذة لينصرف الدخان ، وهب
المراسل على الفور فنفذ الأمر ثم عاد ، وقيل أن يعود الى مكانه سأل أبو حسن
فى شىء من الخبث :

— طيب وايه اللى جاب الصباع والخاتم فى بطن السمكة ؟

وأجاب أبو حسن وهو يتفرس فى وجه السائل :

— حد يعرف ؟ ما يمكن يكون صباع عسكرى انجليزى من العساكر اللى
غرقوا فى البحر أيام الحرب ..

ووافق الموظف على كلام أبو حسن ، وقال المحامى :

— ما يمكن عسكرى فرنساوى ..

وقال المراسل وكأنه يقصّل برأى قاطع فى الخلاف :

— مظلوط ، لان فيه مراكب فرنساوى كثير غرقت عند دمياط وأنا شفت
الجثث بعينى ..

ورد أبو حسن وكأنه يريد أن يحسم النزاع :

— انجليزى ، فرنساوى كلهم ولاد كلب .

وعاد الصمت من جديد يسيطر على الجلسة ، والجوزة تدور . وأبو حسن يتنخ في النار ، وقطع الصمت المحامى الشاب ليسأل أبو حسن سؤالاً مفاجئاً :

— طيب وافرض ان الخاتم ده خاتم سليمان ، كنت تطلب ايه ؟

وقال أبو حسن على الفور :

— فكره برضه ..

ثم صمت طويلاً وكأنه يفكر في الامر ، ثم رفع رأسه بعد فترة وحقق في الجالسين يتفرس فيهم ، ثم قال للمحامى الشاب :

— طيب انت كنت تطلب ايه ؟

وابتسم الشاب لهارة أبو حسن وقال وكأنه كان يتوقع السؤال :

— أطلب منه يعملنى أحسن محامى في مصر ، وأغنى محامى كمان ، ومصر

ترفع قضية في محكمة العدل الدولية وأترافع عنها وأكسب القضية ، وأبنى

عمارة على النيل ، ويبقى عندي مكتب فيه ألف محامى .

وهز أبو حسن رأسه وقال :

— حلوة دى ..

ونظر الى المراسل فاكتشف أن المراسل كان ينظر اليه متوقفاً توجيه

السؤال اليه ، وأسرع فأعفى أبو حسن من توجيه السؤال ، وأجاب على الفور .

— أنا أطلب أكون صاحب أكبر جرنال في الاسماعيلية ، مش عاوز أروح

مصر ، ويبقى اسمى زى الطبل ، والكلام اللى اكتبه المحافظ يعمل بيه على طول

وأخليه يعمل م الاسماعيلية دى عروسه ، وجميع العالم يشتغل ، وتبقى الحالة

عال ، وكل سنة أخطف رجلى لحد أوربا أشم الهوا ، وايدى على ايدك يابو

حسن كل مشوار لازم تطلع معايا .

وكان واضحاً جداً بعد هذا ، أن الدور على الموظف .. ولكن لم يبد عليه

أنه يهتم كثيراً بالحديث ، وأنه لا يحفل كثيراً بخاتم سليمان وكنوزه التى

يفتحها لمن يطلبها ، ولكن أبو حسن حقق فيه طويلاً قبل أن يسأله :

— طيب .. وانت ؟

وقال الرجل الطيب بعد فترة صمت :

— أطلب الستر ..

وعقب أبو حسن :

— ما فيش أحسن منه ..

ثم أضاف :

— لكن احنا عاوزين نعرف راح تطلب ايه .. ما هو كل الناس عاوزه
الستر ، انما ايه اللى انت عاوز تنفذه في مزاجك ؟

ورد الرجل في هدوء :

— ولا حاجة ، الستر ، برضه .

وساد الصمت من جديد ، وحدثت كل العيون في أبو حسن ، فقد جاء
دوره ، وأسرع المراسل فسأل أبو حسن :

— وانت يا عم ؟

ولزم أبو حسن الصمت فترة ثم قال :

— أطلب شيء واحد ..

وهتف الجميع :

— ايه ؟

— أطلب منه يخلينى ايزنهاور ..

وضحك الجميع عاليا .. حتى الموظف الوقور شاعت في سحنته السخرية

وهتف المراسل عابثا :

— حلوة دى !!

وقال أبو حسن :

— قوللى ليه ؟

وقال الجميع :

— ليه ؟

والقى أبو حسن بالمروحة جانبا ، واعتدل في جلسته وقال :

— أقولكم ليه ، بقى أنا أبقي ايزنهاور ، وعلى طول اذيع بيان اطلب فيه
مقابلة بولجانين في برمودا .

وقاطعه المحامى الشاب :

— واشمعنى برمودا ؟

— جوها حلو ، والناس الكبار بيتقابلوا هناك دائما ، المهم يتقابلنى ...

مش مهم فين ..

— طيب ، وبعد ما تقابله ..
— اتفق معاه وأشوفه عاوز ايه ، عاوز يكسر القنابل الذرية أوافق ، نعيش
سوا سوا أوافق ، مقيش استعمار أوافق .. كل دولة حرة تعمل للملى هيه
عاوزاه ، وكل واحد غينا يلتفت لبلده بس ..

— طيب .. وبعدين ؟
— وبعدين أطلع بيان أقول فيه ان قناة السويس تتبع مصر .
— طيب وهيه بريطانيا ترضى ؟
وقال أبو حسن باستنكار شديد :
— بريطانيا دى ايه ؟ .. ترضى كان بها ، ما ترضاش أخط ايدى فى ايد
بولجانيين وأضربها بالقنابل والصواريخ ، وأمسحها من على وش الارض ...
نخلى البحر ياكلها .

وصمت أبو حسن قليلا قبل أن يقول متسائلا :
— ضبط .. والا مش ضبط ؟
وكانت الجلسة حليت تماما .. فهتفوا جميعا :
— ضبط !!
واستأنف أبو حسن حديثه ، وقد اطمأن تماما الى أن الاذان تترقب
سماعه :

— بعد كام يوم أطلع بيان تانى أقول فيه : فرنسا تطلع م الجزائر ..
— طيب ما طلعتش ؟
— أعمل فيها زى بريطانيا ، أمسحها .

— وبيان تانى لاسرائيل .. تدخل جميع العرب أصحاب البلد ، وتنفذ
قرارات الامم المتحدة ، وهيه حرة .. تنفذ ع العين والراس ، تعصى يتعمل
فيها اللى اتعمل مع بريطانيا وفرنسا . خلصنا المشاكل دى ، ننتبه بقى للحاجات
الثانية نشغل بعقل . الصين دى بتاع الرجل كاي شيك نطردهام الامم
المتحدة ، وتخش الصين الثانية اللى كانت عامله المعرض فى الجزيرة .
وهتف المراسل على الفور :

— دا كان معرض هايل قوى ..
— أهال ، حاجه حلوة تمام .. دانا سافرت مخصص ..
وامسك أبو حسن بطرف جلبابه وقال :

— الجلابية دى من هناك ، حرير اصيل يعنى ..
وسكت أبو حسن ؟ وسكت الاخرون ، ودارت الجوزة ثم توقفت ، وسأل
احدهم :

— وتفضل أيزنهاور على طول ؟
ورد أبو حسن :

— لا .. مانا جايلك .. بعد كده اطلب مقابلة بولجانين تانى ويحضرها
معانا كل الزعماء .. عبد الناصر يحضر ، نهرو يحضر تيتو يحضر ، الراجل
بتاع المانيا دا يحضر ، بتاع الصين يحضر سوكارنو يحضر ، سعوود يحضر ،
القوتلى يحضر .. نورى السعيد لا ، ولا بتاع تركيا كمان ، الناس الجدعان بس
وبتاع استراليا كمان ما يحضرش أبدا .. ونعمل مؤتمر : جيوش ماغيش أبدا
طيارات بتاعة ركاب بس ، اسلحة ممنوعة ، وكل واحد يرجع لبلده ينفذ تهاجم .

— طيب وبعدين ..
— قتلتي وبعدين ، بعد شويه آجى رافد دالاس ، وأعين بداله راجل
طيب ابن حلال ..

— وبعدين ..
— وبعدين ايه ؟! .. اطلب م الخاتم يرجعنى أبو حسن تانى .
وران الصمت على الجميع بعض الوقت ، قطعه المراسل متسائلين فى
اشفاق :

— طيب وانت استفتدت ايه ؟
ورد أبو حسن على الفور :

— استفتدت كثير .. أول حاجة ماغيش حرب ، الحال يمشى على طول ،
التجارة تمشى ، والبحر يمشى ، والجو يمشى ، والفلوس ترجع فى ايدين الناس
والجنه يبقى جنه زى زمان ، وكل شىء يرخص ، الجلابية دى بدل ما تبقى
بعشرة جنه تبقى بجنه واحد .. والجوز الجزمة من غير مؤاخذه يبقى بتلاتين
قرش ، وتعرف تشرب فنجال قهوة بن مظلوط مش نشارة خشب ، السجارة
تبقى سيجارة بحق وحقيق مش زى سيجارة النهارده ، والحشيش يبقى حاجة
فخمة صحيح تشربه تشبع مش يبقى سم زى حشيش اليومين دول . الشقة
اللى بخمستاشر جنه تبقى بتلاته والخير يبقى زى زمان وأكثر .

وبعد دا كله تسألنى استفتدت ايه ، طبعا استفتدت روقان البال ، المزاج
والفخفة . طيب دانا على الطلاق بالتلاتة ايام الغارات ما شفت قعدة حلوة ،
طول الليل البندقية فى كتفى قاعدمنتظر ولاد الكلب ، وبعدين ماحصلش نصيب .

والفتت أبو حسن للجوزة وللنار ، وسكت والراحة تهدد نفسه كأنه ادى
رسالة ٠٠ ولكن المحامى لم يتركه يستمتع بهدوئه فسأله فجأة :

— طيب وافرض يابو حسن الامريكان عرفوا انك مش ايزنهاور الحقيقى
ايه اللى يحصل ؟

وضريت لخمه مع أبو حسن ، فلنفرض أن هذا حدث فعلا فماذا تكون
النتيجة .. وهز أبو حسن رأسه طويلا قبل أن يجيب :

— ولا حاجة ، بعد ما يشوفوا أعمالى راح ينبسطوا ، عشان الناس هناك
عاوزين كده ، انت فكرك حد عاوز حرب ، دا الناس هناك برضه أصحـحاب
مزاجات وبيحبوا الدنيا ، مافيش غير شوية يهود ولاد كلب عندهم المسـال
وبيكسبوا م الحرب ، دانا قريت انهم كسبوا مال قارون فى حرب كوريا ، ودى
كانت حتة حرب لا هنا ولا هناك .. انما الناس الغلبة اللى زى حالتنا عاوزين
يعيشوا بس ..

وعاد المراسل يسأل أبو حسن فى شىء من التحدى :

— طيب وافرض الحاجات دى كلها اتعملت ، نودى الخاتم فين ..

— أرميه فى البحر ..

وقبل ان يقاطعه احد ، استدرك قائلا :

— وعشان خاطرك انت اطلب تموين العمر كله ، حشيش اجدع صنف ،

وبعدين أرميه فى البحر ..

— واشمعنى فى البحر يعنى .

— أحسن حد من ولاد الكلب يلاقيه يلخبط الدنيا تانى ..

كان الليل .. قد انتصف .. وهدأت المدينة ونامت ، عندما نهض أبو حسن
بعد أن اكل البرتقال والكنافة فنفض جلبابه وأعاد طربوشه فوق رأسه ، واستعد
للخروج .. ونهض الجميع وانهك الموظف صاحب البيت فى كنس بقايا الدخان
والنحم واكياس البرتقال وورق الكنافة .. وبعد أن انتهى صافح أبو حسن فى
حرارة على الليلة الجميلة ، وعلى الصنف الجيد ، وعلى الحديث الممتع
الطريف .

وانتهز المحامي الفرصة ، فعلق على حديث الموظف قائلا :

— فعلا .. ليلة جميلة قوى حد عارف ايه اللي راح يحصل بكرة ؟

وابتسم أبو حسن في هدوء وقال :

— ولا راح يحصل حاجة ، ان كانوا ناس عاقلين صحيح راح يحصل زى

ما قلنا ، وان كانوا مجانين بقى يحصل زى ما يحصل ، اجنا مش راح نخسر

حاجة ، همه ح يخسروا قبلنا .

وتقدم أبو حسن صاحبيه نحو الخارج ، وقبل أن يصل الى الباب الخارجى

التفت الى الثلاثة ، وقال مستدركا :

— نسيت حاجة ؟

وهتف الثلاثة .. .

— ايه ؟!

— اطلب م الخاتم يمسح البلدية والضرائب .. .

وارتفعت ضحكات الجميع ، وهم يتوغلون فى الشارع ويمضون فى الظلام .

شيخ الخفراء



كانت الليلة مظلمة وكثيية ، وكانت العاصفة تزار في الخارج والمطر ينهمر غزيرا . وكانت نقطة البوليس التي تحتوينا تشهد يوما تاريخيا في حياتها الطويلة . ففي الفناء الخارجى كان يصطف أكثر من مائة خفير مسلح ببنادق عتيقة استخدم بعضها في الحرب العالمية الاولى ولم يكن من بين هؤلاء الخفراء من يبدو عليه الشباب والحماس ، كان أكثرهم يقطع بخطوات حثيثة نهاية العقد الخامس وكان يبدو عليهم جميعا أنهم يؤدون واجبا ثقيلا .

وكان المأمور يجلس أمامي يغالب النعاس بالدعك في عينيه دائما . ومفتش البوليس يناقش مندوب الوزارة الذى حضر خصيصا من العاصمة ليشراف على الحملة . . في فوائد الارانب ورغم أن المفتش استخدم كل براعته في التمثيل وكل مواهبه الاخرى في اقناع مندوب الوزارة الذى كان يبدو رغم لباسه المودنى أعلى رتبة من المفتش ، بأن لحم الارانب يطيل العمر الى مائة عام . . الا أنه لم يبد عليه الاقتناع ابدا . وظل متشبثا برأيه وهو أن لحم الارانب مفيد ولكنه لا يطيل العمر ابدا .

وكان المفتش يسوق الحجج والبراهين وهى كلها قاطعة ومانعة وكان يعانى جهدا شديدا وهو يخكى ، جعل العرق ينصب من جبهته رغم البرودة الشديدة . فقد كان المفتش حريصا على انتقاء الفاظ معينة لحديثه مع الضابط الكبير وكان أشد حرصا على استعراض بلاغته أمامه .

فكان يعتمد الحديث بالفصحى في أغلب الاحيان .
 — تعرف سعادتك .. لحم الارانب ليس الا ..
 وكان عندما تروق له عبارة مثل « ليس الا » يظل يكررها اكثر من مرة
 وهو سعيد بها غاية السعادة .
 — ليس الا .. دواء للأمراض .
 وكان الضابط الكبير يرد عليه بالفاظ بسيطة وعادية ، ولم يكن يبدو عليه
 أى اهتمام بشأن محدثه ، وكانت معارضته تبدو معارضة لشخص المتحدث أكثر
 منها معارضة لرايه .
 — يا راجل حرام عليك .. دواء ايه ؟
 — زى ما بقول لسعادتك طيب ايه رايك جدى عاش مائة عام وكان يأكل
 لحم الارانب حتى وافاه الاجل المحتوم .. نعم الاجل المحتوم .
 — مالهش دعوة الارانب دا عمره ، ولكل أجل كتاب .
 وبدأ على المفتش الغم الشديد .. لان الضابط الكبير لم يقتنع ولكن لانه
 استشهد بكلمة بليغة .. كان الاخرى به ان يستشهد هو بها ، ولكنه سرعان
 ما استرد مكانته ، وقال فى جهد شديد .
 — نعم .. نعم لكل أجل كتاب دا صحيح وانما .. برضه .. وجعلنا
 لكل شىء سببا .. ولحم الارانب هنا هو السبب فى أنه عاش مائة عام .
 كانت أصواتهم مسموعة أول الامر ، ولكنها ما لبثت ان تلاشت حين
 تصاعدت الضجة من الخارج من فناء النقطة .
 كانت الساعة قد تجاوزت الواحدة بعد منتصف الليل وكان امنا ساعة
 اخرى لنبدأ رحلتنا صوب الجبل الغربى لمطاردة عصابة « الخط » التى ذاعت
 انبأؤها وشاعت واصبح لها سلطان فى الصعيد كله يفوق سلطان القانون .
 وكنت أتعجل الزمن لنبدأ رحلتنا صوب الجبل ولتتاح لى أول تجربة من
 نوعها فى حياتى . فخلال عملى الصحفى لم يعهد لى بعمل من هذا النوع على
 الاطلاق . وهاهى الظروف تهيب لى فرصة ثمينة لآكون أول انسان يعلن على
 الناس نبأ هزيمة العصابة واستسلامها .
 وكانت مناقشة المفتش ومندوب الوزارة قد انتهت لا أدري عند أى حد
 عندما غادرت مقعدى فى الداخل وخرجت الى الفناء لالقى نظرة على الخفراء
 الذين اختارهم مندوب الوزارة بنفسه ليكونوا افرادا فى فرقة الخلاص .
 كان الخفراء يتفنون تحت المطر وسط العاصفة .. ملابسهم قديمة وبعضها

ممزق . واحذيتهم مثقوبة ووجوههم جامدة قاسية يرتسم عليها سخط هائل . .
وشيوخ الخفراء وحده كان يبدو عليه النشاط والحماس يلقي اليهم بتعليماته ، ثم
يسرع الى الداخل يهمس في اذن المأمور بكلمة وينحنى للمفتش ويضرب تعظيم
سلام لمندوب الوزارة ويرن جرس التليفون فيرد عليه ويصيح مبتهجا ، المديرية
.. ويجرى شيخ الخفراء الى الفناء يختبر الاسلحة بنفسه ويلقى نظرة على
الساعة ثم يدور حول الخفراء ويهمس في اذن البعض منهم ويشخط في وجه
البعض . . زعق بصوت رهيب فتحرك الخفراء الى الخارج وخرج الضباط
الثلاثة الكبار يتقدمهم مندوب الوزارة فالمفتش فالمأمور ووقفوا يستعرضون
الخفراء وهم فى طريقهم الى الامام ولم تمض لحظات حتى تحرك طاہور الخفراء
صوب الجبل الغربى .

كان رفيقى فى الرحلة الغربية فقيرا عجوزا فى الخامسة والخمسين من عمره
وكان قد قضى حياته فى تلك المنطقة الرهيبة وشهد معارك طاحنة بين اللصوص
ورجال الحكومة . وكان يعرف مسالك الجبل والطرق المؤدية اليه معرفة خبير
وكان يتحدث عن رجال العصابات وكأنه يعرفهم .

وكان شيخ الخفراء سمينا بعض الشيء احمر الوجهه منتفخ الاوداج
ذا شارب أصفر منقوش وكان فيما يبدو معتدا بقوته البدنية فخورا بتركيبه
الجسمانى وقد حرص عندما عرف اننى صحفى ان يذكر لى اسمه كاملا :

— زكريا حسن سليمان . . بس اوعى تنسانى لما تكتب .

وعندما اخبرته اننى سأبذل غاية جهدى لابرار الدور الذى سيقوم به ،
سألنى فى هدوء :

— دى أول مرة تطلع فى كبسة ؟

ولما أجبته بالإيجاب قال وهو يضحك :

— بس اوعى تخاف خلى قلبك جامد .

كنا قد تركنا القرى وخرجنا الى الخلاء وكان لايزال أمامنا خمسة كيلومترات
لنصل الى الجبل وعن طريق المسالك الضيقة القذرة كان أمامنا أكثر من ساعة
لنصل الى هناك . وفجأة وقف شيخ الخفراء يلقي بتعليماته وشرح للخفراء
الخطا ثم وزع القوة الى قافلتين واحدة تتجه نحو الشمال والاخرى الى اليمين
وكنتم من نصيب القافلة الاولى فانحرفنا ناحية الشمال فى طريق يبدو وكأنه
كان يوما ما مجرى نهر جفت المياه فيه ولما كانت الاوامر تمنع استخدام اية أنوار

أثناء زحفنا نحو الجبل فقد راح الخفير العجوز يتلمس طريقه في الظلام وهو يلعن كل شيء وسرحت أنا في هؤلاء الناس الذين يسكنون الجبل والسلاح بين أيديهم ، وأصابعهم على الزناد ، وعيونهم على الطريق يطلقون النار على كل حركة وعذ دل إشارة ويعيش الواحد منهم وليس له مقر ويموت ولا تعرف له قبرا .

وانتزعني من أفكارى شيخ الخفراء ، اذ وكزنى بشدة في جنبى ، وقال لى وهو يغمز بعينه :

— انت خايف والا ايه ؟

ولما أجبته بالنفى قال فى غير مبالاة :

— دى عصابة ورق انا قلت للمأمور آخذ ألف جنيه واجبك الخط نفسه مربوط فى الحبل مارضىشى .

أثارنى حديثه . . فسألته مندهشا :

— وتقدر صدحج تجيبه فى حبل .

— الا أجيبه دنا معروف فى كل حته أسأل أى واحد : تعرف زكريا ؟ شوف يقولك ايه !

وبدا وهو يتكلم كأنه يقرر واقعا لا سبيل الى انكاره . . وكان حين يتحدث يهز كتفيه ويفرك شاربه الكث بأصابعه ويكح فى تحد وثقة وينفخ صدره العريض وهو يرت فوقه براحه يده وأشعل زكريا سيجارة جذب منها نفسا عميقا ثم قال وهو ينفث الدخان فى ضيق شديد :

— تعرف أنا أنفع فى حاجة واحدة بس . .

وسكت زكريا قليلا وجذب نفسا آخر أشد عمقا وقال وهو ينفث الدخان هذه المرة فى حلقات .

— أنا تسيبنى فى الجبل دا وتقوللى روح !

— طيب وتعهل ايه فى الجبل ؟

وقال فى استنكار بالغ :

— اعمل ايه . . مادام معايا المدفع بتاعى يبقى كل يوم أسلمك عصابة .

قال ذلك ثم خبط بيده عدة مرات على المدفع الذى كان يتأرجح فوق صدره ثم قال فى صوت خافت وكأنه يحدث نفسه :

— مادام معاك مدفعك ما فيش أى حاجة تقف قدامك . .

ثم نفخ في ضيق وفي أسى وبدالى وكأنه اسد كايسر مجبوس في قفص من حديد وخيل الى وأنا ارقب أساريير وجهه ان الفرصة قد سنحت له مرة أخرى لينطلق في الجبل ومادام معه مدفعه .. فلن يقف شيء أمامه .. ولا أدري لماذا خطر لى أن أسأله سؤالاً ساذجاً أغضبه للغاية وجعله يزجر من الاهانة الى الحقها به :

— وطلعت الجبل قبل كده ؟

— امال احنا بنحكى في ايه من الصبح ؟ أنا قضيت عمري كله هناك . دى معلومات لازم تكتبها .. أنا كنت اطلع الجبل دا في القمر . حاكم أنا ماطلعش غير في القمر بس .. المأمور عارف كده والوزارة عارفة كده .. واطلع أنا ، المدفع على كتفى وبس شيببت المجرمين في الجبل ..

— وقتلت كثير منهم .

— ياما أنا ايام كنت الاتى في سكتى خمس جثث تعرف بقى كنت أبعد عنها وانزل م الجبل .

— وتبعد عنها ليه ؟

— أنا مذهبي كده ما دام مات يبقى الف رحمة .. وتعرف ايه السبب كان مزاجي امسكهم ع الحيا ونهار ماكنت امسك واحد كان يبقى يوم عيد .. ومسكت كثير يازكريا ..

— أسأل عنى بلاش اتقولك أنا احسن نقول كداب ، طيب تعرف ؟ اننا مرة مسكت واد اسمه جابر ، لاتقوللى الخط ولا الفتى ، وكان واحد مجرم بصحيح ، كان مشيب المنطقة دى كلها . في يوم وكان القمر بدر وخذت مدفعي وطلعت الجبل تعرف ايه اللى حصل ؟

دخلت عليه المغارة . ضرب اكثر من عشرين طلقة بقيت اقوم وانبطح على وشى .. حاكم دا فن .. كمان تنه يضرب لما المدفع بقاعه فرغ .. وعندها حلقته شنبه واخذته ونزلت .

— وحلقته ازاي ؟

— شديت الشعر بايدى ..

كان الخفير العجوز يختلس بين كل حين وآخر نظرة الى شيخ الخفراء وكانت نظرته تحمل معانى كثيرة لم أستطع تحديدها وكنت أخمن أحياناً أنها

نظرة اعجاب واكبار لان زكريا كان احيانا يستشهد بالشاويش في وقائع كثيرة فكان يهز راسه دائما موافقا على كل ما يقول .

كان الظلام حالكا للغاية والريح تعصف بشدة لاتزال ، والمطر حول المنطقة كلها وقد حولها الى بركة من الطين ، والخفير العجوز يبصق على الخط ويلعن الايام وهو يحاول جاهدا ان يخرج من الحفرة التى وقع فيها .

ووقفنا جميعا فى العراء .. شيخ الخفراء والخمسة عشر خفيرا الذين كانوا يرتعدون من شدة البرد .. وبدأ زكريا يباشر سلطاته منذ تلك اللحظة .. فقد كان من البديهي انه وحده هو المسئول عن كل هؤلاء الناس الذين يلتفون حوله ..

وراح يتلفت هنا وهناك بعض الوقت قبل ان يسأل الخفير العجوز عن المكان الذى توجد فيه العصابة بالتحديد .. واجاب الخفير على الفور وكأني به يقرأ من كتاب مفتوح .. وبعثت اجابته موجة من الذعر فى صفوف الخفراء .. فهم يعلمون بتجربتهم الطويلة ان الخطر يحيط بهم من كل جانب ماداموا على بعد يسير من دير الملاك ، واقترب الخفراء بعضهم من البعض فى حلقة ضيقة ووجوههم جميعا نحو الغرب وبنادقهم مشرعة فى ايديهم وكأنهم على أبواب معركة ساخنة لا تنتظر الا أمرا من زكريا وفوجئت وأنا انظر نحو الغرب مثلهم بشيء غريب ، شيء رهيب كالقبر ، يبدو فى الظلام تحدده ظلمة أكثف من الظلمة التى تلف الكون وهبست فى اذن احدهم أسأله عن هذا الشيء .. فأجاب بصوت خافت مرتعش .

— دا الدبل « الجبل » .

كانت المسافة التى تفصل بيننا وبين الجبل لا تزيد على الف متر ، وكان معنى ذلك ببساطة أن طلقة ولو غير مقصودة يطلقها هارب فوق القمة لابد وأن تقتل أحدا فى الحال .. وقطع الصمت الذى يحيط بنا لغط الخفراء .. كل منهم يحاول أن يقترح شيئا لحل الموقف .. كانوا جميعا يتحدثون الا زكريا كان يقف صامتا ، والمدفع فى كتفه وعيناه الواسعتان نصف مغلقتين كأنه يحلم .. وكان بين الحين والحين يدس أصبعه فى فمه يقرض أظفاره فى عصبية وقلق تستدعيهما مسئوليته الكبرى كقائد عظيم .

وأخيرا سكت اللغط وارتفع صوت الخفير العجوز يقترح أن نظل فى أماكننا حتى نلشع على زملائنا الآخرين ، أو ننسحب فى هدوء نحو الشرق بعيدا عن الجبل

الغريبى .. ولكن هذا الاقتراح لم يلقى قبولا من زكريا وارتفع صوته لأول مرة يأمر الجميع بالتزام الصمت وانحنى على أذنى يهمس فيها ويده الغليظة تلتف حول كفتى :

— ايه رايك بقى ، أنا راح أكبس على العصاية وأمسكهم زى النسوان .. ولما لم يرتفع صوتى بشيء ما .. قال على الفور .
— بس تكتب بقى آه ، أهو دا وقتك بقى ، زكريا الرهيب فى الجبل ، ولا أى حاجة ، بقى ، علوزك تعمل موضوع كده يفتح النفس تعرف بعد كده الواحد يمسك العمودية على طول .

وتركنى وتقدم الجميع بعد أن أمرهم بالتحرك فى اتجاه الجبل وامتلئ الخفراء للامر ولكن صوت الخفير العجوز عاد يرتفع من جديد محذرا فى شيء من الغلظة .

واضاف :

نروح غين دلوقت فى الجبل واحنا فى الارض دول لو ضربونا بالطوب يغلبونا ، دا ليلة ايه المهبية دى .

ولكن زكريا كان يتقدم الخفير العجوز بمسافة لم تسمح له بأن يسمع حرفا واحدا مما قال وبدأ الصمت يخيم من جديد على الصف الطويل من الرجال الذين راخوا يزحفون بحذر شديد نحو سفح الجبل .. وفجأة توقف زكريا واستدار نحوهم وأمرهم بالانتشار على شكل حدوة وهتف مسرورا بعد ذلك كأنه طفل صغير .

— أيوه .. حدوة دا تكتيك محسوبك زكريا تعرف ، لما يكون خمسين مجرم زى الخط .. لازم يسلموا ..

وعندما أصبحت الحدوة على أحسن ما تكون ارتفع صوته من جديد يأمرهم بالنقدم ولكنه بقى هو فى مكانه لم يتزحزح شبرا وجذبنى من يدى لآكون الى جانبه وظل الخفير العجوز خلفنا فلم يكن مسلحا بشيء الا بعصا صغيرة .
وانتفخ زكريا كأنه روميل فى الصحراء ، والتفت الى مزهوا كأنه ديك رومى سمين وقال :

— زكريا الرهيب فى الجبل ، ايه رايك فى العنوان ده ؟

ولم ينتظر حتى يسمع منى جوابا ، ويبدو أنه لم يكن ينتظر هذا الجواب ..
فواصل حديثه على الفور :

— لو أمسك الخط تفنكر يعملو لى ايه ؟ ياسلام دا الواحد كان يبقى اشهر واحد فى مصر ، ايه رايك البركة فيك انت .

وعندما انتهى من حديثه كان الخفراء قد أصبحوا على مسافة بعيدة ولم يعد من السهل الاتصال بهم عن طريق الكلام وفجأة صوب زكريا مدفعه نحو الجبل وشد على الزناد .. وانطلقت الرصاصات تعربد فى الفضاء وصداها الرهيب يجلجل فى أنحاء الجبل واستدار نحوى فى كبرياء ملحوظة وقال فى غير ميلاد :

ال هجوم بدأ .. تقدر تكتب بقة !!

ولم يكذ زكريا ينتهى من عبارته هذه حتى ضج الفضاء حولنا بألاف الرصاصات ونظر زكريا نحو الجبل وقد اتسعت عيناه أكثر وتفضنت جبهته ثم لم يلبث أن عاد اليه الهدوء وقال فى سرور بالغ .

— دا العيال بتوعنا ..

ثم التفت نحوى وقال :

— تقدر تكتب تقول .. وكانت الطلقات تشق كبدا الجبل الغربى ايسه رايك فى أسلوبى بقى أنا كنت غاوى الكتابة على فكرة وتعرف لو كتبت .. مين عارف ؟

وعندما حمى ونطيس المعركة عن ذى قبل استدار مرة أخرى نحو الجبل ثم نظر الى الخفير العجوز الذى كان هو الآخر منهمكا فى تبين حقيقة الامر وبدا انه لم يعد يفهم شيئا مما يحيط به وانه يعلق أهمية كبرى على ما سوف ينطق به الخفير العجوز .

وتكلم الخفير أخيرا وقال فى هدوء بالغ :

— دا مش رصاصنا دا رصاص مدافع .. العيال بتوعنا ماسكين بنادق .

وهتف زكريا فى ارتباك شديد :

— مدافع .. مدافع .. أنت متأكد ؟ أمال ايه ؟ نعمل ايه طيب ننسحب

ننسحب ..

وارتفع صوته عاليا رهيبا :

— ارجع ورا يا غفير .. ارجع ورا ..

ولكن صوته رغم ضخامته تلاشى فى الفضاء وعندما ارتفعت صرخة من مكان ليس بعيدا عنا هتف فى وجه الخفير وفى وجهى ..

— ننسحب احنا ..

ولم ينتظر حتى يسمع رأينا في هذا الامر بل اسرع بالانسحاب وراح الخفير يلبث وهو يجرى خلفه وانطلقت انا الآخر اعدو بأقصى قسوة .. واختلطت الأصوات الطلقات بصراخ الجنود بأصوات اعداء الذرة الصيفى الجافة وهى تتكسر تحت اقدام الجميع ورسم الظلام والليل والخوف لوحة رهيبة لجو المعركة ، وكان الفزع قد استبد بنا .. وكان واضحا للغاية أن شيخ الخفراء هو أكثر الجميع فزعا وكان منظره وهو يجاهد ليعدو بأقصى سرعة يدعو الى الرثاء والى الضحك معا .. ورغم ضخامته فقد كان يبدو وهو يجرى كأنه عصفور مذعور فاجأه صياد قاس لا يرحم .. وعندما اكتشف أن المدفع الرشاش الذى يحمله على كتفه يعوقه عن السرعة المطلوبة . القى بالمدفع على الأرض أمامه ولكنه — لسوء الحظ — داس على الزناد وهو يجرى فانطلقت رصاصة الى أعلى أصابته فى كتفه فسقط على الأرض مضرجا بالدماء .

كان أنينه مزعجا ورهيبا وقاسيا للغاية ولكنه لم يلبث أن انكفأ على وجهه بلا حراك . وانبطحت على وجهى فوق الأرض الى جانبه اتحسسه بيدي .. وكان الخفير قد لحق بنا فجلس على الأرض عند رأسه يلعن كل شئ ويده تتحسس جبهة الملقى على الأرض والخفراء الذين كانوا خلفنا بداوا يفدون الى المكان الذى وقع زكريا فيه وأخذوا يلتفون حولنا صامتين لا يجرؤ احد منهم على أن يشعل عود ثقاب واحد .. حتى لا نصبح هدفا لرصاص المجرمين الذى كان حتى هذه اللحظة يعوى حولنا فى كل اتجاه .

كان من المحتمل أن شيخ الخفراء قد مات فقد كان نبضه خافتا للغاية وثمة دم يسيل من كتفه ساخنا حارا وفمه ينفث أحيانا بشهقات سريعة متلاحقة وثمة خفير دغير كان يقف عند اقدام زكريا ينتحب فى حرقه بالغة وفى تأثر صادق وسيل الرصاص المنهمر قد توقف والليل أخذ يسحب ذيوله خلف الجبل وطيور الصباح الصغيرة راحت تقطع الفضاء فوق رؤوسنا فى اتجاه الحقول الدافئة ، وبدا وجه زكريا على ضوء النهار الشاحب أصفر باهتا كالنهار نفسه وحملت الينا الريح صوت العربات الضخمة التى كانت لأبد تبحث عنا خلال الظلام وصرخ الخفير الشاب الذى كان يقف منتحبا منذ لحظة مستنجدا ولم تمض لحظات حتى وصلت العربات الضخمة ، ونزل المأمور أولا نائما يغالب النعاس

وتبعه مندوب الوزارة ومفتش البوليس وانحنى المأمور يفحص شيخ الخفراء ثم رفع اصابعه المملوطة بالدم وتمتم في انشراح .

— الحمد لله .. بسيطة ..

كانت الاصابة فعلا بسيطة اخترقت الرصاصة لحم الكتف ولكنها لم تصب العظام بسوء .. وانتزع أحد الخفراء منديله المحلاوى الكبير من فوق رأسه ولفه حول الجرح الذى كان لايزال ينزف دما . وانطلقت عربية سريعة نحو المدينة لتحضر طبيبا على عجل ووقف مفتش البوليس بجوار شيخ الخفراء وجلس مندوب الوزارة على رفرف عربية وانتشر الخفراء حولهما فى كل مكان .

وهز المفتش رأسه فى عصبية بالغة وقال لمندوب الوزارة :

— ستعرف أن هذا صحيح عندما تجرب لحم الارانب ، كل أرانب وسترى !

ولم يرد مندوب الوزارة .. كان يتشاءب فى خمول ويرعش سساقيه فى عصبية بالغة .. وشيخ الخفراء الجريح يتمدد فوق بطانية الى جانب التربة . والجبل الغربى يبدو خلفنا كقبر رهيب شيدته أجيال وعصور متعاقبة والخفير العجوز يشعل سيجارة ويبصق فوق الارض ويلعن كل شىء ثم ينظر الى شيخ الخفراء ويمصص شفثيه فى أسى ..

المأمور



سيحضر المأمور الليلة وسيكون كل شيء على مايرام .
وحضور البية المأمور بنفسه الى قهوة الاشراف لزيارة
المعلم غزال ليست بالشيء القليل ، ولكنه حدث له قيمة
وسيكون له شأن في مستقبل الايام . فالبيه المأمور لا ينتقل
بسهولة الى أى انسان وهو فى دائرة عمله لا ينتقل الى
مخلوق ، بل أنه يتمتع بنفوذ الملوك . وهو يستطيع ان يقول
للشيء - أى شيء - جماد . حيوان . بنى آدم . كى
فيكون !

ولقد تعرف المعلم غزال على البية المأمور فى السجن . عندما كان
المعلم غزال سجيناً ، وكان البية المأمور هو الحاكم العام خلف الأسوار . وفى
أول لقاء بين المأمور والمعلم غزال احتد المأمور على المعلم فأهـانـه ،
وتكررت الاهـانـات بعد ذلك حتى بلغت الضرب . وكان قاسياً فاذا
اعتدى بالضرب على أحد تحول الى وحش مفترس ، وكان أحياناً ينسى نفسه
فيطبق بأصابعه على عنق السجين حتى يشرف على الموت وعندئذ يخلصه من
المصير البشع ضباط السجن وعساكره . وبدا من كثرة ترده على زنازة
المعلم غزال أنه يتعبه ويتعمد اهانتته . لذلك عمد المعلم غزال الى احناء رأسه
أمام عاصفة المأمور حتى تمر ، كف عن الاستفزاز حتى ينجو بنفسه من
شر عظيم . ودرّب نفسه على منافقة العساكر والضباط والمسجونين حتى لايعطى
الفرصة للمأمور للتكيد به . ونجحت خطة المعلم غزال ، وابتعد المأمور عنه

شيئا فشيئا حتى نسيه تماما وأصبح المعلم غزال مجرد سجين عادى لا شأن له بالادارة ولا بالمأمور .

وكان المعلم غزال وسيما ورقيقا وابن بلد مجدع حقيقى ، التف حوله السجناء ، فرحين بهذا النموذج النادر الذى يندر وجوده فى مثل هذا المكان .
ففى السجن حيث يتقاتل الرجال من أجل قطعة جبن ملوثة بالتراب ، وحيث يفقد الرجل عينه من أجل عقب سيجارة ، وحيث الحياة كثيبة وفى أقصى درجات الانحطاط . فى جو مثل هذا تصبح للأشياء التافهة قيمة عظيمة . ويصبح الورق الملون وعلب الصفيح الفارغة والمزق المهلهلة من الثياب ، وبقايا علبه السجائر الفاخرة الطباعة من مقتنيات الشخص يحرص عليها أكثر من نفسه ويموت فى سبيلها كأنها الارض والعرض والاولاد .

ولكن المعلم غزال لم يسمح لجو السجن أن يأكله ، كان كريما . ما يملكه ليس له . نفوده يوزعها على الجميع ، وعلبة سجاريه مفتوحة دائما ، والمأكولات ، التى تصله من الخارج لا يذوقها فى اغلب الاحيان ولكنها للراحة والصحاب فى عنبره وفى كل العنابر . وأصبح المعلم غزال زعيما فى السجن رغم أنه لم يدخل السجن من قبل ، كلمته على المسجونين أوامر ، وشفاعته لديهم حكم ، والسجان اذا اراد أن ينفذ أمرا استعان بالمعلم غزال . وأصبح المعلم غزال حبيب كل مسجون ، حتى الذين يخرجون افراجا الى دنيا الحرية ، كان المعلم غزال يزودهم بالنقود وأحيانا يعينهم فى أشغال يحصلون منها على لقمة العيش .

ولكن لم تكد تمر شهور على هذا السلام الذى ينعم به المعلم غزال . حتى اوقع نفسه فى شر أعماله . وصلته هدية من أحد أصدقائه فى الخارج عشرة أقفاص خوخ معتبر ليس مثله فى الاسواق ، فترك خمسة أقفاص للمساجين ، وأرسل خمسة أقفاص للبيه المأمور . وسرعان ما استدعاه المأمور الى المكتب ، وكانت طريقة الاستدعاء تنبئ عن كيفية الاستقبال . فقد جاء عسكري غليظ الى الزنزانة وجر المعلم غزال من قفاه الى مكتب البيه المأمور . وعلى الباب كانت جريمته تنتظره . أقفاص الخوخ مرصوصة بعضها فوق بعض لم تمس ، وعسكري المأمور واقف عند الباب مهتد وفى حالة انتباه . وانتظر المعلم غزال عند الباب ساعات حتى فرغ البيه المأمور من مشاغله ، وعندما سمحوا له بالدخول ، كان المأمور مجعوصا فى الكرسي الدوار وعصاه تنام امامه فوق المكتب وعيناه تقدحان شررا وملامحه كلها تنذر بالشر .

وقال المأمور وعيناه مثبتتان على وجه المعلم غزال :

— ايه الخوخ ده يامسجون ؟

وتصرف المعلم غزال بلباقة فقال وعيناه تنتقلان بين المكتب والجدار .

— هدية ياسعادة البية ، وزعت نصفها على عنبر ٩ وارسلت نصفها
لسعادة البية المأمور ليوزعها بمعرفته على بقية العنابر ٠٠ وكل سنة وسيادتك
طيب .

وقال المأمور بعد أن اعتدل فى جلسته :

— يعنى باعتها للمساجين ؟

— نعم .

قالها بسرعة وبهدوء كأنما الرد لا يحتمل التأويل ولا يقبل أى تفسير آخر .
وقال المأمور وهو ينهض من مكانه ليقرب من المعلم غزال :

— أنا افكرت حاجة تانية يعنى ...

— حاجة تانية ايه ياسعادة البية ٠٠ استغفر الله .

ومد المأمور يده فتناول عصاه . ولوح فى وجه المعلم غزال ، يأمره بالانصراف
وجرى المعلم غزال وهو يحمد الله الذى نجاه من براثن المأمور ، فقد كان
المطب الذى وقع فيه فرصة المأمور لتمزيق لحم وجهه لو اراد !

بات السجن وسكانه فى شدة السرور للرزق الذى هبط عليهم من حيث
لا يعلمون . وأصبح المعلم غزال أشهر مسجون بسبب هدية الخوخ التى وزعها
البية المأمور بنفسه حتى يتأكد من أن المساواة قد تحققت والمعدل يأخذ مجراه .
ولم تمض أيام حتى استدعى البية المأمور المعلم غزال واستقبله بابتسامة عريضة
وسمح له بالجلوس وقدم له سيجارة وطلب له واحد شاي فى كوب زجاج من
نفس النوع الذى يشرب فيه البية المأمور .

وسأله عن صنعته وعن تهمته فأجاب المعلم غزال اجابات سريعة بأنه من
نوى الاملاك فى الجيزة وصاحب قهوة الاشراف ويحتكم على عدة ألوف من
الجنهيات وأربع سيارات تاكسى وانه ألفى ومبسوط والحمد لله . ودرش
المأمور مع المعلم غزال ، وكانت لهجته حلوة وضحكته صافية وقلبه أبيض كاللبن
الحليب . ولأول مرة يعرف المعلم غزال ان البية المأمور اسمه راشد وانه
قضى فى السجن أربعين عاما طويلة ، وانه بدأ حياته من تحت السلاح ووصل

الى آخر ما يمكن لرجل مثله أن يصل اليه ، وانه رجل دوغرى وصل الى مكانه
العالى بالصبر والمشي على الصراط المستقيم .

وتكررت المقابلات بين البية المأمور والمعلم غزال وتوطدت الصلات بينهما
أكثر . وحيانا كثيرة كان البية المأمور يسمح للمعلم غزال بالجلوس معه حتى
بعد التمام . وكان يتباحث معه أكثر فيوصى العسكري أن يترك بابه مفتوحا
طول الليل . وتحول السجن الى جنينة وأصبح المعلم غزال مأمور مساعد
للسجن ، وأصبحت سهراته وقعداته مع المأمور حديث كل المسجونين ، ولان
المأمور القاسى المتجهم الذى لا يرحم أمه ، والذى كان يحكى ذكرياته للمعلم
غزال فى زهو شديد ، وهو يشرح بالتفاصيل كيف كنتم على أنفاس السجين
نقتله ، وكيف ألقى بآخر من آخر دور ، وكيف ضرب بالكرباح ولد قاتل شديد
البأس حتى قضى عليه . ولكن هذه الحوادث كانت أيام الشباب وكان البية
المأمور لا يزال شائشا بعد ، قويا كالثور ، شديد البأس كعنترة ، وكان
لا يستفزه الا القتلة والعيال المجدع فتوات زمان .

— تعرف أنا فى يوم كنت فى سجن مصر ، الكلام ده كان قبل الحرب ، سنة
٣٥ يمكن ، وكان البية المأمور انجليزى ، وجه السجن واد فتوة ضرب واحد
بالروسية قتله . كان واد زى الحديد ، كانت بزازه طالعة من صدره زى بنت
١٤ كان يمشى فى السجن زى ما يكون فيل ماشى .. وكان فى السجن واد
عسكري زى الحيطه كان كل السجن بيخاف منه . لكن الواد الفتوة ده خلاه
مسخة فى السجن . ضربه بضهر ايده على صدره خلاه طرش الدم .. تعرف
همت ايه ؟ .

وكان المأمور يسكت عند هذا الحد من القصة .. ثم يزوم كأنه ذئب ،
ويهز راسه هزات متتابعة رتيبة ويقول فى صوت خفيض :
— الغرض .. أيام ..

كان المأمور مفتونا بقتوه ، شديد الإعجاب ببنيانه المتين . والحق أنه
كان رجلا من طراز غريب . كانت عظام ذراعه عريضة كأنها جريدة نخل ..
وصدره أعرض من المكتب الذى يجلس عليه ، وشاربه مفتول بقوة كأنه
جناح صقر وسمانة رجله منفوخة كأنها كرة قدم . وصوته يجلجل كأنه زئير
أسد . وكان اذا سأل أحدا من معاونيه لايتوقع جوابا ، كان يسأل ويجيب
فى الوقت نفسه ، وكانت أسئلته أوامر ، وأجوبته أوامر ، وإشاراته وإيماءاته

كلها قوانين ومراسيم . وكان المعلم غزال اذا جلس معه لا يعلق ولا يجيب ،
كان يكتفى بالابتسام ويهز راسه بين الحين والحين . .

والحق أن المعلم غزال أحب البية المأمور حبا لا مزيد عليه . نحن مخطئون
لاتنا نحكم على الناس من الظاهر ، ولو أننا تمهلنا في اصدار الاحكام على
الناس وغصنا في اعماقهم لتبين لنا العكس . وهاهو البية المأمور خير شاهد
على صدق نظرية المعلم غزال . لقد كرهه في البداية ، وصدق مايقال عنه في
الزنازين ، وآمن بكلام المساجين بلا روية ، وانقاد في الطريق الخاطيء بلا وعى .
هؤلاء المساجين قطعاً غشاشين . ولو لم يكونوا كذلك لما كانوا هنا في
السجن . . والبيه المأمور معذور عندما يقسو . الناس هنا يستحقون القسوة
بعضهم مجرم حتى النخاع ، وحتى الطيبين منهم يتحولون داخل السجن الى
ذئاب . ولولا عصا المأمور وقسوته لانتقلب الامر هنا الى فوضى ، ولأصبح
السجن غابة من الذئاب والفهود .

في الشهور التي شهدت الصداقة المثينة بين المأمور والمعلم غزال ، تحول
المعلم غزال شيئاً فشيئاً ، فأصبح لا يخفى اشمئزازه من تصرفات المساجين ،
بل وأصبح يدافع أحيانا عن تصرفات المأمور .

وهمس المساجين بحقيقة العلاقة بين البية المأمور والمعلم غزال ، وانتقل
الهمس من زنزانة الى أخرى ومن عنبر الى آخر ، وبدأت الجفوة بين المساجين
والمعلم غزال تتسع ، ولكن المعلم غزال لم ينتبه الى هذا التغيير على الاطلاق .
فلم يكن لديه الوقت للتفكير في هذا الامر . النهار بطوله عند المأمور ، وعندما
يعود من المكتب يكون المساجين داخل الزنازين . . وخلال تلك الايام عاد المعلم
غزال الى حياته الاولى ، أكل مرة ملوخية بالارانب مع البية المأمور . وسمح له
بطبق طرشى بلدى من سيدنا الحسين كان المعلم غزال يتمناه .

وذات مغربية والمعلم غزال يتأهب للخروج من مكتب المأمور الى الزنزانة
قال المأمور وهو ينفخ صدره ويشفط كمية كبيرة من الهواء :

— المساجين ببسألوا ع الخوخ يا معلم غزال .
وقال المعلم غزال :

— انا تحت امرك يا بسعادة البية . .

وقال المأمور وهو يهز عصاه :

— الف شكر يا معلم ، عندك زيارة باكر انشاء الله ، ابعت الخوخ على هذا العنوان .

جلس المعلم غزال في الزنزانة طول الليل يتفرس العنوان المكتوب على الورقة التي دسها المأمور في يده لحظة خروجه من المكتب « ١٠ شارع كمال صدقي بالدقي » ولم ينم المعلم غزال حتى اشرق الصباح . وكان اسمه في مقدمة كشف الزيارة ، ووقف من خلف الاسلاك يتحدث مع زائريه باضطراب ، ثم دس لهم الورقة من خلال الثنوب وقال وكأنه يقرأ من كشف مكتوب :

— عشر صناديق خوخ ، وديكين رومى وصفيحة سمن بلدى معتبرة وخروف سمين وكام جوز فراخ فيومى .

وعندما انتهت الزيارة عاد الى زنزانتة وأغلق على نفسه الباب ونام ، وعشرة أيام طويلة مضت بعد ذلك وهو يعاني من الاضطراب ، النوم أصبح أعز عليه من الافراج . وأصبح قليل الاكل شديد الانطواء ، حتى حارس الليل الشاويش شاهين لم يعد يجد متعة في الحديث اليه من خلال ثقب الباب . والبيه المأمور لم يعد يستدعيه ولم يعد يسأل فيه ، وطافت الظنون به وعذبتة أى عذاب !

لابد أن أهله تهاونوا في ارسال الهدية ، لابد أنهم ظنوا الامر كله مزاحسا ، أو ربما ضاعت منهم الورقة التي تحمل العنوان . ولكن نفس المعلم غزال أصابها الاطمئنان ذات صباح ، كان في حوش السجن يدور مع السجناء في الطابور ، وكان البيه المأمور يقف كالفهد على باب المكتب ، عصاه في يده ، ونظارته السوداء على عينيه . وعندما لمح المعلم غزال لوح له بالعصا فتقدم المعلم غزال نحوه في اضطراب . وعندما اقترب منه قال المأمور في اقتضاب :

— متشكرين ..

ولم يزد حرفا ، وعاد المعلم غزال الى الطابور ، ولكنه عاد منشراح الصدر قرير العين فقد وصلت الهدية بحمد الله الى بيت المأمور .

ولكن هذه المسألة لم تمر ببساطة ، ففى السجن كل شئ ينكشف بعد حين هدية المعلم غزال أصبحت حديث السجن كله . حتى السجانة اشتركوا مع المساجين فى الهمس والتأليف . وانتقل الهمس الى الضباط ، وانتقل من الضباط الى المأمور . وأصبح السجانة أكثر ضراوة وأشد قسوة على المعلم غزال ، وإذا كان المعلم غزال يدفع رشاوى فليس أحق بها من السجانة الفقراء ...

واحتمل المعلم غزال الاذى واحتمل الاهمال . فهو على استعداد للموت ولا يخسر البية المأمور .

ولكن سلوك المأمور بعد ذلك كان غريبا وامره كان عجيبا .. ازدادت الجفوة بينه وبين المعلم غزال .. حتى حمايته لم يعد يبسطها عليه ، ذات صباح كبس المأمور على الزنازين في حملة تفتيش ، وعندما فتح السجان زنزانه المعلم غزال وقف المعلم « تمام » وكبست العساكر على الزنزانة وفتشوها ، وعثروا على ممنوعات كثيرة ، أمواس حلاقة ، وابور سيرتو ، زجاجة جاز ، وامتدت ايدى العساكر تداعب قفا المعلم غزال ، كل ذلك جرى والبيـه المأمور واقف كالصقر على باب الزنزانة يباشر العملية بهمة ويتفرج وكأنه لا علاقة له بالمعلم غزال . وعندما انتهى التفتيش والضرب شدوه من قفاه على التأديب ، وغاب هناك ثلاثة أسابيع .

وخلال الاسابيع الثلاثة لم يسأل عنه أحد ، لم يرسل له مسجون سيجارة ولم تصله حبة حلاوة ، ولا كوباية شاي . وجلس يفكر في هذا الانقلاب الذى حدث له في السجن . في البداية كانت زنزانه دائما عامرة بالمساجين ، يزورونه في الصباح وفي الظهر . وكان بعضهم يقوم عنه بالعمل ، يغسل له الزنزانة ، ويسخن له الطعام ، ويعد له الشاي ، وكانوا يجلسون في حلقة حوله يغنون له ويرقصون . ومرض مرة فسرقتوا له الدواء من مستشفى السجن ، وناموا الى جواره مخالفين الاوامر حتى لا يبقى وحيدا في الليل ؟ ما الذى غير السجناء وجعل قلوبهم تقسو عليه ؟

صحيح انه لاحظ منذ بدأت علاقته تتوطد بالمأمور نفورا من جانب السجناء ولكن هذا النفور لم يكن حادا مكشوبا ولكنه استطاع ان يحسه على اية حال . كانوا اذا جلس معهم لا يتكلمون الا بقدر ولا يعلقون على الاشياء الا باتزان ، وتحولت ضحكاتهم معه الى شيء أجوف بلا رنين ، وحتى السلام يلقونه عليه بصفة رسمية خاليا من الود والصفاء . ومع ذلك لم يعر الامر اهتماما في البداية وعندما تطورت الامور بعد ذلك الى عدااء حقيقى لم يهتم على الإطلاق ، فهو على اية حال ليس من صنف هؤلاء الناس . فهم مجرمون اعتادوا حياة الاجرام وهم في السجن ربما يتمتعون بحياة اطيب من التى كانوا يحيونها خارج الاسوار وهو اذا صادق المأمور فليس في الامر ما يحرر . فقد كان له في الخارج اصدقاء كثيرون من هذا الطراز الممتاز . والسجن بالنسبة له ليس مستقرا كما هو

بالنسبة للآخرين . ولكنه جسر كتب عليه أن يعبره بسبب جريمة لم تكن على
البال ، فقد كانت خناقة تقوم عشرات مثلها كل يوم ، ولكنها تطورت الى تماسك
بالأيدي وضرب بالاعتلال . وهو عندما هوى بكف يده على وجه صبي القهوة
بيومى لم يكن يخطر على باله أن الامر سيتطور الى هذا المدى البعيد ، فقد
هوى بيومى ميتا . ولا حول ولا قوة الا بالله ، مصيبة وقعت على رأسه بسبب
عيون الناس التى لا ترحم ، وهو من أجل ذلك فى السجن وان كان الامر كله
لن يزيد على ثلاث سنوات .

على أية حال لقد مضت الاسابيع الثلاثة بطيئة مريرة ثم عاد الى الزنزانة
ورغم أن عودة كل مسجون من التأديب الى الزنزانة تعتبر حدثا داخل السجن
الا أن عودته مرت دون احتفال ، فأغلق باب الزنزانة على نفسه وقاطع الجميع
المساجين والحراس ٠٠ ويوما بعد يوم اعتاد حياته الجديدة ، ووجد متعة فى
السجن الجديد الذى شيده داخل السجن . وأصبح يطبق اللوائح على نفسه
بدقة ولا دقة السجن ، فلا أمواس حلاقة ، ولا وابور سبرتو ولا زجاجة جاز .
وحتى السجائر أفلح عن تدخينها والشاى كف عن شربه وراح يجترأ أيامه فى
السجن عازفا عن كل شىء حتى عن طابور الصباح . . ثم قرر أن يطلق لحيته
وأصبح يقضى الليل قائما يصلى ويذكر ربه بصوت عال ألق راحة المساجين فى
الليل . وعندما ترامت الانباء الى البية المأمور عما أصاب المعلم غزال استدعاه
ذا تصباح . وعندما وصلت الدعوة لم يفرح بها كعهده من قبل . خرج مع
العسكري يتمتم باسم الله حتى وصل الى هناك . . ودهش المأمور لمنظره
واستفسر عن سر اطلاق اللحية والهداية التى حلت عليه فجأة وبلا سابق
انذار . وقال المعلم غزال وهو يخفض بصره الى الارض :

— مفيش حاجة يا سعادة البية .

— مفيش حاجة ازاي ، انت عامل احتجاج والا ايه . .

— ولا احتجاج ولا حاجة يا سعادة البية .

— امال اشمعنى الدروشة ما حطتش عليك الا من يوم مارحت التأديب ؟

كنت فاهم ايه انت ؟ انك اشتريت السجن يعنى ، والا عشان . .

ولم يتم المأمور العبارة ، انهال بيده السمينة القوية على وجه المعلم غزال
فطوح به على الارض . ثم ركله بقدمه ركلة قوية ألقت به خارج المكتب ، ثم

السدعى العسكرى الحلاق وامره بأن يزيل لحية « الشيخ غزال » وأن يعيده مرة أخرى الى التأديب حتى يعود عقله الى رأسه من جديد .

وقضى شهرا فى زنزانة التأديب يفكر فيما حدث من المأمور ولماذا حدث ؟ لقد كان صديقه فترة طويلة وكان بينهما عمار . ومن أجله خاصم السجن كله وقاطع المساجين كلهم ، وأرسل اليه فى البيت بما طلبه وأكثر . مسلك غريب لم يفهم مغزاه وموقف يحتاج الى عشرة أنبياء لكى يتولوا عنه عملية التفسير . وذات صباح دق عليه باب الزنزانة طارق وامتدت له يد بعلبة سجائر ، ولكنه رفضها برفق . وعندما امتدت فى اليوم التالى يد أخرى ببرطمان مـربى ردها فى عنف . ثم وقف يصرخ فى الزنزانة كالمجنون .

— كلكو شمتانين فيه ، شمتانين فيه ، يامجرمين ياولاد الكلب .
وجذب صراخه العساكر فأشبعوه ضربا حتى هدا ثم انقلب على جنبه وتم . ثم جاء الفرج بعد ذلك ، وجاءه الانعراج ، وخرج من باب السجن فى حراسة مشددة الى الدنيا الواسعة حيث لا يوجد وحوش مثل هؤلاء المساجين والسجانة ايضا من نفس طينة المساجين ، وحوش فى ملابس رسمية . . ولكن اليه المأمور سيظل صديقه رغم كل شيء . وهذه الليلة ستكون آخر مزاج . . سيحضر البية المأمور ، وسيعرف مقام المعلم غزال فى دنيا الحرية ، ربما اخطأ فهم هذه الحقيقة خلف الأسوار . وستكون وليمة ولا عزومة فى بلاط الرشيد ، وسيحضر كل الخلان ليروا البية المأمور بنفسه جالسا مع المعلم غزال وقد يحاول المأمور الاعتذار عما بدر منه .

ولكن المعلم غزال لن يقبل أى اعتذار ولن يعطيه الفرصة لذلك فماتت خدمات . والمهم اللحظة التى نحن فيها . وهو اذا كان مأمورا الا أن المعلم غزال رجل الفى وله شنة ورنة وله سلطان فى الجيزة يفوق سلطان البية المأمور فى الليمان . والاضواء باهرة والدنيا حر والمعازيم تتحرك اشباحها على الجدران ولكن هناك صمت مربع ، لا أحد يتكلم معه ، لا أحد يتحدث اليه ، كأنها المعازيم مساجين تعقبوه من الليمان الى الحياة .

وصرخ المعلم غزال صرخة مدوية ثم سقط على الارض مغشيا عليه وقد اطبق الظلام على كل شيء . لم يكن المسكين يدرك أنه غادر السجن منذ شهر طويلة الى مستشفى المجاذيب .



العبرة



ابدا ٠٠٠ ليس فهمى عبید کالآخرین !
فالحياة ليست وظيفة ومواعيد مضبوطة وزوجة
تنام فى حضنها طول الليل وفلوس معلومة والاولاد تزهرق
الشيطان وتقصّر العمر ! الحياة مخ وتفكير واختراع
وحرب لا تنتهى وقفز فوق كل المعوائق واجتياز لكل الحواجز
والسباحة بعزم من حديد مع التيار احيانا وضد التيار
احيانا ٠٠ ولكى تبلغ الغاية لابد من الصبر ومضغ المشوك
اذا اقتضى الامر ، المهم أن يصنع المخلوق شيئا عظيما
والافانه لم يخلق على الاطلاق .

ولذلك عندما خرج فهمى عبید من مدرسة الصنائع قبل أن يحصل منها
على شهادة ، وقف فى دكان والده الحاج عبید وفى يده مروحة من ريش الفراخ
يشربها الذباب من على وجه الزبون ثم يمد يده بعد الحلاقة ويقبض بها فى
مست على القرش صاغ اذا كان الزبون ثريا ، وعلى قرش تعريفه اذا كان
الزبون من الحقة ، وعلى الهواء لذا كان الزبون خاوى الوفاض مثل رأس الحاج
عبید ابو !

واذا كان ثمة مثل حى المتناقض فى الوجود فليس ادل على هذا المثل من
الحاج عبید وابنه . فمنذ أربعين عاما والحاج عبید فى هذا الدكان ، شاخت
حركاته وطقطق بياضه ، انخلع بلاطه ، وتقوس بابه فلم يعد ينفلق ولا ينفتح
لا بعد مصارعة عنيفة تستغرق ساعات كل صباح وكل مساء . . ومع ذلك

فالحاج عبيد ميسوط فرحان . وهو يحمد ربه على نعمائه ، ويتمنى لو استمر الحال على هذا المنوال الى أن يلتقى ربه في هدوء . . ولكن الولد فهمى لايعشق هذا الطراز من الحياة . وأبوه الحاج عبيد ميت من زمان ، وهذا الدكان قبره . وهؤلاء الزبائن كأنهم زوار هذا القبر المهجور ، وعام بعد عام يتناقص عددهم باستمرار ، وسيأتى يوم قريب لا يجد فيه الحاج عبيد ما يأكله وسيموت مكانه وقد يتحول الى طعام للقطط والكلاب .

ولكن فهمى عبيد لن يترك أباه يتردى في تلك النهاية . سيصارع من أجل أن يطفو على السطح ، وسيكسب آلاف الجنيهات . فهو يحس احساسا عميقا نابعا من أعماق نفسه أنه خلق لكي يكون فوق القمة ، وأنه ولد ومعه كل أدوات النجاح والوصول الى المكان الذى يريد . وذات صباح اختفى فهمى من الدكان ، طاف في شوارع السويس يبحث عن عمل جديد . ولكن البحث قاده في النهاية الى دكان حلاق . . صحيح أنظف من دكان أبيه وصحيح أن الحى هنا أفقر وأغنى والشارع هنا أنظف والمع والزبائن هنا أغنى وأوجه وعطر يفوح من داخل المحل ، ومراوح في السقف ومرايات على الحيطان وأسطوانات في ملابس دكاثر وزجاجات اشكال على ألوان كأنه صيدلية ، وهو لا يهش على الناس هنا بمروحة من ريش الفراخ ولكن مروحة هنا من ريش النعام وأصابعه تمتد للزبون لتقبض أحيانا على نص افرنك وأحيانا على شلن كامل ولكن المعصية أن ما يحصل عليه هنا أقل مما كان يحصل عليه عند أبيه . . لقد كان في دكان أبيه هو الاوحد وكل الاموال السائلة هناك تصب في جيبه ، ولكن هنا الامر يختلف جميع الذين يعملون هنا يشتركون في البقشيش الاسطوانات يدخلون القسمة براجل وأنصاف الاسطوانات يدخلون القسمة بنصف راجل والصبيان يدخلون القسمة بربع راجل ، حصيلته آخر النهار نص فرنك لا يزيد وهجر الدكان وعاد لدكانه أبيه وفي المساء كان يجلس وحيدا في ميناء السويس ينظر في اسى شديد الى السفن المارة من بعيد ، ويحلم بسفينة من هذه السفن الكبيرة تضربها الرياح فتجنح الى الساحل ، وتأخذ الى الشاطئ الاخر البعيد . . ولكن سفينة واحدة لم تقترب من الشاطئ ، وجنية واحدة لم تظهر من أعماق الماء لتعشقه وتخطفه لتحقيق له ما يريد ، سنوات طويلة مضت وفهمى عبيد أصبح فى العشرين والأسوار التى من حوله تزداد ارتفاعا ، ولكنه رغم ذلك كان مطمئنا الى أنه سيحطم هذه الاسوار او يتسلقها يوما ما . . وكان فهمى على

حق ، انفجرت الحرب العالمية فجأة ، وتدفق على السويس خلق كثيرون وأجناس
شتى ، وأصبح في كل ركن كامب يضيق بالجنود ، ومخزن يكتسب بكل شيء ،
والفلوس تتلاطم في أيدي الناس . . كما تتلاطم أمواج البحر عند رصيف ميناء
بور توفيق ، واشتغل فهمى بوابا على كامب ، فترة ليست طويلة ولكنها أتاحت
له مبلغا من المال بدا حياته كمقاول معتمد للجيش . . والجيش الانجليزى حمار
ليس فيه ربط ولا ضبط ، الشاويش الانجليزى يتسلم مائة بيضة ويوقع على الف
ويأخذ ألف رغيف ويمضى على عشرة آلاف ، والفلوس تجرى الان بين يديه
كما تجرى سيارات الانجليز على طريق المعاهدة . نظرية فهمى اذن صحيحة
والحياة مخ وتفكير واختراع ، وكل شيء ممكن وكل شيء يجوز ، ولكن أصدقاء
الصبا الذين نجحوا في مدرسة الصنایع لا يزالون يجلسون على المقهى يلعبون
الطاولة كل مساء ، وابوه لا يزال في الدكان ، وصبيان الحلاق الكبير لا يزالون
يهشون المذابح بمراوح من ريش النعام . . ومضى فهمى يمتص حياته حتى
الانخاع . والفلوس التى لا تنزه صاحبها ليس لها لزوم . . والحياة مخ وتفكير
ولكنها أيضا متعة وانبساط . . وليس امتع فى الحياة من كازينو بديعة . والبنات
هناك ماركات كسيارات الركوب ، وكل واحدة لها شكل وكل واحدة لها لون .
والدنيا أيضا حظوظ ، وحظ فهمى مع قدرية ، وكل واحد برزقه ورزق قدرية
وفير . . وقدرية حلوة وصغيرة وفهما دائما يضحك ، ودمها خفيف كأنها سمكة
بلطية . ولو كان فهمى من النوع الذى يتزوج لكانت قدرية زوجته ، ولكنه
لا يتزوج ولا يرتبط بأحد . ولكى تنجح لابد أن تكون وحدك ، لـكى ترفرف
كالعصفور فلا تربط عنقك بحجر ثقیل يمنعك عن الطيران . ولكن الشيطان
شاطر ، وقدرية حملت ، وداخت وداخ معها فهمى لتسقط حملها دون جدوى ،
كأنها حملت في حجر يابى أن يتدحرج من بطنها ، كأنه قرد يقبض على مصارينها
بأظافر من حديد . كارثة صحيح . ولكن الفلوس كفيلة بحل كل الكوارث ،
المولود بنت الخالق الناطق شبه أبوها وفي نعومة أمها . . وفهمى مهما كان
الامر ليس نذلا ، تزوج قدرية بورقة ، وكتب البنت الصغيرة باسمه ، وسماها
سعاد ، فقد جاءت وهو في قمة سعيه . ثم طلق الام ومنحها مبلغا من المال
وبشرط أن تحتفظ بسعاد ، واقترا رسميا وان ظلت الصلة قائمة بينهما كالمعتاد
وفجأة . . هوى نبأ كالمصاعقة سحق قلب فهمى وهذ قواه . . فقد توقفت الحرب
نجاة ، ولم يعد هناك مزيد من الفلوس . . المعسكرات انقرفت والمخازن جفت ،
والدنيا تشققت حالها كأن القيامة على الابواب ، وعاد فهمى الى شوارع

السويس يتسكع اول النهار ، ويقضى آخره عند دكان الحاج عبيد ، ولكنه
م يعد يمسك بالمروحة الساعات الطويلة يقضيها جالسا على كرسى قش امام
الدكان ، يحلق فى الشارع فى زهول ، ويمد يده آخر الليل يتناول من ابيه ثمن
الدخان . والرجل العجوز لم يسأله اين كان ولماذا جاء ؟ كان يسمع أن ابنه
فى رغد من العيش وكان يفرح لهذا كثيرا ، ثم رآه فجأة ذات صباح على باب
الدكان . وأدرك أن ابنه صادفه سوء الحظ ، وأن الحياة هذا شأنها منذ الازل
تصفو حيناً ، وتتجهم حيناً ، والعاقل من لا يغيره الثراء ولا يفزعه الفقر .

وهاهى السنوات تمضى وفهمى مكانه على باب الدكان ، ليس معه من ايام
العز الا بطاقة قيمة ٠٠ فهمى عبيد مقالول ومتعهد ٠٠ أين هى العهدة وأين هى
المقاوله ؟ لم يعد هناك شيء الا الدكان والقروش القليلة التى يدسها أبوه فى يده
كل مساء ٠٠ ولكن هاهى الايام تبتسم من جديد ، الحكومة الفت المعاهدة ...
وفى السويس طلبة يطلقون النار على الانجليز ، وعمال يؤلفون كتائب ، وصياع
يحملون السلاح ، وغشاشون انتهزوا فرصة المعركة وارتدوا ملابس الميدان
وليس أعظم من فهمى يعرف معسكرات الانجليز ومخابئهم فى القناة ، ليس أعظم
من فهمى مستشارا لكتيبة نصفها صياع ونصفها نصابين . وفى تلك الايام
التفتت بفهمى فى السويس ، فى مقر كتيبة الغداة ، وكان فهمى وقتئذ مستشارا
يضع الخطط التى لم تنفذ قط ، ويتولى الحرب التى لم تبدأ على الاطلاق .

وذاث مساء كان فهمى يجلس مطرقا فى مقر الكتيبة ، حزينا صامتا مهموما
ينكش أسنانه المسوسة بعود كبريت التقطه من الارض . وعندما سأله عن
سر همومه قال فى هدوء شديد :

- ابدأ انا بس بفكر فى المستقبل ..
 - الكتيبة مش عندها سلاح وذخيرة ؟
 - وانا مالى ومال الكتيبة ماتندعق ، انا قصدى ...
 - قصدك ايه ؟
 - قصدى مستقبلى ..
 - المستقبل بتاع ربنا يا فهمى ..
 - اى نعم .. لكن برضه
- وكان الدم قد سال من أسنانه فألقى بعود الكبريت غاضبا ، وقال وهو
يمسح الدم بأصابعه :

- افترض أنا قدرت اطلع الانجليز من القناة ، الحكومة تدينى مليون جنيه ؟
- انت هتطلعهم لوحداك ؟
- بقول يعنى .
- ياسيدى طلعهم وهمه يدوك عشرة مليون ..
- تفكر ...
- طبعا .

وصمت فهمى قليلا ، وبدا كأنه يفكر بعمق فى موضوع يقلقه ، ثم استأذن وانصرف وعاد بعد أيام ومعه مشروع كامل أطلعنى عليه .

— مفيش حل غير كده ، خلينى بس أقابل رئيس الوزراء ، وأنا اكلمه ، همه يدونى العشرة مليون جنيه وماحدث له دعوة . أنا هاشتري قنبلة ذرية بسبعة مليون جنيه أرميها فى القناة وأنا ألهم الباقي .

وعندما افهمته أن مشروعه خرافى ولا يمكن تحقيقه ، قال فى ضجر :

— انت مالك ، خلينى أقابل رئيس الوزارة ومالكش دعوة .

كان فهمى يعتقد أننى صاحب نفوذ ، وإن نفوذى يمتد الى حد استدعاء رئيس الوزراء فى أى وقت يشاء وأى مكان يريد ، ولذلك بدا له فى الايام التى تلت الحديث حول المشروع أننى أراوغه وأننى حاقده عليه وخطر له أحيانا أننى أضغط عليه كى أساومه . وذات مساء كنت فى مقر الكتبية وحدى حين دخل فهمى ومعه كراس من النوع الذى يستعمله تلاميذ المدارس وفى هذا الكراس كل تفاصيل المشروع من أول السفر لامريكا ، والاتصال بوزير الحربية الامريكية وشراء القنبلة الذرية ، حتى الفندق الذى سينزل فيه لم ينس فهمى ذكره .

وعندما سألته متهمكا :

— واشمعنى فندق والدرف استوريا .

رد فهمى مرتبكا ..

— بلاش .. أى فندق على كيفك ..

وبعد أن انتهى من شرح مشروعه بالتفصيل قال وهو يضغط على فخذه بأصابعه :

— وعلى العموم آهى لقمة ناكلها سوا ..

— يعنى ايه يا فهمى مش فاهم ؟

— ولا حاجة .. ربنا هيسهلنا بثلاثة مليون .. انت تاخذ نص مليون وأنا
الباقى .. بس انت تخلىنى أقابل رئيس الوزارة .

ورغم هذا العرض السخى من فهمى الا أننى لم اتحرك خطوة واحدة فى
طريق اللقاء المنتظر بين فهمى ورئيس الوزارة . واذ انتابه اليأس منى حمل
فهمى كراسته وراح يطوف بها على دور الصحف عارضا مشروعه على المسؤولين
فيها متوهما أنه سيحدث هزة ليس لها مثيل فى التاريخ .

وأصيب فهمى بخيبة أمل شديدة لاعراض دور الصحف عن المشروع ...
وعاد الى السويس والحزن يملأ قلبه واستقال من وظيفته الشرفية كمستشار
لكتيبة الفداء .. وعاد الى دكانه يجلس امامه طول النهار لاعنا هذا البلد الغبى
الذى لا يريد أن يستقل ..

وخلال الايام التى أعقبت استقالته من الكتيبة ازدادت ثورته على كل شيء
وعندما التقينا صدفة فى الطريق ، قال وهو يشيح بيده فى وجع :
— وحياء ربنا لو الانجليز دخايت السويس لآخدمهم بالحضن .. عشان دى

بلد تستاهل الحرق . وعندما دعوته للعودة الى مكانه فى الكتيبة قال وهو
ينتفض من شدة الغيظ :

— يا عم بلا كتيبة بلا زفت .. هى دى كتايب دى .. دا نصب .. دول
عالم كلهم حرامية .

— طيب انت مش كنت مستشار عندهم .

— يا عم مستشار ايه وبتاع ايه .. ع العموم أنا استفدت م التجربة ...
أنا هأعمل كتاب أكشف فيه حقيقة الكتايب دى للرأى العام .

وصمت فهمى قليلا ثم قال :

— بس انت بقى تشوف لى ناشر يطبع لى الكتاب ده وعلى فكرة .. هم

بيدفعوا كام ..

— ميت جنيه .

وبدت الدهشة على وجه فهمى وقال وهو ينظر نحوى نظرات متسائلة :

— ميت جنيه .. ميت جنيه ايه .. دنا فاهم بيدفعوا ميت الف .. خمسين

الف .

— حيلك حيلك .. الكتاب كله مايبيعش الف نسخة يا فهمى .

— مين قال لك كده .. كتاب زى ده ما بيعش اقل من مليون نسخة ...
انا هاقول فيه اسرار خطيرة جدا .. بس انت شوف لى ناشر وانا هتكلم معاه .

ومرت ايام طويلة بعد ذلك ولم تجمعنى الصدفة بفهمى .. وكدت أنسى امره
فى غمار الاحداث التى وقعت بعد ذلك .. خيم الظلام على منطقة القناة ذات
مساء والانباء تتناثر هنا وهناك ان حريقا رهيبا مروعا أكل القاهرة وان الرصاص
ينز فى الفضاء والجثث بالاكوام فى الشوارع واللصوص يخطفون البضائع من
المحلات ورجال البوليس يخطفون الرجال من البيوت وان الامر عاد الى الانجليز
من جديد . وفى الصباح تحققت الاشاعات .. كبس البوليس فى السويس على
البيوت وخطف الرجال والسلاح .. ولفظت المعركة أنفاسها واختفى من
الميدان الفدائيون واللصوص معا ، واضطرت الى السفر خلسة فى الليل من
السويس الى القاهرة تاركا وراءى أشلاء معركة كانت حية نابضة حتى الامس .

وران على مصر فترة من الظلام أسود من قرن الخروب . وذات صباح
انقلبت مصر رأسا على عقب ، تحرك الجيش وقامت الثورة وعادت اللسنة
تلوك معركة القناة من جديد ، وعادت الاقلام تخوض فى بحرها ، وذات مساء
جاعنى فهمى عبيد الى الجريدة وصافحنى بحرارة وجلس صامتا يحتسى فنجان
الشاي ويلقى نظرات خاطفة على صفحات كراس قديم يحمله .. وعندما
سألته عن الاحوال اجابنى فى سرور بان الاحوال عال وكل شىء على ما يرام
وهمس فى اذنى بان لديه مشروعا سيحدث هزة فى العالم ليس لها مثيل ،
وقلت له مازحا :

— اياك مشروع القنبلة الذرية ..

— لا أبدا .. انا كاتب مذكرات هتعمل هزة .. اسرار معركة القناة ..

واطلعننى على الكراسى التى معه . كانت الكراسى تحوى فصولا شيقة بلا
جدال عن اسرار كتيبة الفداء ، كيف تكونت ، كيف حاربت ، كيف انتصرت ،
التكتيك الذى عليه فى المعارك الطاحنة . كيف عاملت الاسرى الانجليز
الذين وقعوا فى قبضتها ، كيف استشهد أبطالها فردا بعد الاخر ، وكيف انفتحت
لهم أوسع ابواب التاريخ . وقائع مذهلة لم يحدث شىء منها على الإطلاق ..
وكان يمكن لفهمى ان يطلع أحدا غيرى عليها ، فربما اقتنع .
نظرت الى فهمى نظرة طويلة وقلت وأنا الوح بالكراسى فى يدي :

— كلام ايه الفارغ ده يا فهمى .. بقى كتيبة الفداء اللى كانوا كلهم حرامية عاملهم ابطال .. ومعارك ايه ياراجل انت .. بقى بزمك حصلت معارك .

— ما حصلش .. لكن الجو عاوز كده .. وع العموم دى هتعمل هزة .. المهم أنشرها مسلسلة فى الجريدة .. بس بشرط تنشروا صورتي وتكتبوا تحتها « فهمى عبيد مستشار الكتيبة » وتدفعوا لنا ألف جنيه .

وقلت لفهمى انه لا يمكن نشر مثل هذه المذكرات الكاذبة ، لان معركة القناة حدثت منذ اشهر قليلة ماضية ، وجميع القراء عاصروها وعرفوا أحداثها ولا يمكن نشر مثل هذه المذكرات الا فى القرون القادمة فقد تجد من يصدقها ..

وبان القرف على وجه فهمى وخطف الكراسية من يدي وقال فى صوت خفيض :

— لا منك ولا كفاية شرك .. وع العموم بكره نشوف .. أنا هانشرها ..

وقلت لفهمى وأنا أهديء من ثورته :

— انت اشتغلت والالسه ..

— لا .. ما باشتغلش ..

— طب ما تشتغل ..

— ايدى على كتفك ..

— تعالى وأنا أشغلك بكره ..

— فمين ؟

— فى الحكومة .. أنا اعرف وزير الشؤون الاجتماعية وهقوله انك انت

كنت من عمال القناة ويشغلوك على طول ..

— بـكـام .

— عشرين جنيه اول تعيين .

— عشرين جنيه .. واعمل بيهم ايه دول .. أشرب بيهم سجائر ..

— أحسن من مفيش ..

— لا .. مفيش أحسن .. وع العموم أنا كنت بكسب العشرين جنيه دول

فى دقيقة ..

— امتى الكلام ده ؟

— أيام ما كنت متعهد في الجيش الانجليزي .
— طب دي أيام كان لها ظروف وراحت يا فهمى ..
— مفيش حاجة اسمها راحت .. الجايات أكثر من الريحات .. سلام عليكم .

وانصرف فهمى غاضبا ، ولم أره بعد ذلك .. قاطعنى تماها ، وكنت أنا اتحسس أخباره كلما سافرت الى السويس ، كانت أخباره دائما لا تسر ...
ومرت خمس سنوات طويلة ثم جاء فهمى لكنه لم يكن فهمى الذى أعرفه ازداد نحولا وشحوبا وتساقط شعر رأسه وانحنى ظهره وبدأ بلحيته النابتة وقميصه المتسخ كانه عائد للتو من رحلة في الصحراء ، ورحبت به كثيرا ، وجلسنا نتسامر ، وكان يشاركنى في الحديث بنكت بايخه ، وضحكات فاترة ، وفجأة اعتدل في جلسته وقال في اهتمام شديد :

— أنا جيلك في مشروع رهيب جدا .. البلد بتاعتنا دي مش فاهمة اى حاجة عمالة تعمل مصانع .. وتصلح في أرض ، ودى حاجات ماتجيش فلوس ...
أنا عندى مشروع يكسب ذهب .. نشترى كام ناقله بترول .. تعرف الناقله بتاخذ كام في الرحلة الواحدة .. ميت ألف جنيه عملة صعبة والناقله كلها بمليون جنيه .. يعنى عشر رحلات يجيبوا حقها .. والباقى يبقى مكسب ..
وأنا بصراحة عاوز أعمل المشروع ده .. نعمل أسهم .. والسهم بألف جنيه .. ونشترى ناقله وأنا أبقي المدير بتاعها .. والسهم ده هيكسب ألف جنيه في بحر سنة وأنا آخذ سهم وآخذ مرتب .. أعمل ميتين وخمسين جنيه لنفسى في الشهر .. لما تكسب قوى .. نجيب واحدة تانية .. وكمان واحدة .. وكمان واحدة ..

ولم أشأ أن أصدم فهمى في أحلامه فأنثيت على المشروع ثناء عظيمًا ، وأبديت إعجابى الشديد بعقليته الاقتصادية الرائعة وتمنيت له النجاح وغادرنى فهمى تلك الليلة مسرورا وعاد مرة أخرى بعد شهر ولكن بمشروع جديد .

— تعرف السمك بتاع البحر الاحمر ..
— ماله ..
— بيتباع في بيروت الكيلو بجنيه .. يعنى احنا نشترى لنش تجارى فيه

ثلاجة ونصطاد سمك من البحر الاحمر ونسافر ونبيعه في بيروت تعرف نبيع
بكam في الرحلة الواحدة .. بعشر تلاف جنيه واحنا مش هنكلف كثير ..
هنجيب كام واد صيادم السويس نديهم على قفاهم .. وكل واحد ياخذ له
جنيه في اليوم وهم اللي يصطادوا ويسوقوا للنش .. واحنا نقعد زى البهوات
.. نسافر بيروت .. نبيع ونرجع ..

— مشروع عظيم خالص ..

— يعنى عاجبك ..

— قـوى ..

وصافحنى فهمى بحرارة وانصرف مبتهجا .. وعاد مرة أخرى بعد اسابيع
ولكن بمشروع جديد ..

— تعرف المينا بتاع السويس ..

— أيوه ..

— فيه كنوز بملايين الجنيهات .. أيام الحرب غرق في المينا دى ييجى ميت
سفينة .. ولسه غارقانين لحد الوقت .. احنا نعمل شركة لانتشال السفن
الغارقة .. ومش محتاجين حاجة .. نجيب كام واد غطاس م السويس نديهم
على قفاهم ونطلع السفن دى .. هتلاقى كل حاجة .. ذهب حتلاقى ..
فلوس هتلاقى .. حديد هنبيع .. مكاتب راديوهات .. سراير .. كل حاجة
تعرف تكسب كام العملية دى .. ألف جنيه كل يوم يعنى ثلاثين ألف جنيه
في الشهر .. أيه رأيك في المشروع ده ..

— عظيم جدا ..

— اهو المشروع ده .. متوقف عليك انت ..

— ازاي بقى ..

— نجيب تصريح م الحكومة ..

— طيب ان شاء الله ..

— صحيح ..

— باذن الله ..

— طب سلام عليكم ..

وصافحنى فهمى مسرورا وانصرف .. ونسيته تماما ونسيت مشروعه
حتى هبط على ذات مساء فتذكرت ، وجلست معه افكر في طريقة مناسبة

للاعتذار ولكنه لم يترك لى فرصة للحديث . بادرنى على الفور بمشروع جديد .

— أهو ده مشروع بقى .. مفيش زيه ..

— مشروع ايه يا فهمى ..

— شركة النور للسياحة .

— هنعمل شركة سياحة يعنى .

— آه .. بس جديدة .. بقى فيه سفن بتيجى م الشرق الاقصى وتبات
فى السويس وتقوم الصبح تروح على بورسعيد وبتقعد أتناشر ساعة فى القنال
بدل الركاب بتوع المراكب دى ما يزهقوا احنا ناخذهم فى عربيات نفرجهم ع
القاهرة والاثار ونبيتهم هنا ونطلعهم على بورسعيد ياخدوا المركب بتاعتهم من
هناك .. كل سائح يدفع خمسة جنيه عملة صعبة كل يوم ناخذ خمسين سائح
فى خمسة بميتين وخمسين جنيه .. يعنى سبعة تلاف وخمسميت جنيه فى الشهر
عملة صعبة ومش هنكلف حاجة .. بس عاوزين عشر عربيات مرسيديس ونجيب
كام عيل سواق م السويس نديهم على قفاهم وواحد ترجمان نرميله جنيهه فى
اليوم والا حاجة وكان الله بالسر عليم .. ايه رأيك ..

— مشروع عظيم قوى .

— صحيح ..

— أيوه صحيح ..

— طب شد حيلك بقى معنا .

وصافحنى فهمى مسرورا وانصرف .. وغاب هذه المرة طويلا .. حتى خيل
الى أنه نفذ فعلا مشروعه واستراح ولكنه عاد بعد ذلك بأشهر طويلة وقد
أزداد نحوله وازداد سعاله وبدا عجوزا أكبر من عمره بعشر سنوات ، وبدأت
عيناه مجهدتين كأنه لم ينم منذ فترة طويلة ، وقميصه متآكل الاكمام وحذاؤه
مضروب ومبطوح ، وكالح اللون ، وكان معه مشروع جديد .

— عارف السرديا .

— لامش عارف ..

— دا نوع م الحيوانات البحرية فى البحر الاحمر .. لذيذ قوى انها الناس
الذوات مابردوش ياكلوه عشان شكله وسخ والبياعين بيقدموه بطريقة
وسخة انها احنا لو قدمناه بطريقة نظيفة .. نقدر نبيع منه مليون علبة كل

أسبوع .. ومش محتاجين حاجة .. نجيب كام عيل صياد م السوييس نديهم
على قفاهم وعاوزين شوية علب كرتون ووادموظف يتصل بالمحلات واللوكاندات
الكبيرة وكان الله بالسر عليم .. تعرف فيها مكسب قد ايه .. عشر تلاف جنيه
كل شهر .

وانا بدأت المشروع فعلا ..
وانتزع من لفافة كانت في يده علبة كرتون صغيرة وقال وهو يقدمها لى :
— اهو الصنف ايه .. ابقى دوقه وقوللى رأيك وع العموم انا فت على
جروبي ولاباس النهاردة ، وطلب كل واحد عشرين دسنة .. وفكر انت في
المشروع ده واحنا هنعمل عمل كبير باذن الله .

وترك فهمى العلبة وانصرف ، كان في العلبة خليط من شرائح لحم لاتستطيع
ان تحدد أصلها ، لها رائحة خبيثة كأنها رائحة فأر معفن ميت منذ عشرة أيام ،
كالحة السواد كأنها جلد غيل مفروم ، والقيت بالعلبة في صفيحة الزبالة ونسيت
فهمى ومشروعه . ولكنه سرعان ما عاد وفي هذه المرة كان بالقميص والبنطلون
فقط رغم أن البرد في الخارج لا يحتمل ، وجلس أمامى مقوسا كأنه عجيبة
التوت بفعل خباز ماهر ، قال وهو شديد الانكسار .
— ما حدش رضى ياخد م العلب .. مفيش حد بيقدر في البلد دى ..
وقلت لفهمى لتهدئته :

— ما هو انت لازم تشوف شغلة ثابتة وبعدين تفكر في المشاريع دى .. انت
عارف الناس اللى اشتغلوا أيام القتال بياخدوا كام الوقت .. خمسين جنيهه
وستين جنيه .. يعنى انت لو كنت طاوعتنى واشتغلت وقاطعنى فهمى بمنتهى
الغضب .

— ياراجل بلاش فقر .. الواحد يهجم البلد دى احسن وع العموم انا
عندى مشروع تانى .. بس مش هاكشفه دلوقت سلام عليكم .
ومضى فهمى سريعا واختفى هذه المرة ، انقطعت عنى أخباره فلم أعـد
أعرف عنه شيئا ، وخيل الى أنه نفذ مشروعه وطفش من السوييس خلصة
على ظهر مركب متجولة ، وأحيانا كان يطوف بخاطرى أنه مات جوعا بعد أن فقد
الرجل الوحيد في هذا العالم الذى كان يعطف عليه ، أبوه .. الاسطى عبيد .
صاحب محل الحلالة .. ولكن ظنننى خابت كلها فجأة .. وقد رأيت فهمى ذات

صباح متورد الخدين شديد الاناقة على عينيه نظارة مذهبة يتقود عربية فارهة وعندما رآنى ركن عربته برشاقة واقبل نحوى يضمنى اليه بحرارة ، ولكنه رغم التورد والثراء كان يبدو شديد القلق ، حديثه مضطرب وأفكار شاردة وانصرف سريعا وقد اتفق معى على لقاء ، ولكنه لم يعد واستفزنى منه هذا التصرف الغريب فرحت أبحث عن السر الذى نقل فهمى هذا الانتقال المفاجيء السريع . . . وسرعان ما اكتشفت السر . . . هل تذكرون قدريسة . . . البنت الرقاصة التى عاشرها أيام العز ، والتى انجب منها طفلة اسمها سعاد ثم هجرها بعد ذلك وانشغل فى همومه واحلامه .

كانت هى الاخرى تسير مع فهمى فى خط واحد انتهت الحرب ولفظتها الملاحى ولكنها وجدت لنفسها مكانا فى الافراح والليالى الملاح ترقص شبه عارية كل ليلة امام جمهور من الصبية ، والعجائز وتتلقى بصدورها وهى تتثنى أوراقا صغيرة ملونة من فئة العشرة قروش وأحيانا من فئة الربع جنيه . . . ولكنها استطاعت من هذه الاوراق الصغيرة أن تجمع ثروة وأن تقيم منزلا . . . واعتزلت الرقص لتتفرغ لمهنة أخرى أسهل أداء وأوفر مالا تحولت الراقصة القديمة الى قوادة وأصبحت تشرف على العشرات من راقصات الحـرب القدماى .

ونجحت قدريسة نجاحا منقطع النظير ولكنها لم تهدأ فى البحث عن زوج وجربت كثيرين وفشلت ثم التقت مصادفة بفهمى فى الطريق ، كانت هى فى عربتها الفارهة وهو فى هيئته الزرية وذقنه النابتة وكراصة مشاريعه ، وعندما دفن نفسه الى جوار قدريسة فى السيارة أحس براحة شديدة ربما لأول مرة منذ أعوام طويلة وبات تلك الليلة معها فى فيلتها الانيقة ولم يخرج منها بعد ذلك عاد زوجها لقدريسة وأصبحت كل مشاريعها تدار باسمه وان كان هو نفسه لا يعرف عنها شيئا ولكنه على أية حال استراح للحياة الجديدة ، واسترحت انا الاخر من فهمى فلم يعد يزورنى اذ يبدو أنه لم يعد فى حاجة الى مشورتى أو لم يعد لديه مشروعات جديدة .



السماء السوراء



سبعة أعوام طويلة ، والمعلم محفوظ بلا شغلانة ،
صحيح انه لايجيد صنعة ولكنه خبير في الحياة ..
والسنوات السبع الماضية قضاهها كلها على مقهى الاعمى
بالقلعة يتفرس في وجوه الناس ويدقق النظر في ملامحهم
وصحيح أيضا انه قضى فترة في فجر صباه في دكان
نجار ولكنه لم يفهم من سر الحرفة شيئا .. حادث
واحد فقط كان يذكره دواما وهو جالس على المقهى كل
مساء جعله سعيدا رغم البطالة والفشل .

فقد كان محفوظ — ولم يكن قد أصبح معلما بعد — ينشر جذع شجرة
بلوط ضخمة ، وفجأة بعد أن انشق الجذع الى نصفين رأى بعينه — هكذا
يزعم — دودة طويلة رفيعة وبجوارها خبز وماء .. وكان دائما يذكر القصة
ليدعم بها رأيه ، وهو أن الله لاينسى احدا ، حتى الدودة الصغيرة الحقيرة في
جذع الشجرة !

ولكن لماذا لم يرزقه الله كما فعل مع الدودة داخل الشجرة .. فهذا
يرجع لحكمة يعلمها الله وحده ، ولم يجهد المعلم محفوظ نفسه ابدا في تفهم
هذه الحكمة او معرفة دوافعها .. المهم ان حكمة الله شاءت ان تتق الحرب
فجأة .. وبدا الصراع رهيبا في أوروبا ، واتخذ هذا الصراع الرهيب له في
مصر مظهرا بسيطا عبارة عن مكتب صغير في شبرا يديره ضباط انجليز ويقتل
عمالا من مصر وبأجور خيالية .

وخطف المعلم محفوظ رجله الى مكتب شبرا ووقف ساعة تحت الشمس ضمن طابور طويل من الرجال ، خيل اليه في بادىء الامر انه لن ينتهى .. ولكن شاعت كلمة الله الا ينصرم النهار الا وقد استطاع ان يقيد اسمه .. وعندما سألته الضابط الانجليزى الذى يتكلم عربية ركيكة عن مهنته اجابه دون وعى .. نجار .. هو نفسه لم يدر بعد ان غادر المكتب ، لماذا اختار هذه المهنة بالذات .

وجاءه الخطاب على عجل ليتسلم العمل ، نجار فى معسكرات العباسية واجره جنيه فى اليوم ..

شغلة عظيمة وريح وفر .. والسبب الحرب ! بارك الله فى الحرب .. لو انها وقعت منذ سبعة اعوام مضت لما تذوق المعلم محفوظ مرارة البطالة ونظرات الناس الشامتة ، ولكنها حكمة الله شاعت ثم عدلت مشيئتها .. وقد آن الاوان لكى يعمل المعلم محفوظ ويربح مثل بقية خلق الله .

ومضت ايام الاسبوع الاول رتيبة والمعلم محفوظ يرسم بسذاجة خطوط المستقبل .. انه يستطيع ان يوفر مبلغا من المال وان يفتح ورشة .. او يفتح مقهى ، يضمن له معاشا ثابتا .. عندما تقضى مشيئة الله بانتهاء الحرب .

ولكن مضى شهر ، ثم مضى عام ، ثم عامان .. والمعلم محفوظ لم يدخر قرشا .. وعرفت قدماه الطريق الى البارات والملاهى ودور الرقص الى الحياة الصاخبة الحافلة التى حرم منها طويلا .. واصبح للمعلم محفوظ احتياجات لم يكن فى حاجة اليها من قبل . والجنيه لم يعد يكفيه .. ولسانه الذى اخذ « يرطن » بكلمات انجليزية اصبح قادرا على التفاهم اكثر من ذى قبل .

ووقع المعلم محفوظ فى مشكلة جديدة ، ولكنها سرعان ما اندثرت .. هكذا قضت مشيئة الله !

انتقلت الحرب الى الصحراء الغربية .. ولم تعد أوروبا تشهد أى نوع من الصراع ، فقد انطوت كلها مستسلمة .. وعبر الالمان البحر الى تونس ليخوضوا الصراع على رمال صحراء افريقيا الميتة .. وهبط الفرع على المعلم محفوظ عندما ساومه الانجليز ليذهب الى

طبرق .. ومضاعفة الاجر مرتين ، ولم يناقش المعلم محفوظ بل ركب اللورى مع « شحنة » من الرجال ومضى بهم جميعا الى طبرق .. ومضت أيام طويلة وهو محبوبس كالفار داخل المدينة يعمل ويقبض ويدخر كثيرا فليس امامه مجال للانفاق .. وعاد من جديد يفكر فى امر الورشة ، او المقهى ، والاستقرار الذى ينشده عندما تقضى مشيئة الله بانتهاء الحرب وينتهى معها كل هذا الشراء .. ولكن تفكيره انقطع فجأة ، فقد استيقظ ذات صباح فاذا بالانجليز هجروا المدينة وقوم جدد يحتلون مرافقها ويحاصرونها بأسنة الحراب .. وامروه بخلع ملابسه وسلموه زيا جديدا ، بنطلونا ازرق وقميصا من نفس القماش واللون .. ولطشوا منه النقود التى ادخرها ، ثم علم بعد ذلك كله انه يتعامل هذه المرة مع جنس آخر .. مع الالمان ..

وامروه ان يعمل ، وعمل طويلا وبجهد أكبر من الجهد الذى كان يقوم به عند الانجليز ، والسبب ان الالمان اكتشفوا السر الذى لم يكتشفه الانجليز طوال أعوام ثلاثة ، وهو ان المعلم محفوظ ليس نجارا ولكنه يصلح — وهو القوى كالثور — عتالا يحمل البضائع والذخائر على رصيف السكة الحديد . وممر المعلم محفوظ بمحنة .. ولكنها علمته اشياء كثيرة . فالانجليز لا يأكلون عرق الناس ، بينما الالمان يفعلون هذا !! لم يكن المعلم محفوظ قد اكتشف بعد .. انه وقع اسيرا !!

حتى بعد أن اكتشف ذلك لم يستطع أن يجد تفسيراً لعدم منحه أجره عن العمل الذى يقوم به .. انه ليس جنديا حتى يأخذه أسيرا .. كان يعمل عند الانجليز ، والان يعمل عند الالمان ، ولكن فرق كبير بين العمل هنا والعمل هناك .. لو أن هؤلاء الالمان فكوا أسرهم والحقوه بعمل ونقدوه أجرهم .. اذن لبقى معهم الى الابد .. فهو لايعتزم الفرار .. انه فقط يبحث عن عمل .. ولكن هؤلاء الالمان الذين يصرخون دائما لايفهمون حقيقة موقفه .. لقد وجدوه مع الانجليز فحسبوه معهم .. وهو ليس كذلك على الاطلاق ! .

ولم يكن هناك سبيل للتفاهم مع الالمان .. حتى لو ان هناك سبيلا فلا فائدة ترجى من التفاهم .. واستسلم المعلم محفوظ لمصيره ولم يعد يفكر فى شىء على الاطلاق حتى ولا فى المبلغ الذى لطشوه . شىء واحد اقلقه .. أين بقية زملائه الذين كانوا معه فى طبرق قبل

الغزو ؟ هل استطاعوا الفرار مع الانجليز ؟ ام قتلوا في المعركة ؟ ام أنهم يعملون مع الالمان ولكن في مكان آخر ؟ وهد الارهاق الشديد كيانه ، واستبد به نسي كل شيء ماعداه .. أصبح همه كله ان يطيع الاوامر فلا يضربه الالمان .. فقد تلقى درسا رهيبا عندما سولت له نفسه ان يسال الحارس مرة عما اذا كانوا سينقدونه أجره بعد الحرب ، ويومها ضربه الجندي بمؤخرة البندقية على راسه ففقد وعيه لساعات . ولم يغضبه في المسألة كلها الا ان الجندي الذي ضربه لايحتمل لكمة واحدة من قبضة المعلم محفوظ الفولاذية ... فتط لو كان بغير سلاح !

وسرعان ما دارت الايام .. واستيقظ ذات صباح على صوت طلقات تأتي من كل اتجاه .. وازيز طائرات يكاد يصم الآذان ، ورائحة حرائق تشتعل في كل مكان .. وأحسن بأن الارض تميد به وانه يفقد بالتدريج توازنه ثم السيطرة على نفسه ، ثم وعيه ..

وعندما استيقظ بعد ذلك بأيام كان على سرير في مستشفى طبرق وبلا نزاع ! واكتشف ان الانجليز قد عادوا الى المدينة وان الالمان مجروها ، ومعهم ذراعه « وعرقه » لمدة شهور قضاها يحمل كل شيء كالثور على رقبته على رصيف السكة الحديد ..

ومضت أيام طويلة وهو راقد على سريريه في المستشفى .. والعنبر الذي يرقد فيه يعج بالجنود الجرحى .. ملفوفين في الضمادات .. حتى عيونهم نفسها مغلقة تحت اللفافات ، وكثيرا ما سمع صراخا في جوف الليل ، ثم حركة غريبة وكم شاهد رجلا ممددا على « نقالة » يدفعها انجليزى خارج العنبر ، ووجه الرجل يختفى تحت ملاء بيضاء .. وكان المعلم محفوظ يرفع اصبعه دائما الى اعلى ويرتل الشهادتين على روح الميت رغم انه انجليزى ، فهو على اية حال غريب في هذه الصحراء ..

وتم شفاء المعلم محفوظ بعد وقت قصير .. وسلمه الانجليز ملابس جديدة ومائة جنيه ثمن ذراعه المتتورة .. وطلبوا منه ان يعود .. فلم تعد الحرب في حاجة اليه بعد ان فقد أهم ما تحتاجه الحرب فيه !! ولم ينس المعلم محفوظ ان يعد الجنيهاات المائة قبل ان يفادر طبرق .. ثم « لفع » الشمال الضخم الذي دس فيه بنطلوني جيش .. وباكوات

شأى ٠٠ وعدة زجاجات فارغة ٠٠ وخرج من طبرق على قدميه ٠٠ وحذاؤه الذى كان فى قدمى جندى من قبل ، يضرب فى الرمل فى طريقه الى ربوة موسى حيث تنتظره العربية هناك .

وعندما انحدر المعالم محفوظ ناحية الربوة قاطعا المنحنى الضيق الذى يفصل طبرق عن الطريق الرئيسى ٠٠ لفت نظره أن كل شىء قد تغير فى المكان ٠٠ كان الطريق عندما قطعه أول مرة تزينه أشجار السرو العالية ٠٠ ومعالم الطريق الدالة عليه ٠٠ لقد أصبح الطريق مهجورا ولا أثر لشجرة واحدة ٠٠ وثمة فجوات عميقة على الطريق من أثر التناوب تبدو كأنها مقابر مهجورة نبشتها الكلاب والذئاب .

وعلى امتداد صفحة الصحراء المحيطة بالطريق كان كل شىء يبدو بشعا رهيبا ٠٠ عربات مقلوبة وهياكل دبابات محترقة وعظام نخرة أكل الدود ما عليها ٠٠ وبقياء جثث ممزقة وخوذات جنود من جميع الاحجام ، استحال لونها الذى كان اصفر الى لون كالح اشبه بلون المياه الراكدة ٠٠ والجو يعبق برائحة خبيثة ٠٠ ودود كثير يزحف فوق الرمال ، نشرته جثث القتلى فعاد ياكل منها ٠ ووقف المعلم محفوظ برهة ينظر الى كل اتجاه ، الاف الجثث مطروحة فى الصحراء . وكأنها فى انتظار نفير رهيب سيدوى صوته فجأة فى الافق لمرتفعش من جديد وقد دببت فيها الحياة !! وبين الجثث كان هناك عدد منها يعرف اصحابها جيدا ٠٠ فقد عاشوا معه فترة طويلة داخل طبرق . ظن يوما انهم هربوا من الانجليز ٠٠ او يعماون مع الالمان فى مكانا بعيد ٠٠ كانت بقايا الابسهم تدل عليهم ٠٠ واصطرعت بأذنه اصوات مبهمه بشعة أشبه بنعيق قطيع من اليوم فى ليل بهيم ٠٠

وعندما رفع بصره الى أعلى رأى السماء وقد اسود لونها تماما ، كانت هناك مظلة من الغريان ٠٠ ملايين من الغريان لايعرف من اين جاءت ولا كيف جاءت ، تصفق بأجنحتها فى الجو ٠٠ وهى هابطة نحو الارض لتاتقط من الجيف المنتشرة على الرمال قطعاً ثم تعود الى التحليق من جديد .

واستبد الرعب بنفس المعلم محفوظ ٠٠ وامتلات نفسه مرارة ٠٠ وود لو يستطيع أن يبصق على الالمان والانجليز وسائر الناس ٠٠ واختلس نظرة الى كم جلبابه وقد تدلى الى جواره بلا ذراع ، و « لفع » الشوال الضخم على كتفيه ومضى مسرعا على الطريق نحو ربوة موسى .

وتسائل المعلم محفوظ بينه وبين نفسه وهو يحدث الخطى على الزمال : ترى ما هى الحكمة فى نشوب الحرب بين الناس ، ثم ينتهى الجميع الى مجرد عظام ؟ واجاب/على سؤاله بنفسه : قد تكون الحكمة من وراء الحرب هى اطعام هذه الملايين من الغربان !!

ومصمص المعلم محفوظ شفتيه فى أسى عميق وهو يسرع الخطى صاعدا نحو الربوة .. وتذكر فى تلك اللحظة الدودة الرفيعة الطويلة فى جذع الشجرة وأمامها الخبز والماء !!

وعندما تكور حول نفسه بجوار الشوال فى العربة اللورى ، اختلس النظر نحو السماء .. كانت لا تزال سوداء .. بلون ملايين الغربان التى راحت تصفق بأجنحتها وهى تهبط نحو الارض لتلنقظ بمخالبها نتفا من الجيف المنتشرة على صفحة الصـدراء !!

واعظ الليمان



كانت الشمس تلهب رمال الصدراء العريضة
المحيطة بالليمان . ولم يكن هناك شجرة واحدة على بعد
عدة أميال من مكان السجن . . ولا ثمة طيور شاردة في
الجو ، ولا بئر ماء . . ولا أثر إطلاقاً للحياة ، لم يكن
هناك سوى عدة قبور مهجورة نبشتها الكلاب والمذئاب
وصقور الجو الجائعة . وكان الطريق من المدينة الى
السجن طويلاً مرهقاً ، والعربة الوحيدة التي صادفها
واعظ السجن لتنقله الى هناك ، عربة نقل تستعمل في
نقل الاحوم مرة كل أسبوع الى هؤلاء الذين لفظتهم
الحياة بعيداً عنها .

كان الواعظ بديناً قصير القامة ، أحمر الوجه ، يبدو للوهلة الاولى
كأنه من عمد الريف الاثرياء . وكان حديث التخرج ، وكانت وظيفة واعظ
السجن . . هي أول عمل يقوم به في الحياة .

جلس الواعظ بجوار السائق يفكر فيما عساه سيقوله في صباح الغد
للمذنبين من نزلاء الليمان . وتذكر وهو جالس بجوار السائق ، والعربة تهزه
هزا عنيفاً — كل خطب الوعظ التي حفظها عن ظهر قلب ، خطبة رمضان
المعظم ، وفيها الحث على الصوم ومغالبة النفس ، وخطبة الحج . . وفيها
المناسك جميعاً ، وخطبة رجب وفيها النهي عن زيارة المقابر . . . و . . !!
وابتسم الواعظ في سرور ، انه لم يزل يحفظ هذا كله ، وفي جعبته عدد
لا بأس به من الآيات والاحاديث . .

واستقر في مقعده مطمئنا الى النجاح الذى سيصادفه غدا عندما يقف امام حشد المذنبين ليعظهم ويرشدهم الى العمل الطيب الذى يرفعه الله الى سمواته . ودس يده فى جيبه فأخرج منديله الكبير ، وجفف به عرقه الذى ظل يسيل من فوق جبهته فملا عينيه حتى تعذرت الرؤية عليه . وكان الارهاق الشديد قد نال منه خلال الرحلة فأغمض عينيه وراح فى نوم عميق .

وعندما استيقظ فى صباح اليوم التالى ، كانت الشمس قد توسطت الافق ، وحجارة السجن الصماء تكاد تنصهر من شدة الحرارة ، وكان قد قضى ليلته غارقا فى نوم عميق أنساه طول الرحلة ، ووعورة الطريق . وعندما فرغ من صلاته جلس يتناول افطاره ، وكان شهيا لذيذا وبكميات ضخمة ودهش لوجود مثل هذه الاصناف اللذيذة والكميات الكبيرة داخل اليمان . . لابد انهم سعداء هؤلاء النزلاء ، وهو نفسه عندما كان خارج هذه الجدران — فى عالم الحرية — ايام أن كان طالبا فى الازهر . . لم يكن يستطيع الحصول على هذه الكميات ولا هذه الاصناف !

لم يفكر طويلا فى هذا الامر الذى بدا غريبا فى نظره . . وراح اثناء تناوله الطعام يفكر فى الخطبة التى اعدّها . . والتى يرجو من أعماقه أن تحوّر رضاء مأمور اليمان ، وتجشأ الشيخ عبد الحميد — وهذا اسمه — وهو يخطو امام الحارس فى طريقه الى مكتب المأمور . . ليتعرف اليه ، اذ لم تكن امامه الفرصة ليقوم بهذا العمل فى مساء الامس عندما هبط السجن فى عربة اللحـــــوم .

وكان غريبا عليه ايضا هذا الذى صادفه فى شخص المأمور ، فقد كان رجلا بدينا تدل ملامحه الفليضة على الطيبة والهدوء . وكان فوق هذا وذاك مطلعاً على كتب النحو والبلاغة ، وآراء الشراح القدامى والمحدثين . وبعد ان انتهى الحديث بينهما حول الفقه والدين . اتخذ المأمور سمت الحاكم وقال مخاطبا الواعظ بعد أن أصلح رباط عنقه :

— اننا هنا اسرة واحدة . وانا طيب جدا ، مادام النظام هنا على أكمل وجه . والرجل الذى يعمل داخل السجن ، هو فى الحقيقة مسجون بملابس عادية ، وستحب مهنتك جدا مادمت مخلصا لها ، مقبلا عليها ، وأرى من واجبي أن أخبرك أن زميلك الذى حلت انت مكانه ظل معنا هنا لمدة

طويلة . كان فيها مثالا للكفاية والاخلاص . ولكنه فجأة نسي أصول مهنته
فأخذ يتدخل فيما لايعنيه . وأصبح هو سببا قويا في تمرد المذنبين على الاوامر
فقد كان يتدخل دائما في طريقة معاملة السجائين للمسجونين . ولكنه نال
جزاءه . فقد نقل من هنا الى جهة نائية . فاننا لاحب شيئا قدر حبى للنظام .
وأضحى فى سبيل تدعيمه بأقرب المقربين الى .

تصيب العرق على وجه الشيخ عبد الحميد وهو يستمع الى قصة
الواعظ الذى سبقه . وجف حلقه تماما عندما انهى المأمور قصته بخبر نقله ،
واستعاذ برب العباد من شر الشيطان الرجيم ، ودعا الله سرا ان يوفقه فى
عمله . فيعمل آمنا مستقرا ويجمع قدرا من المال ليشتري به قطعة أرض على
« حرف » التربة كما فعل الشيخ رشيد ، والشيخ سلمان ابنا قريته ...
وزميلا الدراسة .. !

وعندما انتهت المقابلة خرج الشيخ عبد الحميد من مكتب المأمور وهو
يتمتم باسم الله ، والحارس يخطو امامه فى الردهة الضيقة الطويلة ليقوده
الى الفناء الواسع حيث ينتظره المذنبون منذ ساعة ليستمعوا الى موعظته .
وعندما اطل على الفناء كان الحر لايزال شديدا ، ورأى اكثر من الف
مسجون يجلسون القرفصاء على الرمال فى مواجهة منصة صنعت خصيصا
لتقى الواعظ من حرارة الصيف فى تلك المنطقة الجافة الحارقة . وحول
الجالسين اصطفت فرقة من الجنود المسلحين ، وقد صوبوا اسلحتهم الى
القطيع البائس . وكان اللفظ يدور شديدا بين الجالسين وكأنهم فى معركة
كلامية حادة . ولكنها سرعان ما هدأت تماما عندما اقترب الواعظ من الجمع
المحتشد ، وتركزت كل النظرات عليه ... حتى نظرات الحراس ، واحس
الشيخ عبد الحميد بأهميته البالغة ربما للمرة الاولى ، فتحسس جبته ،
وأصلح من وضوع العمامة . وثبت بصره بالارض وهو يصعد السلالم
الخشبية المؤدية الى المنصة . وألقى نظرة شاملة على كل من حوله . ثم
رفع صوته بالتحية وبدأ يلقي موعظته فى صوت رتيب ونبرات حلوة . ولكن
هبت الاصوات من جانب الجالسين :

— هس يا جدد انت وهو

— اللى يحب النبى يسكت

— خلونا نسمع الكلام المفيد

ويبدو أن أحدا منهم لم يكن يحب الاستماع الى الكلام المفيد ، فقد ظلت الموضوعات تتصاعد من حوله ، وكأنه يعطى فى سوق . ولم يثنه هذا عن التوقف ، فقد كان الموقف يحتاج الى شجاعة ... وهو شجاع ، فواصل حديثه اليهم :

— ايها الناس ... امرنا الله باتباع طريق الخير .. والبعد عن طريق المعصية ، ومن يعمل منكم مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره . نهانا الله عن الخمر .. فلا تقربها .. وعن الميسر فلا نمارسه ، حكمة سماوية ... للبعد عن الخطيئة التى يزينها الشيطان ، انما الخمر والميسر والاتصاب والازلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه . فالخمر تهدم الصحة وتمحو الشخصية . والميسر يهدم بيوتكم الآمنة ويجركم الى الدين والخراب ، فاتقوا الله يامعشر المسلمين تناولوا رضاه !!

وتوقف الشيخ عبد الحميد عن مواصلة حديثه ريثما يجف عرقه الذى سال من جبينه على عينيه . واحس ارهاقا شديدا .. وصعوبة فى التنفس لابد انه اجاد واحسن والا .. لماذا كل هذا الاستغراق حتى لقد نسي نفسه والقى الشيخ عبد الحميد نظرة على من حوله ليرى وقع حديثه فى نفوس السامعين .. لم يكن هناك من ينظر اليه ، المذنبون يتجادلون فى ضجة ... ربما من اجل عملية بيع وشراء . ولفائف تبغ كثيرة تنتقل من يد الى يد ، واوراق لامعة شفافه تتناولها الايدي لتسلمها الى اخرى . والحراس مستندون الى فوهات بنادقهم ، وعيونهم مغلقة فى اغفاءة لذيدة . وارتبك الشيخ عبد الحميد ولم يدر ماذا يفعل ، انه واثق تماما انه اجاد اختيار موضوع الموعظة ، وصوته جميل حسن ، فلماذا اذن لا يستمع اليه هؤلاء الجهلاء !!

وعاد الشيخ عبد الحميد مواصلا حديثه ، وفى هذه المرة بصوت أشد :

— ايها الناس ، ان الله يأمركم بالزكاة .. ففى أموالكم حق للسائل والمحروم . فلا تكنزوا ثرواتكم فتجنوا حسرة الدنيا ... وعذاب الآخرة ، ولا تبذروا فى أموالكم ، فقد نهى الله عن التبذير ... ان المبذرين اخوان الشيطان . فعلى كل منكم ان يظهر ماله بالزكاة .

وتوقف الشيخ عبد الحميد قليلا ريثما يلتقط أنفاسه ، وعاد من جديد ينظر الى الجمع المحتشد امامه ! كان الجميع مشغولين عنه وعن حديثه بما يبدو أنه أهم من ذلك . عمليات بيع وشراء على الطريقة التي كانت سائدة يوما ما قبل أن تخترع النقود . والحراس في نفس الاغفاءة اللذيذة ، واستبدت الدهشة بالشيخ عبد الحميد كيف لم يستطع التأثير على هؤلاء الناس . . . وقد نجح من قبل في السيطرة على أهل قريته عندما كان يخطب فيهم الجمعة خلال زيارته المتعددة لهم في فصل الصيف . . . وكان لم يزل طالبا . . . والآن وهو يعمل كواعظ رسمي لا يستطيع أن يلفت اليه نظر هؤلاء المذنبين . واشتد ارتباك الشيخ عبد الحميد . . . وهو لا يدري تماما ماذا يجب عليه أن يفعل . هل ينسحب ويمشي ؟ ولكن هذه قد تحسب عليه . اذن هل يصرخ فيهم أن انتبهوا ايها الكافرون ؟ . . . أم . . . وقبل ان يمضي فـى تفكيره للعثور على حل لهذه المشكلة . انتبه على صوت أجش يرتفع صائحا :
- انتبهوا .

وعلى الاثر ظهر المأمور وبجانبه كبار الضباط ، وعدد كبير من الحراس ، مقبلين جميعا في موكب مهيب نحو منصة الشيخ . وانتفض الحراس في وقت واحد وقد طار النوم من عيونهم . وصمت المذنبون وكأنهم جثث في مقبرة . وانتفض الشيخ عبد الحميد هو الآخر ، فقد اخذته روعة الموكب المهيب . واختلطت في ذهنه جميع المواعظ التي حفظها عن ظهر قلب طول حياته الماضية . وارتفع صوته من جديد ، وكان المأمور قد اتخذ له مكانا على مقربة من الحشد الكبير .

- ايها الناس ، كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم . . . « وكل عمل ابن آدم لنفسه الا الصيام فهو لى وأنا أجزي به » والصيام دواء لمرض التخمّة ، ولاشعاركم بما يلقاه المحرومون من اخوانكم في الانسانية ، فتعطفون عليهم ، وتحسنون اليهم . وترزقونهم مما رزقكم الله .

وتوقف الشيخ عبد الحميد قليلا . كان الصمت لايزال مخيما على الجميع ، وهم ينصتون في هدوء ويمصصون شفاههم في « طرقات » مسموعة ، وعيونهم تختلس النظرات الى الناحية التي وقف فيها المأمور . وكان يبدو عليهم التأثير الشديد لما يقوله ورضى الشيخ عبد الحميد عن نفسه

كثيرا ، وراح يربت بيده على صدره العريض وكأنه أفئدتهم قد تفتحت للتوجيه
الحكيم الصائب . لقد آمن افراد هذا القطيع أخيرا ، امنوا بالصلاة والصيام
والزكاة . . والحج الى بيت الله لمن استطاع اليه سبيلا وغشيت عيناه سحابة
من أثر الرضاء وعاد الى حديثه يلقيه فى عزم وقوة وعيناه لا ترى شيئا امامه
سوى الاستقرار الذى سيلقاه فى عمله . . وقطعة الارض التى سيشترىها
بجوار التربة . ولم لا ؟ وقد ران الصمت على الجميع واستطاع أن يغزو
قلوبهم بالايمان ؟!

الى طما



أخيرا جاء القطار ونهض هريدى عبد العال من مكانه على الرصيف ، ورفع الشوال الهائل الذى يحوى كل ما معه من هدايا لاسرته القابعة فى زاوية مهجورة من زوايا الصعيد . وقذف به داخل القطار ، ورفع ذيل جلبابه بين أسنانه وأمسك بنافذة القطار وراح يجرى معه ، وسقطت فردة حذاءه الممزق تحت العجلات وخطر له أن يترك القطار ليجرى خلف (الفردة) ولكنه طرد هذا الخاطر بعد أن وجد نفسه فجأة وبطريقة ما داخل القطار ، والشوال الضخم بين يديه يحاول عبثا أن يجد له ولنفسه مكانا بين مئات من أمثاله اقترشوا أرضية العربة المظلمة وراحوا يتحدثون ويهرشون غير ملقين بالا الى من يدوسون فوقهم بالاقدام .

ووجد هريدى لنفسه مكانا وسط هذا الزحام وفتح الشوال ليرى بنفسه ان الهدايا لم تمس . ولكن الغضب استبد به عندما اكتشف ان زر الشمام قد اصاب بضربة فى جنبه وان كيس السكر قد انفرط ، وزجاجة المزيغ قد سالت فلطخت كل شيء . وطوى هريدى الشوال ووضع تحت جنبه عندما بدأ القطار يتحرك نحو الصعيد . وخطر له ان ينام ، فان امامه أكثر من عشر ساعات حتى يصل القطار الى طما ، ومن هناك سوف يركب الحلزونة الى ميت الحلاجى ، وبعدها يستطيع السير على قدميه الى حيث يشاء .

ولكن حديث المسافرين وهرشهم ونداءات باعة القازوزة واللبن والبيض والسميط وكذلك الهدايا التى فى الشوال ، والجنيهاات العشرين التى فى جيبه ، كل ذلك طرد النوم عن عينيه ، فظل ساهرا يرقب أعمدة التلغراف وهى تجرى مسرعة فى الطريق المضاد وكأنها أطفال مذعورة تجرى مهرولة فى طلب الأمان .

وغاب هريدى تماما عن كل ما حوله ، وتذكر اليوم الذى جاء فيه الى القاهرة ، أول مرة ، حدث هذا منذ عام . كان الوقت ظهرا والمكان محطة مصر ، والزحام على أشده وعربات كثيرة فى عدد جميع الحلزونات التى تمر على ميت الحلاجى فى عام كامل . . . تجرى فى كل الاتجاهات ومركبات حديدية تحدث ضجيجا يصم الأذان وباعة شمام وبطيخ وورق ، وخاق كثيرون أكثر من كل الذين يسكنون الصعيد ، ورائحة غير نكية والناس مجهدون صفر الوجوه ، مرضى جميعا بالمسعال ولكنهم فى ملابس نظيفة وأحذية جديدة ومع بعضهم نساء بيض جميلات . ونظر هريدى الى قدميه العاريتين المتورمتين وجلبابه الممزق ، وتذكر صابحة زوجته ، وتمنى لو كان له حذاء وأمسك فى يده بورقة مطوية وسار فى الطريق .

وقبل أن يقطع مسافة طويلة استوقف افنديا كان يعبر الميدان مثله ، وأبرز له الورقة المطوية فألقى الافندى نظرة عليها ثم أشار عليه أن يمضى الى الامام ثم الى اليمين ثم الى الشمال ثم . . . أشياء كثيرة معقدة لم يفهم هريدى منها حرفا ، حتى الورقة التى تحمل العنوان لم يحصل عليها هريدى فقد أخذها الافندى وجرى فجأة وباقصى سرعة خلف حلزونة ضخمة كانت تجرى مسرعة ولم يلبث أن أصبح الافندى داخلها ، وغابت العربة مع العنوان عن الانتظار .

وهكذا عثر هريدى على الشيخ احمد مروان متعهد الانفار بعد أربعة أيام ، قضى ثلاثة منها فى قسم الموسيقى . . . ولم يدر هريدى السبب فى هذا ، كما انه لم يدر ايضا السبب فى انهم تركوه ، المهم أنهم عندما اخذوه سألوه عن اسمه ومقر اقامته وصناعته ، وكان هريدى صادقا فلم يذكر سوى انه يملك جسما قويا كالثور يستطيع أن يهدم به حائطا ، أو يجرب به حلزونة ، أو يصرع به رجلا من رجال المدينة الصفر الوجوه .

واهتز القطار فجأة ، وكانت المهزة قوية ايقظت هريدى من أحلامه ودفعت

بكثير من الجالسين الى الوقوف ليروا من النوافذ حقيقة الامر ، وهتف بعضهم
تصليح ٠٠ فيه تصليح فى السكة ٠٠
وهتف البعض الآخر :
— يامستعجل عطلك الله .

ثم خيم الهدوء من جديد . . وتوقف القطار قليلا قبل أن يسير وعــاد
هريدى يذكر تلك الايام منذ عام كيف انه ظل عاطلا بلا عمل عدة اسابيع . ثم
اخذه المعلم مروان ليعمل فى عمارة ، وكان العمل سهلا ، يحمل على كتفه
خمسین طوبة ويصعد بها على سقالة وثبا كالبهلوانات الى الدور الخامس ثم
يعود ، وعند كل مساء كانوا ينقدونه ربيلا كاملا وصرف هريدى الريال فى اليوم
الاول ، وفى اليوم الثانى وبقيّة ايام الاسبوع وعندما اخذ يقتصد توقف العمل
فى العمارة ، ولم يعد البناء فى حاجة الى مزيد من الطوب . وهكذا مضت اسابيع
أخرى وهو بلا عمل وأحيانا بلا طعام ، اما الماوى فمضمون ، فى الساحة التى

يملكها المعلم مروان فى حضانة الجبل عند الدراسة ، وهكذا عرف هريدى
الدراسة والازهر والعباسية أيضا حيث كان يعمل فى العمارة ، وعرف كثيرا
من بلدياته فى المقهى التى يجتمعون بها كل مساء يدخلون المعسل ويشربون
اقطاح الشاي الاسود . . ويلعبون الطاولة وأحيانا يأكلون العيش القمح مع
الفول ويدخل هريدى فى عمل جديد وخرج منه الى عمل آخر ، وفى كل يوم
تنشق الارض عن عماره ضخمة ، ثم تنتهى لتقوم بجوارها او فى حى آخر
بعيد عمارة مثلها وهريدى يحمل الطوب على كتفه ويغنى وهو يتأرجح على
السقالة ويشرب اكواب الشاي فى فترة الغداء ، وينام فى الليل على الرملة ،
كم هى باردة لذيدة فى الليالى الحارة اعظم بكثير من الارض الساخنة
الصلبة التى كان يفترشها فى الصعيد .

وتنهّد هريدى فى عمق ، وهو يسترجع فى ذاكرته تلك الليالى البعيدة .
وارتجف بدنه كله عندما تذكر . . كيف خطر له ذات مساء وهو جالس على
الرمل ان يترك زوجته وأسرته الى الابد وأن يخلص رقبتة من تلك العلاقة التى
تجعله يدور مجهدا حول نفسه ، كالثور الكبير . . وتذكر كيف استبد به هذا
الخطر حتى أطلقه ، وكيف استقر رأيه ذات مساء ، وهو يجلس وحيدا على
الرملة وأصابه تعبث فى بطن الكتيب البارد على الا يعود الى الصعيد ، أف
لهذه الحياة التى يعيشها الناس هناك ، حيث الظلام والنساء اللاتى فى شكل

غربان الجو ، والعيش الذى ينافس الطوب ، أما هو ففى مصر ٠٠ أم
المدائن كلها . . هنا الفول المدمس بكثرة والعيش لين يبتلعه الناس بسهولة ،
وشوارع نظيفة ونقود ، الناس هنا يختلفون عن الناس فى قريته بهادة ،
وفى ميت الحلاجى وفى طما ٠٠ هنا الناس يبدون أكثر بهجة واشد نظافة
واصواتهم أكثر رقة وجيوبهم عامرة .

وعجب هريدى ليلتها لان الناس هنا اشد غفلة من الذين هناك ، انهم
هنا يقطعون الوقت فيما لا فائدة فيه ، انهم يذهبون الى الخلاء والى الملاهى
والى النهر . وهو لايعرف طعما لهذا كله ، ولو ان الناس هنا أصحاب فطنة
حقا لقصوا الوقت كله فى الاكل ؟ الاكل هنا متوفر والناس لايعرفون قيمته ،
ولو ان كل هذه الكميات الضخمة من الفول والطعمية والباذنجان المخل فى
الصعيد لأتى الناس عليها فى لحظة ، ولكنه أحيانا يرى أصحاب الدكاكين وهم
يلقون ببعض فضلات هذه الاشياء فى الطريق .

واهتز القطار من جديد ، وتمهل فى سيره قليلا ووقف بعض الركاب ووقع
البعض الآخر ، وجرى بعضهم نحو النافذة ، وهتفوا . المنيا وداس النازلون
والصاعدون على الجالسين ، وتململ رجل كان يفترش الارض بجوار هريدى
وابدى تبرمه من هذا الحذاء الضخم القذر الذى انحسر فى فمه ، وصاح
رجل عجوز كان يتمدد تحت كرسى : - استحملوا بعض يا خلائق . دى كلها
ساعتين والعمر كله يومين .

ومصمص بعض الجالسين شفاههم فى اعجاب ، وهتف أحدهم :
- ربنا يفوتها على خير .

وتحرك القطار من جديد فى طريقه الى أسسيوط ، وعاد هريدى الى
ذكرياته فى مصر ، الى هذا الخاطر الغريب الذى استبد به بعض الوقت
فى ضرورة هجر أسرته وزوجته ، والصعيد كله ، ثم تذكر ماحدث بعد ذلك .
وكان قد بدد كل ما اقتصده ، ولماذا يقتصد . انه الآن ينوى ان يفعل ذلك .
ولكن خاطرا ملحا ظل يطرق خلايا مخه بانتظام وفى قسوة شديدة وجوع مسعور
نحو المرأة يأكل كيانه ويكاد يحيله الى شعلة .

وهمس ليلتها فى أذن بلال ، الصعيدى الزنجى الذى جاء الى مصر منذ
خمس أعوام ، همس له برغبته الجنونية ، انه لم يكن يحس هذا الاحساس

من قبل فى الصعيد ، ربما لان زوجته كانت فى شكل الغراب ، عجفاء مثل عود الحطب ، وربما هو الطعام اللذيذ الذى حرك فى نفسه هذا الغول الرهيب وقاده بلال فى ذلك الصباح الى الجبل بجوار المشرحة ، حيث بعض النساء الممتلئات الملطخات الوجوه بكل مائى الوجود من هوان . وفى وجوههن بثور غريبه ، ومن ملابسهن تفوح رائحة غريبه ، ولكنهن أجمل بكثير من التى تنتظره فى بهاده مع نصف دسته من الاطفال .

ولن ينسى هريدى ماحدث ، ضربه بعض الرجال ضربا مبرحا حتى كادوا يقتلونه وسلبوا منه الريال الذى كان معه ، ومع انسه قوى فى حجم الثور والآخرين ضعاف كالذباب ، الا انهم كانوا يتحركون بسرعة عجيبة ، ويضربونه فى وجهه وعلى رأسه فى مهارة وكأنها طبقا لخطه وكان يود لو يمسك بأحدهم ولكنهم لم يمكنوه وعندما تركوه لم يستطع أن يفتح عينيه . وعندما فتح عينيه وجد نفسه داخل حلقة من الجنود السود مثل بلال وفى ايديهم كراييج .

واهتز القطار فجأة ، وقام بعض الناس ووقع البعض الآخر ، ورفع هريدى يده يتحسس قفاه وظهره ، صحيح ان الألم زال ولكن آثار الضرب المبرح بالكراييج مازالت فى مكانها هناك وكأنها حدثت بالأمس .

وابتسم هريدى فى خبث شديد ومضى وقت طويل قبل أن يسير القطار ، وسأل هريدى جاره عن الساعة ، وسأل الجار رجلا آخر . وسأل الجار الآخر جارا آخر ، ثم جاء الجواب من بعيد ، من رجل كان يجلس فى آخر العرببة .

وكانت الساعة الثانية بعد منتصف الليل والحر يكتم الانفاس ، ورائحة الرجال مختلطة برائحة الشمام برائحة البطيخ برائحة المزيج . وعاد هريدى يهرش فى قفاه وفى ظهره ؟ وفى رأسه تتلاطم الافكار والذكريات متزاحمة يأخذ بعضها برقاب بعض ، والمشاهد تترى أمامه كأعمدة التلغراف التى تجرى مذعورة على الطريق المضاد والتى أخفاها الظلام عن عينيه .

وعاد هريدى يذكر كيف نام فى الساحة عشرة أيام بعد . . « العلقة » لم يستطع ان يبرحها ، وكيف طرد عن نفسه خاطر الانفصال عن أسرته وزوجته وعن الصعيد ، ثم عاد الى العمل من جديد ، من عمارة الى أخرى حتى جاءه

المعلم ذات يوم وقاده الى معلم آخر . فسلمه لرجل نظيف لا يبدو مثل الآخرين قالوا له انه مهندس وان عمله سيكون بعد ذلك الحفر فى الرمال دون ان يحمل طوبا او يتسلق عمائر . . شئ لا فائدة فيه ولكنه سيتقاضى أجرا كبيرا . . ثلاثين قرشا فى اليوم ، وسيعمل بلا انقطاع .

وفى جوف الصحراء بعد الهرم راح يضرب الفأس فى جوف الارض . . عمل مريح ، وفيه نوع من الاستقرار وهؤلاء البلهاء يدفعون الاجر ، وهو لا يفهم معنى لكل هذا العمل التافه ، الحفر فى الرمال . . ربما جاءه الحظ الذى اصاب بعض الناس من قبل . . أن بعض الناس فى المدينة لا يعملون شيئا ويتقاضون أجرا كبيرا . . والافندى الذى يعمل معه يجلس فقط على الكرسى خلف مكتب كبير وفى الظل لا يحفر الارض ولا يحمل الطوب ، ورغم ذلك فيبدو انه يتقاضى أجرا كبيرا لانه يدخن السجائر فى علبه ، ويشرب الشاي والقهوة ويدفع أحيانا بقشيشا سخيا لهؤلاء الذين يحفرون ، والمعلم مروان مقاول الأنفاق انه لا يفعل شيئا هو الآخر ، الا الجلوس على المقهى ولعب الطاولة وتدخين المعسل ، ومع ذلك فهو يتقاضى أجرا كبيرا ، اتاح له ان يبنى عمارة فى مصر ، ويشترى عشرة افدنة فى طما ويتزوج اربع نساء . . انه الحظ لابد اذن قد هبط عليه هو الآخر ، والا ؟ فما معنى كل هذا النعيم الذى يرغل فيه . . الحفر فى الرمال خمس ساعات والاجر ثلاثون قرشا ولا توجد هنا بطالة كما هو الحال فى شغل العمارات ويبدو انها لن تكون . . لان الصحراء عريضة طويلة ، والمحفر فيها يستغرق الدهر كله . .

وتذكر هريدى كيف مرت الشهور رتيبة هينة حتى حدث شئ عجيب . . منذ اسبوع واحد وكان هريدى يضرب الفأس فى الرمل فى بطنه ممل فليست هناك رقابة ، الافندى فى المنزل والريس فى القهوة ، والصحراء لن تتصدع اذا تأخر العمل فيها قليلا او سار فيها فى بطن شديد ، وعاد هريدى الى الضرب بالفأس فى باطن الصحراء ، ثم مضى وحده يسرع فى العمل ويرفع الفأس الى أعلى فى نشاط ويضرب فى الارض بقسوة ، لا يدري لماذا ؟ ربما لانه تذكر زوجته وامه التى تركها تموت فى الصعيد ولكنه توقف فجأة عن العمل فقد غاصت الفأس فى الرمل ، وعبثا حاول ان ينزعها دون جدوى واستطاع اخيرا عندما استعان ببعض الرجال . . وخلف الفأس فى الارض فجوة كبيرة مظلمة سوداء كقلب المعلم مروان ، وانحنى هريدى ينظر داخلها فى بلاهة ثم قفز من شدة الرعب . . كان

هناك شيء أشبه بالحجرة ، وجثث كثيرة ممددة وكأنها نائمة وأوانى طبخ وأشياء أخرى كثيرة من بينها أرغفة خبز تبدو تماما مثل خبز السعيد .

وامتقع لون هريدى وهو يفكر فى هذا الامر ان هذا الذى يراه لابد مقبرة هائلة ، وهؤلاء موتى منذ زمن بعيد . . تذكر كلمات الشيخ الدسوقى واعظ القرية التى يرددها فى المسجد كل يوم جمعة ، وهى ان الارض تخفى تحتها جثث ملايين الخلق منذ يأجوج ومأجوج .

وهريدى لايدرى متى كان يأجوج ومأجوج هذا ، ولكن لابد أنهم ظهرتوا منذ زمن بعيد يضرب فى بطن التاريخ الى غور سحيق .

واصفى لون هريدى عندما خطر له أنه ربما كان هؤلاء القوم من « المساخيط » الذين سخطهم الله لضلالهم .

وتذكر ثانية كلمات الشيخ دسوقى حيث كان يقول ان الله كان يسخط القوم الظالمين ، وانه سيسخط العالم قريبا بكل ما فيه ومن فيه ، اذن كان الشيخ دسوقى يقصد ان العالم كله سيتحول الى شيء من هذا القبيل وخطر له ايضا ان هؤلاء القوم ربما يمتنون الى الافندى المهندس بصلة قرابة ، وان الغرض من حفر الصحراء كان هو العثور عليهم . المهم ان هريدى انتهى من هذه الخواطر جميعا بأن صاح وبلا وعى :
— يارجاله ، يارجاله ، يارجاله ..

وهرع الرجال الىه وتوقف العمل فى كل مكان الا عند هريدى . ونزل هريدى من الفتحة الى الداخل ، كانت الرائحة عفنة قوية . والناس ينامون فى هدوء تبدو على وجوههم راحة السنين الطويلة .

ونظر هريدى اليهم فى اشفاق وذعر . . وفى حسد ايضا . . صحيح ان الدسوقى كان صادقا حينما كان يقول : لاتأتى الراحة الا مع الموت . . وراح هريدى يذرع ارض الحجرة المظلمة بحثا عن شيء ، لم يكن هناك سوى أحجار فى أحجام مختلفة . .

وفجأة عثر على شيء لامع لابد انه كنز ، وعندما وضعه فى جيبه ، كانت الفتحة قد اتسعت أكثر ، وأصبح فى وسع الرجال ان يروه .

وجاء الرئيس بعد ساعة ، وجاء المهندس بعد ساعات ، وتوقف العمل في ذلك المساء ، ونام هريدى بجوار الفتحة تحت الحراسة ، كانت المنطقة قد تحولت كلها الى نهار بفعل الانوار التي جلبها المهندس ، والمكان كله طوقه الجند المسلحون ، واغتم هريدى لهذه النهاية السيئة ، لابد أن هذا الذى عثر عليه كنز تملكه الحكومة ، أو مقبرة تضم رفات احد اجداد رجال الحكومة .

وسهر هريدى الليل بطوله يفكر فى الاقوال التى سيدلى بها ، انه لايقصد هذا العمل على الاطلاق .. والافندى المهندس هو الذى أمره بذلك وعند الفجر سقط هريدى نائما من الاعياء . وعندما جاء الصباح أيقظوه ، وقادوه الى خيمة نصبها الجند بسرعة ، ودس يده فى جيبه وأخرج القطعة الصفراء والقى بها فى الرمل وداس عليها بقدميه .

ودخل هريدى الى الخيمة .. كان هناك ضابط صغير السن ، والافندى المهندس وافندية مثله .. بعضهم يلتقط مناظر .. وبعضهم يدون شيئا على ورقة ، لابد انهم رجال النيابة .. وهم هريدى أن ينحنى على حذاء المهندس يستعطفه ويستحلفه بكل مقدس ان يتركه ، ولكن صوتا رتيبا هادئا جاءه من الخلف من الضابط الجالس فى الخيمة :

— انت الملى دخلت مقبرة فرعون فى الاول ؟

— انا مظلوم والله العظيم يابيه

ولم يلتفت الضابط الى الاستعطاف وسأله :

— كانت الساعة كام .

— والله العظيم مظلوم يابيه ، احنا ناس غلابة مامعناش ساعات .

وضحك الناس الجالسون ، لابد انهم يسخرون منه ، وهكذا الناس يضحكون دائما من كل ما يصيب الآخرين من شرور ، وانتهى التحقيق بسرعة وخرج من الخيمة دون ان يمسه أذى ، وبجوار الفتحة قضى هريدى خمسة ايام طوال مسح خلالها كل الصحراء المحيطة بالمقبرة ، بحثا عن القطعة الصفراء التى ألقى بها ، واول أمس نقدوه الاجر كاملا ومكافأة عشرة جنيهاات وقالوا له اذهب اذا شئت .. هؤلاء البلهاء .

وذهب هريدى وهو لا يصدق ، واشترى المشمام وأقعة الارز وكيس السكر وعاد الى طما وهاهو القطار يقف فيها الآن والنازلون والصاعدون لن يدوسوا عليه .. أنه سينزل معهم وسيدوس هو أيضا على الآخرين ..

وتحسس هريدى الجنيهات العشرين التى فى جيبه . وفتح الشوال من جديد ليرى مافيه كان كل شىء مكانه ، حتى نسخة الجريدة التى تحمل صورته عند الفتحة والتى اشتراها بقرش صاغ لتتفرج عليها زوجته وكل الرجال فى بهادة .

وهبط هريدى الى الرصيف ، وقبل أن يترك الرصيف كان القطار قد تحرك .. ونظر هريدى الى قدميه كانتا عاريتين تماما ، لقد نسى « الفردة » الثانية داخل القطار ، أما الفردة الاولى فقد سقطت منه تحت العجلات عند بداية الرحلة .

وخطر له ان يجرى وراء القطار لياتى بالفردة ولكن القطار كان قد اختفى مع « الفردة » فى الظلام .. ورفع هريدى الشوال على كتفه ، وعلى تراب الارض الطيبة غاص هريدى بأصابع قدميه الضخمتين .. ومضى مسرعا فى الطريق الى .. طما !



المرحوم



توقف العمل تماما في القرية فقد مات الشيخ
فراج عند الفجر ، وعمت القرية فرحة شديدة لم تشهدها
من قبل .

وعند الدرب الذي ينتهي الى المرحوم جلس
الشيوخ على الارض في حلقات يدخنون ، ويسألون عن
اسعار القمح وعن موعد تدفق المياه في القرعة ،
ويثرثرون حول سن الشيخ فراج وهل حضر هوجة
عرابي ام انه كان طفلا لا يدرك شيئا .

وراح بعضهم يسرد في حماسة قصص احداث بعيدة له ، وللشيخ
فراج عندما كان كل منهما فتى في ربيع العمر ، وعلى مقربة من الشيوخ
جلس الفتيان فرحين بالفرار من عناء العمل في الحقول وراح كل منهم يقص
مغامرة حديث بينه وبين الشيخ فراج عندما حاول سرقة ثمار الجوافة التي كان
يملكها المرحوم عند الجسر ، وكيف ضربهم الشيخ فراج بعضا التوت الرفيعة
وكان في جسيم كل فتى من ابناء القرية آثار من عصا المرحوم .

وانتشر الاطفال الصغار يلعبون في الساحة الواسعة التي سيقام فيها
« الصوان » في الليل والبشر يغمر نفوسهم ، لان مساء ذلك اليوم لن يكون
كثيبا مثل الليالي السالفة ، فستشع أنوار « الكلوبات » وسيمتد نورها في

الساحة وسيلعبون حتى الفجر دون أن يزجرهم أحد فسيكون الجميع فى
المانم حتى الصباح .

وكان الاطفال يرددون وهم يدورون حول انفسهم لحنا ساذجا اشبه
بالتوايح :

— حانسهر بالليل ، وناكل لحمه على روح المرحوم .

وكان يسكتهم أحيانا عن ترديد اللحن مرور شيخ عجوز مخترقا
الحوش فى طريقه الى بيت المرحوم حيث يجلس الرجال فى انتظار تشييع الجنازة
فيزجرهم بصوت غاضب وهو يلوح لهم بمعصاه :

— ماتسكتوا ، جاتكم داهية ..

وكانت النسوة العجائز يجلسن فوق أسطح المنازل المجاورة لبيت المرحوم
يروين فى أسى بالغ قصة الساعات الاخيرة لموت الشيخ فراج وكيف انه
سأل عن فلان .. وفلان وتنبا بنهايته قبل ان تأتى النهاية بساعات .

وعند باب البيت كان الابن الاكبر للمرحوم يقف والحزن يبدو عليه ، وان
كانت الفرحة تغمر كيانه فى حقيقة الامر ، فقد كان أبوه يملك طاقما كاملا من
الملابس الجوخ والشاهى ، وكان يستعملها فى المناسبات الخاصة وقد جاءت
المناسبة الخاصة ليستعملها الابن .

وكانت فرحته تمتد الى سبب آخر ، هو أن زواجه بمحاسن بنت شيخ
البلد كان مؤجلا لحين شفاء الوالد أو وفاته ، ولقد أصبح الطريق الآن
مفتوحا الى هنائه بعد أن تداركت أباه رحمة الله .

وكان الجو يسوده بعض الفتور فقد كان الجميع فى انتظار حضور
نجل الشيخ فراج الذى يعمل موظفا فى مصر ، وقد مرت ساعات طويلة قبل
أن يحضر .

وعندما حضر تم تشييع الجنازة فى دقائق ، وحمل النعش أربعة ،
شيخ البلد ، ومحمد الخفير النظامى ، وعبد السميع الاخرس ونجله الكبير ،
فقد أصر على أن يحمل أباه حتى القبر .
وعندما جاء الظهر كان الرجال قد عادوا من المقابر ، وتم اعداد

« الصيوان » وجاء المقرئون من البندر ، وجلس الناس يستمعون الى ترتيل آيات الذكر الحكيم ثم خيم الصمت على الجميع عندما حان موعد الغداء ، والتفوا فى حلقات يأكلون حتى شبعوا ، وكان الغداء ثريدا ولحم ضان ، فقد كان المرحوم يملك قطيعا صغيرا من الخرفان وكان يرفض بشدة أن يذبح أحدها ، فقد كانت تربية الخراف هواية عند المرحوم .
ولم تنقطع الثرثرة خلال الاكل فقد همس محمد الخفير وسط الشلة التى كان يجلس بينها ضاحكا :
- الله يرحمه كان نفسه فيها .

وعندما انتهى الجميع من الغداء ارتشفوا القهوة على عجل ودسوا أصابعهم فى صناديق الدخان فالتقط كل منهم لفافة ، وغادروا الصيوان مسرعين الى منازلهم . وبقي البعض داخل الصيوان مضطجعين وهم يدخلون فى لذة وأصابع أرجلهم تتحسس وبر السجادة الفاقعة الالوان التى فرشت على الارض .

وزحف المساء على القرية وهى تموج فى النور ، وصوت المقرئ يعلع فى أنحاء القرية ، وأبناء الكفور المجاورة يفدون جماعات ليشترى اللعب وباعة الحلوة « الغزل » يحتشدون حول الصيوان والابن الكبير فى طاقم الملابس الجوخ يستقبل الناس والابن الصغير الذى يعمل فى مصر يطوف عليهم بعلب السجائر كلما دخل الصيوان فوج جديد .
وجلس الشيوخ يرتشفون أقداح القهوة ، ويدسون شيئا لزجا أسود اللون فى أفواههم ويسألون الحاج وهذان فى الحاج أن يمزج لهم القهوة بالعنبر الذى يحمله .

وجلس الشبان عند باب الصيوان يختلسون النظرات نحو فتيات القرية عند مرورهن نحو بيت المرحوم أو عودتهن من هناك .

ومرت ساعات الليل على « القرية » سريعة شأنها شأن ليالى العيد والمقرئون يتبارون فى التجويد ، والفلاحون يمصصون مع أبناء القرية المحظوظين شفاههم عجا واستحسانا ، وفجأة سرت همهمة بين الجميع أشاعت اللغط فى أنحاء المكان عندما حمل محمد الخفير اليهم نبأ هز أعصابهم هذا ، خلاصته أن العشاء لن يقدم لوفود المعزين اكتفاء بما قدم فى الغداء .

وأصيب الجميع بخيبة أمل شديدة ، وجلس الشيوخ ساهمين بعد أن أتوا على ما معهم من الشيء اللزج الاسود اللون ، وتسطل الشبان جماعات ليسيروا على الجسر فى الهواء الندى ، وهذ التعب كيان المقرئين فخفتت أصواتهم ، وافتقدت الرنين الحلو الذى كان لها فى أول الليل ٠٠ ولم يلبث الشيوخ أن تسفلوا هم الآخرون وقد هاجمهم النعاس ، ولم يعد هناك غير المقرئين ، وبعض الذين فضلوا النوم على السجادة ذات الألوان فناموا حيث هم حتى الصباح ، وظل الاطفال يمرحون على ضوء المصابيح حتى ذبلت هى الآخري وأظلم المكان فعادوا الى دورهم من جديد •

ولف الظلام الكئيب القرية وعاد نباح الكلاب يسمع آتيا من بعيد عبر المزارع والحقول ولم يلبث الفجر أن أشرق عليها وعادت الابواب تفتح محدثة صريرا أشبه بصوت عربة يجرها ثور على طريق حجرى وخرج الشبان بهراواتهم نحو الحقول ، والشيوخ على الحمير فى طريقهم الى البندر ، والاطفال يسحبون البهائم نحو التربة •

وعادت التعاسة من جديد تحتل قلب كل منهم •

شئ واحد أعاد الامل الى قلوب أهل القرية ، فقد رأوا عند الكويرى القديم المتآكل - الذى يفصل القرية عن بقية الكون - حميدان بن الشيخ عبد الرحيم يسرع الخطى فى طريقه نحو البندر لاجتماع الطبيب ، فقد دهمت الفوية أباه ، وتذكر الناس فى القرية أن الشيخ عبد الرحيم مريض منذ أمد بعيد وأنه لن يعمر طويلا ، وستمضى على القرية أيام قليلة حتى يهبط عليها يوم آخر فيه حركة ٠٠ وترفيه •

البولوبيف



بعد القتل الكبير بعدة كيلو مترات ، ترقد قرية المحسمة
ذليلة بين القلال ، فتبدو منازلها المتداعية الى جوار
سلسلة القلال الرهيبة وكأنها عابد صينى يركع فى فناء
معبد بوذى قديم .

وأهل المحسمة لا يعرفون أن لقريتهم شأنًا عظيمًا ، ولم يسمعوأ ان
البلاغات البريطانية التى صدرت من جانب القيادة فى فايد خلال معركة القنال
قد ذكرت اسم قريتهم أكثر من مرة ، ولم يسمعوأ كذلك بأن محمد حسنين
وسعدى كامل اللذين قتلأ خلال المعركة قد صدرت بأسمائهم وقصص
استشهادهم ملاحق خاصة من صحف مصر .

لم يسمع أهل المحسمة بشئ من هذا . فهم لا يقرأون صحفا ، والراديو
الوحيد فى قريتهم فى دكان الشيخ عبد القادر ، وهو رجل لا يحب الليل ويعتقد
ان دوره فى الحياة يتوقف عندما تغيب الشمس . . ولكنهم رغم هذا الجهل
المطبق بأهمية قريتهم وذيوخ صيتها ، كانوا يعلمون حقيقة واحدة تمس القرية
من بعيد . . خلاصتها ان الانجليز يستخدمون الجبل القريب من القرية لاحتراق
بقايا الاطعمة . كانوا جميعا يعلمون السر . . وكانوا جميعا يتوجهون تحت
جناح الظلام الى سفح الجبل ، ينبشون الارض بأظفارهم ، بحثا عن شئ من
الطعام لم تصل اليه النار . وكانوا دائما يجدون ، وكانوا دائما يتعجبون لبلاهة
هؤلاء الناس . . الانجليز . ولو أنهم وزعوا هذه الاطعمة على سكان قرية
المحسمة . . مثلا . لنال الانجليز ثواب الدنيا والآخرة ! ولكن ، هكذا شأن
الاقوياء . . والانجليز على الاقل أقوى من أهل المحسمة .

المهم ان اهل القرية كانوا يعلمون انه في ساعة معينة من ساعات النهار تقبل عربية أو أكثر ، من عربات الجيش البريطاني فتعبر الكوبرى الخشبي على ترعة الاسماعيلية ثم تنحرف يمينا نحو القرية ، ومن هناك الى سفح الجبل ، حيث تتم عملية احراق الاطعمة على مشهد من اهل المحسمة ، وأحيانا كانت العربات تتأخر قليلا عن موعدها ، وأحيانا أيضا كانت تأتى مبكرة ، ورأى اهل القرية زيادة في الاحتياط اختيار واحد منهم كل يوم ليقف على رأس الكوبرى المتهاك ، يرقب عربات الانجليز وهى فى طريقها اليهم ، والى الناس فى المحسمة ان يستمعوا الى صراخ « الديديبان » يعلنهم فيه بنبا ظهور العربات على الطريق .

وفى ذلك الصباح السعيد هتف الديديبان :

— العربية جايه ..

فهرع الناس صوب الكوبرى يشهدون المنظر بأنفسهم ، وعندما رأوها سعدوا بمرآها ، فقد حدث أن انقطع ورود العربات سبعة أيام كاملة . ولم تكن عربية واحدة ، كانوا ثلاثا .. وعندما أصبحوا فوق الكوبرى تماما سمع اهل المحسمة صوتا كالرعد ، فقد تهشم الكوبرى وسقطت عربتان فى التربة واستدارت الثالثة عائدة بأقصى سرعة ناحية المعسكرات . ولم ينتظر اهل المحسمة شيئا ، فقد خلعوا ملابسهم جميعا والقوا بأنفسهم فى التربة . وانتشلوا السائقين .. وراح كل منهم يجمع علب الصفيح التى تطفو على سطح الماء ، ويفحص فى الاعماق لينتزع من طين التربة العلب الضخمة التى استعصت على التيار . وعاد اهل القرية الى منازلهم يحمل كل منهم مجموعة من علب الصفيح .. تحوى لحما محفوظا لم تمسه النار من قريب أو بعيد .

مجانين هؤلاء الانجليز .. هكذا قال اهل المحسمة وهم يلتمهون فى شراة غذاءهم من محتويات العلب الصفيح ولو كان هذا هو الطعام الفاسد .. أين إذن هو الطعام الصالح ؟

لابد انها حيلة انجليزية — هكذا قال أحدهم — ولابد أن الكبار الانجليز يعتمدون احراق هذه المأكولات ، حتى لا يصاب الجنود بالتخمة . واكد هذا الذى قال — قوله بحكايات طويلة عن خدع الانجليز .. فقد سبق له أن عمل عندهم فترة خلال الحرب .

المهم أن قرية المحسمة سعدت ذلك اليوم وابتهج أهلها .. فقد حشوا بطونهم بما زنته خمسة أطنان من اللحم اللذيذ السهل المضغ وهى كمية كبيرة لم تكن تحلم القرية أن تستهلكها ولو بعد جيل .

رجل واحد شهد القصة من البداية ولكنه لم ينل شيئا . فقد كان عبد المقصود يجلس تحت الشجرة عند الكوبرى عندما سقطت العربية ، وكان هناك عندما اندفع سكان القرية كالسيل المنهمر صوب التربة . وكان هناك عندما خرجوا جميعا من الماء منطلقين بأقصى قوتهم متدافعين كأنهم فى يوم الحشر الى منازلهم . كان هناك ، ورأى كل شىء . ولكنه لم يأخذ شيئا . فعبد المقصود بلا ساقين ، وصرخاته لم تستطع الوصول الى أحد وقت الصراع الرهيب حول اقتناص أكبر عدد ممكن من الصناديق العائمة . ورغم ذلك فقد توسل عبد المقصود لطوب الارض فى المحسمة أن يعطيه أحد ، ولو عليه ليرى ما بداخلها . ولكن لم يرض أحد منهم .

ان المسألة مسألة رزق وهو نفسه كان هناك . ولابد أنه كان مكتوبا عليه ألا يأخذ شيئا . ان لكل منا نصيبه فى الحياة ، وسيأخذ كل منا نصيبه . هكذا قال الذين راحوا يفلسفون الامر لعبد المقصود .

كانت الشمس قد بدأت تختفى خلف قمم التلال المحيطة بالقرية ، عندما وصل عبد المقصود الى مكانه بجوار التربة . وكان الجنود الانجليز قد أوشكوا على الانتهاء من ترميم الكوبرى . حين راح عبد المقصود يفكر فى الامر مليا ، وعيناه تبحثان فى قلق فوق سطح الماء عن شىء من حمولة الصباح .. ولكن صرخة اليمة قطعت عليه تفكيره . ولم تنقطع الصرخة ، بل تبعته صرخات ، وشاهد عبد المقصود أشباحا تهول وسط القرية ، وأشباحا تسقط على الارض . والصراخ يعلو وينتشر . وكأنما شب حريق هائل فى أنحاء القرية .

وزحف عبد المقصود من مكانه نحو قلب القرية مستفسرا عن حقيقة الامر وكان هناك حريق .. ولكن فى بطون أهل القرية . فقد أحس كل منهم فجأة بخناجر حادة تمزق أحشاءه . وارتدى كل منهم يفرغ ما فى جوفه من طعام . وخرج بعضهم يجرى كالمجنون فى أنحاء القرية بحثا عن شىء لا يدركه . ولم تمض ساعات حتى كانت قافلة من العربات تجرى على الطريق بسرعة نحو القرية ، ولكنها كانت عربات من نوع جديد . وكانت أجراسها تدق دقات منتظمة رهيبة . وعندما وصلت راح الرجال الذين كانوا بداخلها يحملون أهل

القرية على نقالات الى جوفها . وعبد المقصود يشهد كل ذلك عن كذب ، فهو الوحيد الذى لم يشعر بالأم . وان كانت امعاؤه تلتوى من الجوع ورنّت كلمة « تسهم » فى اذنه فى الوقت الذى شاهد فيه رجال الاسعاف يحملون معهم ما تبقى من علب اللحوم المفتوحة والمقفلة . علب كثيرة تكفى لاطعام قبيلة . ولكن من أين جاء التسهم لاهل القرية . هل جاءهم من العلب ؟ لا يمكن ، ان عبد المقصود يذكر جيدا ان اهل القرية يأكلون هذا الطعام منذ ان عسكر الانجليز الى جوارهم فلم يصبهم التسهم يوما ، لابد انه المفص اصابهم من جراء مياه التربة الباردة فى هذا الوقت من الشتاء .

وزحف عبد المقصود نحو الحائط ليفسح الطريق لعربات الاسعاف التى انطلقت مسرعة وسقطت علبة كبيرة من العربة الاخيرة .. علبة كاملة لم تفتح بعد ، تدرجت على الطريق ، واستقرت الى جوار عبد المقصود ، ومد يده فالتقطها . وراح يقلبها بين يديه يتفحص جوانبها . ثم زحف من جديد على ارض الشارع فى طريقه الى مكانه المعهود عند جسر التربة . وعندما وصل الى هناك كان الظلام قد بدأ ينشر اُرديته على القرية وعلى التلال المحيطة بها . والجنود الانجليز قد اوشكوا على ترميم الكوبرى . واسند ظهره الى جذع الشجرة العجوز .. وابصر قافلة عربات الاسعاف تنطلق امام عينيه من بعيد نحو التل الكبير .. واضواؤها تبدو خافتة . ورنّت فى اذنه « قرقرة » بطنه الخاوية كأنها صرخات اهل القرية . ومد يده فالتقط حجرا دق به العلبة فأحدث بها ثغرة واسعة . وغاص بأصابعه الخمسة فى جوفها . وراح عبد المقصود يمزغ اللحم الطرى فى لذة فائقة . وأحس بالراحة تسرى فى كيانه ، وبالسعادة تغمر نفسه . وألقى عبدالمقصود بالعلبة الفارغة ، وتنهّد بارتياح عميق . وتدرج رأسه الكبير على صدره البارز العظام . وراح عبد المقصود فى نوم عميق .

مارام هناك نساء



نفخ الشاويش عبد الرحيم من شدة الضجر ورفع
يده الى فمه فمسح شفتيه ، ثم أمال طربوشه الى
الخلف قليلا ، ووضع البندقية بين ساقيه وأخرج منديله
المحلاوى فجفف به عرقه الذى يتساقط من جبهته
العريضة على غصون وجهه الكالج البارز العظام ..
ثم اعتدل الشاويش فى وقفته فأصبح مثل شجرة
عجوز يابسة ثابتة فى الارض .. وتلفت فى أنحاء
العربة الاخيرة من قطار بور سعيد .

كانت العربة مزدحمة ، حارة مزعجة ، ورغم أن النوافذ كانت مغلقة
الا أنها كانت تبدو وكأنها تحمل مع الركاب شحنة من التراب !

ونظر الشاويش عبد الرحيم الى نفسه من تحت الى فوق ، ومن فوق الى
تحت ، كانت البدلة « الميرى » كالحة مثل وجهه ، والحزام نازل قليلا عن
المستوى اللائق ، والبنطلون أيضا نازل أكثر من اللازم على الحذاء ،
والحذاء مغبر مجروح فى أكثر من موضع ، وحتى الرباط مفكوك ، وزوج
الكلبشات مازال فى يده ، كان منذ برهة فى يدي مجرم رهيب سـلمه فى
القسم فى القاهرة قبل أن يعود الى مقر عمله فى محافظة بور سعيد .

وتذكر الشاويش عبد الرحيم منظر المجرم والكلبشات فى يديه ، وقفاه
العريض الغليظ فى أصابعه هو النحيلة المدببة كأنها رجلا دجاجة هزيلة .
وتذكر منظره وهو ساهم أبدا ، مطرق الى الارض فى ذهول على

الدوام . ولكن سرعان ما طرد الشاويش صورة المجرم والكلبشات والنظرة
الساهمة الحزينة عن خاطره وعاد من جديد ينظر حوله فى أنحاء العسرية
والقطار يجرى به مسرعا كالقدر فى طريقه الى بنها .

وحدث الشاويش نفسه فى أسى .. هؤلاء الجالسون فى بلاهة ..
انهم لا يتعبون مثله ومع ذلك ينظرون إليه نظرات يحمل بعضها معنى الشماتة
لانه واقف « زنهار » مع أنهم يعرفون أنه شاويش وأنه فى مهمة رسمية لان
البندقية فى يده والكلبشات مع استمارة السفر فى يده الاخرى .

وعاد عبد الرحيم يجفف عرقه المتساقط حافرا لنفسه فى تجاعيد
وجهه النحيل قنوات .

واهتز فى وقفته وكأنه سيسقط والقطار يتأرجح وكأنه يجرى على غير
قضبان ، ولم يفكر الشاويش ، فتقدم على الفور الى ثلاثة كانوا محشورين
على مقعد مخصص لراكبين ، وبلهجة آمرة تحمل كل الضجر الذى يحسه ..
وجه الحديث اليهم جميعا :

- فسمح يا جدد انت وهوه ...
وأفسح الثلاثة سريعا للشاويش وسقط الثالث الذى كان يجلس عند
الحرف فوق الارض .

وهكذا وجد عبد الرحيم نفسه جالسا على الكرسي والطربوش على
ركبته ويده على المنديل تمسح شعر رأسه الاشيب المبلل بالعرق ، وأطرق
عبد الرحيم فترة يستعيد فيها قواه ، ثم رفع رأسه فى تثاقل وتمتم فى سرعة
يشويهها الضجر :

- لامؤاخذة يا رجاله ...

ولم يجبه أحد من الجالسين .. ويبدو أنه لم يكن ينتظر جوابا ..
فضرب يده فى جيبه الخلفى وأخرج علبة سجائر من الصفيح الانجليزى ،
وأخرج منها سيجارة رخيصة وضعها بين شفتيه وأشعلها من رجل يجلس
أمامه على الارض بين المقعدين وراح يجذب أنفاسا عميقة .

وسادت فترة صمت قبل أن يتكلم الشاويش عبد الرحيم :
- فاضل أد ايه على بنها ؟

وجاء الجواب من خلفه :

- مابقاش فاضل ...

ثم خيم الصمت من جديد .. ولكن هذا الصمت لم يتعوده الشاويش عبد الرحيم ، والرحلة طويلة ، وهو فى حاجة الى أن يتكلم - أى كلام - ومع أى أحد .

ولكن كيف السبيل ؟ والذين من حوله يبدو أنهم من هواة الصمت البليغ ، وفكر الشاويش عبد الرحيم برهة ثم نظر الى الذين حوله .. رجل فى ملابس بلدية عجوز طحنته السنون وأكلت معها نور عينيه ، وفلاح يبدو أنه لا يعرف شيئا ، والرجل الثالث الذى كان على المقعد قبل أن يجلس الشاويش فقد أثر الصمت فجلس على الارض بجوار الكرسى .

وعلى المقعد الامامى كان هناك أفندى يبدو أنه متكبر وخواجه من الاروام ، ورجل فى ملابس متسخة وتحت قدميه صفيحة تحدث ضجيجا كلما اهتز القطار .

ونظر الشاويش الى الرجل المتسخ وراق له أن يتحدث اليه ، فهو وحده الذى يبدو فى حاجة الى الحديث .. وهو أيضا الذى يستطيع أن يتحدث اليه دون أن يخشى منه صدا .

وبلهجة باردة قال الشاويش للرجل المتسخ متسائلا :
- بتشتغل ايه ؟

وانتفض الرجل مذعورا ، وأدار رأسه الصغير الحليق كقطعة بطاطا مسلوقة فى كل اتجاه ، ثم أجاب أخيرا بعد أن تأكد انه هو المقصود بالسؤال وان السؤال قد يكون للتحرى :
- فى الخردة ...

وفتح الشاويش عبد الرحيم فمه فى دهشة بلهاء وهز رأسه قبل أن يقول :

- فى مصر .. والا فى الاسماعيلية ؟

- فى مصر باذن الله ... انما باشتري الخردة من الاسماعيلية .

وعاد الشاويش عبد الرحيم يقول :

- من الكنوبة ؟ (جمع كامب) .

وابتسم تاجر الخردة فى اطمئنان ودهشة لمعلومات الشاويش
الواسعة ٠٠٠ وأجاب :

— أيوه ٠٠٠

ولكن الحديث انتهى عند هذا الحد ٠٠ وفكر الشاويش فى موضوع
اخر للحديث ، غير أن تاجر الخردة فاجأه بقوله :
— أنا واخواتى ٠٠٠

وانفجرت أسارير الشاويش عبد الرحيم عن ابتسامة هادئة كانت
عابرة بوجهه الكادح المنهوك وقال فى هدوء شديد :
— واخواتك معاك ؟

— أيوه ٠٠٠ ستة ٠٠٠ وعاشين مع بعض ٠

— ربنا يخلى ٠٠٠

وهز الشاويش عبد الرحيم رأسه فى غير عنف وكأن فكرة رائعة قد
لمعت فى ذهنه ٠٠٠ ثم قال :

— تعرف ! العيلة اللى زى دى ، مايفرقهاش الا الحريم ٠

وعلى الفور نطق الرجل العجوز الجالس الى جوار الشاويش
عبد الرحيم :

— قطعت الحريم وأيامها ، هم اللى جايين الكافية للعالم ٠

وهتف الشاويش عبد الرحيم مؤمنا على حديثه :

— اسم الله عليك ٠٠٠ هم سبب الفساد والبلاوى ٠٠٠ انما الراجل

« الجدع » صحيح هو اللى يعرف يدق مراته على راسها ٠٠٠ تعرف ٠٠٠

انا كان عندى حريم فى البيت ٠٠٠ على الطلاق من دراعى ماكانوا ييصوا
من شبك ولا من باب ٠٠ ماعدناش مسخره أبدا ٠

وهتف تاجر الخردة :

— ونعم الرجال ٠٠٠ مفيش كلام ٠

وخيم الصمت من جديد ، وتناول الشاويش عبد الرحيم عود كبريت
من الخشب وراح يحفر به أسنانه السوداء التى نخرها السوس ، ولكنه
سرعان ما قذف بعود الكبريت الى الارض وقد ظهر الغضب على وجهه بعد
أن سال الدم من فمه ولطخ شفثيه ، ونظر الرجل ذو الملابس القذرة الى
الشاويش فى ألم مقتل ، وفى وجهه يبدو الرياء الشديد والرغبة فى النفاق ،

وهز الشاويش عبد الرحيم رأسه فى غضب وعصبية ومصمص شفثيه أسفا
قبل أن يقول :

- تعرف ٠٠٠ كبريت اليومين دول سم !
وظهرت الدهشة على وجه تاجر الخردة وتساعل مستنكرا قول
الشاويش :

- سم ٠٠٠ ؟!

- أيوه سم ٠٠٠ تعرف كبريت زمان كان فيه البركة ٠٠٠ يا سلام !
وهز تاجر الخردة رأسه مؤمنا على رأى الشاويش وهتف مسرورا :
- كلام حلو ٠٠٠ الكبريت بتاع اليومين دول شغل بره ، كل شغل
بره سم !

وكان القطار قد دخل محطة بنها وأخذ الناس يستعدون للنزول ، ورغم
أن عدد النازلين كان كثيرا الا أن الزحام ظل على أشده والضجة الهائلة
تمزق ما تبقى من أعصاب الناس ، وظهر على الافندى الجالس أمام
الشاويش الضيق الشديد بسبب الزحام ، وكان الشاويش منهمكا فى تجفيف
عرقه بمنديله المحلاوى العريض عندما لح على أسارير الافندى هذا الضيق
الشديد فمال بجسمه الى الامام وقال للافندى بهمس مسموع وكأنه يدلى
اليه بسر خطير :

- تعرف الزحمة دى من ايه ؟

- ولم يجب الافندى ، فواصل الشاويش حديثه قائلا :
- من الانجليز !

- انجليز ؟!

هتف بها الافندى فى دهشة ، اذ لم يكن فى العربية انجليزى واحد ،
وابتسم الشاويش فى خبث من يعرف الاسرار جميعا ، وقال بنفس الصوت
الخافت المسموع :

- أنا مسكت داورية سبع سنين عند الكنوبة ٠٠ تعرف الانجليز دى ، رينا
غضبان عليها .

وهتف بائع الخردة مسرورا :

- الله اكبر ٠٠٠ يا سلام ٠٠ كلام زى الشهد .

وقال الشاويش عبد الرحيم فى كبرياء :

- أمال ٠٠٠ وتعرف غضبان عليهم ليه ؟! هناك الست زى الراجل ،
والراجل ده ولا حاجة !!

وعاد الرجل العجوز الذى طحنته السنون ينصت فى اهتمام بالغ ثم
أخرج علبة نشوق أخذ منها حفنة بين أصابعه وراح يعطس بشدة ٠٠ وأخرج
الافندى منديله ووضع على فمه وقد أدار وجهه الى الناحية الاخرى ، ولم
يترك الشاويش هذه الفرصة تمر دون أن يتحدث فقال للافندى :

- والله مافيه حاجة بتحوش المرض أبدا ، ده كله أمر ربنا ، تعرف أيام
الكوليرا ، كنت أكل بلع من غير غسيل ، ولا اتحقنت ولا حاجة ، دى الحقن
بتجيب العيا !!
وضحك الشاويش عبد الرحيم ضحكة هزيلة قبل أن يستطرد فى
الحديث :

- تعرف أيام الكوليرا دى بقيت أقول اياك تمسح صنف النساء من على
وجه الارض ، كان العالم صحيح يرتاح .
- مضبوط والله ٠٠٠ كلام زى الشهد .
هكذا صاح بائع الخردة وهو يناول الشاويش سيجارة رخيصة من
سجائره ، وبعد أن أشعلها له صاح من جديد :

- ده الستات دول لعنة ٠٠٠

وعقب الشاويش قائلا :

- تعرف ٠٠٠ مش كله !

- أيوه ٠٠٠ مش كله ٠٠٠ مضبوط !

- اسألنى أنا ٠٠٠ حاكم أنا لفيت الاربعتاشر مديرية ، مديرية مديرية ،
فيه ستات تمام ، تصلى وتصوم وتعرف ربنا مضبوط ، انما دى واحدة فى
الالف ، ويمكن فى المليون !
- مضبوط ٠٠٠ فى المليون ، ده أنا كنت أعرف واحدة ست بتضرب
جوزها بالشبشب !

- تعرف ايه ٠٠٠ هو انت شفت حاجة ، بقولك اسألنى أنا ، ده ياما
ناس من النوع ده ، أمال هو غضب ربنا ده من شويه ٠٠٠ ده سيدنا الخضر
قال عليكم بالنساء هم أصل الفساد .

وظهرت النشوة على وجه بائع الخردة وهتف فى ارتياح :
- ياسلام ٠٠٠ ونعم يا عم .
وعاد الشاويش يقول :
- آمال ، دى حاجات مثبتة كلها بس فين اللى يقرأ واللى يسمع .
وقال بائع الخردة فى زهو :
- مضبوط ٠٠٠ أهو ياما ناس بيقرأوا ويكتبوا ، انما فين الناس اللى
تعرف الكلام المفيد ده !

وقال الشاويش عبد الرحيم :
- الكلام ده وغيره ، ياما فيه كلام زى الشهد ، انما طول صنف الحريم
ده ما هو فى العالم مافيش فايده .
وكان القطار قد غادر « منيا القمح » فى طريقه الى « أبو حماد » .
وأخرج الشاويش ساعته الضخمة من جيب سترته ومسحها بمنديلته ثم هز
رأسه فى إعجاب :

- يا سلام ٠٠٠ سواق « جدع » صحيح .
وهتف بائع الخردة :
- من بختنا ٠٠٠
ونظر الشاويش عبد الرحيم اليه نظرة كبرياء وقال فى زهو شديد :
- تعرف ٠٠٠ أهو اللى زى ده تلقاه بعيد عن صنف النساء ، أنا أيام
ماكنت متجوز بصراحة يعنى كنت مش ملتفت لعملى ، دلوقت مابونش .
ومال تاجر الخردة الى الامام وهمس للشاويش وكأنه يلقي اليه بسر
رهيب :

- آمال الست فين دلوقت ؟!
وتنهذ الشاويش عبد الرحيم فى أسى عميق :

- ياه ٠٠٠ تعيش انت ٠٠٠ كانت صاحبة عيا ، وربنا افكرها من
عشرين سنة ، ومن يومها والله ٠٠٠ صمت عن صنف الحريم ده ٠٠٠ من
خمسناشر سنة جيت أجوز تانى ، بنت جماعة من بلانا ، قعدوا يتمحكوا
المهر ايه ٠٠٠ والعفش ايه ٠٠٠ والسكن ايه ، حلفت يا شيخ ميت طلاق من
دراعى ماتجوز ، قلت يعنى حاجيب ايه ، أهى تهمة ٠٠٠ ومن يومها .
- عين العقل ، ونعم الرجال ، أنا راخر وحياتك دلوقت بتاع أربعين

سنة سن انما مافكرتش فى جواز من أى حرمة ، حاكم أنا ساكن مع أمى ،
واحده ست عجوزه تصلى الوقت بوقته وست أخوات ، ولامؤاخذه عايشين
كلنا فى مطرحين ، هاتجوز أودياها فين ؟ كفاية الواحد يدوب يعرف يجيب
لقمة المعيش وبس .

– ريحت نفسك والله من الخوته وعدم الراحة ، تقطع الحريم وإيامها .
وكان القطار قد بدأ يزحف ببطء نحو رصيف محطة أبو حماد ، وعندما
توقف تماما كان الازدحام الشديد قد خف بعض الشيء .
وصعد بعض الناس الى العربى ، عامل وأفندى وبائع كازوزة وأفندى
وامرأة ٠٠٠ امرأة جميلة مشرقة مثل الصباح الجميل ، وهذا الركن الذى
كان يجلس فيه الشاويش عبد الرحيم والأفندى والخواجة ، هدا تماما ، وقد
تسمرت عيون الشاويش وبائع الخردة على الحسن الصارخ الملفوف فى
الغلالة الرقيقة السمراء ، التقت عينا الشاويش عبد الرحيم بعيني بائع الخردة
٠٠٠ كان الاخير يلحق شفقيه ولعابه يسيل من جانب فمه المفتوح .

ومضت فترة صمت قصيرة قبل أن ينهض الشاويش واقفا ليصلح
من هندامه ، وعيناه لا تبتعدان عن المرأة التى وقفت فى ركن قريب ٠٠٠
وأصلح الشاويش عبد الرحيم من الحزام ، ورفع البنطلون الى الحد اللائق ،
وثبت ياقته المنشأة وأحكم تثبيت زراير الجاكتة ، وأخرج منديله المخلوى
الذى كان يمسح به عينيه منذ برهة قبله بلعابه وانحنى حتى الارض فمسح
الحذاء فى همة قبل أن يعتدل واقفا من جديد ٠٠٠ ومر بائع غازوزة ،
فاصطدم بالسيدة فاحتجت ، وثار الشاويش ثورة عنيفة :

– انت يعنى عميت ٠٠٠ مش شايف الست ، صحيح ناس مافيش عندكم
دم ، عالم ايه الزلط دى !

– كلام مضبوط ٠٠ ناس مايختشوش ، وتقدم الشاويش خطوتين الى
الامام وفى يده البندقية والكلبشات على الكرسي وابتسم للسيدة فى حياء :
– اتفضللى يا ست .

وفى حياء مصطنع ودلال ظاهر قالت السيدة :
– اتفضل انت ٠٠ كتر خيرك .
وابتسم الشاويش فى خبث قبل أن يقول :

- ده واجب يا ست ٠٠ اتفضللى انت من الزحمة ٠
و « تفضلت » السيدة وجلست ودار حوار طويل قبل أن يعرف
الشاويش انها فى طريقها الى أختها فى شارع الثلاثينى بالاسماعيلية ٠٠
وانها ستمر من نفس الطريق الذى سيمر به وانه أيضا سيقوم بمهمة توصيلها
الى المكان الذى تريد ٠
وعندما وقف القطار فى محطة الاسماعيلية خرج الشاويش ومعه
السيدة ، فعبرا الكوبرى معا وخرجا من الباب العمومى الى الميدان الفسيح
ثم توقف الشاويش فجأة ولم تنتبه السيدة الا والشاويش يجأر بأعلى
صوته : جاى ٠٠ جاى ٠٠ جاى ٠٠ ثم جرى بأقصى سرعة الى داخل المحطة ،
كانت خاوية هادئة الا من بعض الباعة والحمالين ، والقطار الذى كان هناك
منذ لحظة تركها فى الطريق الى بور سعيد ، وزوج الكلبشات قد نسيه
الشاويش داخل العربة ومعهما « أورتيك » تسليم المجرم فى محافظة مصر ،
وتاجر الخردة اختفى هو الآخر عن الانتظار ٠



مولد الشيخ حمزة



عندما عبر محمود الدسوقي كوبرى شبرا البلد
كانت الشمس قد أخذت تعلو فى الأفق باعثة حرارتها
القوية الشديدة فى يوم من أيام شهر اغسطس القائظة ،
وكان التعب قد استبد به تماما رغم أنه لم يكن قد قطع
من الرحلة الطويلة التى فرضتها عليه الظروف الا
شوطا قصيرا . فهو منذ الصباح الباكر يلهث متعجلا
على الطريق قاطعا المسافة من صحراء العباسية حيث
مقام الشيخ حمزة فى طريقه الى قريته بهنأى
بالمقوفة .

ورغم انقضاء كل هذه الساعات الطوال الا أنه لم يقطع شيئا يذكر ولم تنزل
امامه ساعات اخرى طويلة مملة فى مثل هذا القبط الرهيب . وبسمل محمود
الدسوقي وهو يرفع ذيل جلبابه الاسود الكشميرى ليغطى به رأسه وخطا نحو
اليمين محتفيا بظل الاشجار الطويلة البائسة التى تعرت من اوراقها قبل
الاوران .

وعاد محمود يذكر وهو يحث الخطى على الطريق ما حدث له بالامس . .
الامس !!! ياله من يوم رهيب مر عليه وكأنه عام رغم وجوده على بعد
امتار قليلة من ضريح سيدى حمزة صاحب المعجزات والكرامات التى تدوى
كالطبل فى انحاء المنوفية ، وابتسم محمود الدسوقي رغم الاعياء الشديد
فانفرجت ابتسامته عن فم واسع مهجور . ولثة خربها الداء وسنة واحدة متآكلة

تقف وحدها فى الفم الواسع العريض كأنها شاهد قبر فى صحراء مجهولة الحدود ..

ورفع محمود يده يجفف عرقه بذيل جلبابه دون ان يبعه عن رأسه ثم دس يده فى طيات ملابسه الداخلية حتى لامست ظهره المحدودب وأخذ يهرش فى حركة منتظمة وبصوت رتيب مسموع ، وإزاح ذيل جلبابه قليلا الى الخلف من رأسه ورفع عينه الى السماء وحملق فى قرص الشمس التى بدت كطاقة جهنم ..

واستعاذ محمود من جهنم ومن قرص الشمس ، ثم جال ببصره فى الفضاء الواسع العريض ، كان الهواء لزجا جافا راسيا فى كثافة على مقربة من سطح الارض ، وثمة طيور تطير شاردة نحو الشمال فى بطء ممل ، ثم غص بصره نحو الارض ونفخ فى شدة ، وزام فى اسف عميق ، وراح يتذكر وهو يتدحرج على الطريق الجاف المغبر الطويل ما حدث له .. منذ الصباح الباكر لاول اسس .. وهو نائم كالكلب بجوار الفرن « ومباركة » زوجته تنف له « طرحة » العيش الفمخ ، والخروف بجوار الفرن ليحمل كل هذا فى الصباح للشيوخ حمزة ..

كان النهار قد انبثق والشمس لم تظهر بعد ومحمود يهرول على الطريق الزراعى ساحبا الخروف فى عنت والنوم لم يبرح جفونه بعد ، ومباركة تتقدمه تحمل « مشنة » العيش على رأسها حتى وصل الركب الى النقطة الثابتة ، واكثر من عربة اوتوبيس مرت من امامه وهو لا يستطيع الركوب ومعه الهدية المبروكة لان الكمسارية لم يكونوا سمعوا بعد بسر الشيخ حمزة الباتع ..

ووصل محمود أخيرا الى القاهرة قبل الظهر بقليل ، وقطع المسافة من شبرا الى العباسية على قدميه و « المشنة » فوق رأسه والخروف يسحبه بحبل طويل عاقله فى رقبته وقدميه ..

وعندما وصل الى المولد لم يكن هناك خلق كثيرون ، كان الحر شديدا مرهقا ، والشيخ حمزة الصغير ممدا على السجادة العجمى الفاخرة ومن حوله بعض المريدين الذين ظلوا على ولائهم للشيخ الصغير بعد ان انتقل الشيخ حمزة الكبير الى مولاة ، وضريح الشيخ الكبير يتضوع عبيرا ونورا ، والمكان كله يعبق برائحة البخور ، ودار رأس محمود الف مرة قبل ان ينادى على الشيخ حمزة ، وهكذا نهض الشيخ من مجلسه متاثقا ومن خلفه مريدوه

حتى وصل الى محمود فلم يتمالك الاخير نفسه فانكب على يده مقبلا اياها قبلا
سريعة متلاحقة ٠٠

وهكذا اقلت الخروف من يد محمود وشرى فى الصحراء الواسعة ، وساعة
كاملة ومحمود يجرى خلف الخروف المشارد متوسلا بطوب الارض « حلق
يا جدع ٠٠ امسك يا خويا » والشيخ حمزة ومريدوه يشرفون على عملية
المطاردة حتى استطاع محمود ان يمسك بالخروف بعد ان فقد ما تبقى فيه من
جهد قليل - وسحب الخروف من اذنيه حتى سلمه للشيخ وعلى شفثيه ابتسامة
عريضة استطاع ان ينتزعها فبدت صفراء باهتة لا معنى لها ٠٠

وهمس الشيخ فى أذن واحد من المتقين حوله وسرعان ما ظهرت بالقرب
من المجمع المحتشد عربة فارهة نزل منها سائق حمل الخروف داخلها ثم انطلق
بها مثيرا خلفه غبارا شديدا آذى عينى محمود رغم انه كان وقتئذ مطرقا الى
الارض فى حياء شديد ٠

ولم يدر محمود اين ذهب الخروف ولكنه عرف مصير « المشنة » فقد
دخل بها رجل عجوز مخترقا الساحة الكبيرة الى ركن قصى حيث يقوم بعض
الرجال بالطبخ على قدم وساق لتجهيز العشاء للوافدين من الريف والمدينة
لاحياء الليلة الكبيرة لمولد سيدى حمزة ، وعندما رفع محمود عينيه الى اعلى
لم يجد الشيخ ولا احدا من مريديه ٠٠ فحمد الله فى سره لانه كان يود الجلوس
ليستريح ٠٠

وجلس محمود قليلا على الرمال الناعمة الباردة حول الضريح ٠٠ ولكن
قلبه كان يأكله لزيارة اخيه فى القلعة ، لم يكن له سواه ٠٠٠ وقد هجر
القرية صبيا وجاء الى المدينة واشتغل صبى بقال وموزع عيش « فينو » ابيض
ثم خفير ثم نشبت الحرب فكون نفسه واستطاع ان يمتلك لنفسه بيتا وان يتزوج
واحدة من مصر طويلة وبيضاء مثل الجير ولم يعد بينهما اتصال الا فى مثل
هذه المناسبات القليلة ٠٠

وخلع محمود نعليه ودخل الى الساحة الكبيرة ومن ثم انفلت الى ضريح
الشيخ حمزة فقرأ الفاتحة مرات مترحما على والديه وعلى اموات المسلمين
جميعا ، ثم دار حول الضريح مرات متمتما ببضع امنيات ساذجة ثم دار حول
الضريح من جديد قبل ان يغادر المكان كله وهو يمسح وجهه بيديه فى طريقه
الى القلعة ٠

ووصل محمود الى منزل اخيه بعد العصر بقليل فتوضأ وصلى العصر ثم
لقى عليه اخوه عدة اسئلة قصيرة عن البلدة وحال الذين فيها اجاب عليها محمود
فى اختصار شديد ، ثم قص على اخيه وهو جالس القرفصاء يتناول طعامه
من بقايا طعام الامس قصته مع الخروف فى البلدة عند الفجر وفى صحراء
العباسية عند الظهر ، وبان الغضب الشديد على وجه اخيه وهو يستمع اليه
ثم صرخ فى وجهه مؤنبا :

- انك اولى بهذا الخروف ، هل اكلت حتى حمدت الله وشربت حتى
ارتويت ، ثم لم يبق الا موالد الاولياء واضرحة المشايخ ، ستعيش وتموت
« فلاحا » لا تفهم حال الدنيا وكيف تسير الان ..

ورفع مبروك - وهذا اسمه - ساقيه وضم يديه حولهما على هيئة دائرة
وعاد يصرخ فى محمود ..

- انظر الى ، هل ارسلت شيئا ، هل ذبحت دجاجة .. لماذا لا تفعل
مثلما افعل ، او انك تفعل هذا لكى يقول الناس « والله محمود راجل عال
وعمدة » ، لماذا لا تعيش فى حدودك ايها الابله ثم وهرش مبروك فى
انفه قبل ان يقول :

- ثم اخوك .. ليس اولى من الشيخ حمزة ، هل يأكل الشيخ حمزة ..
هل يشرب .. ان اولاده فى بحبوحة من العيش . فابنه حمزة الصغير مدير
فى الوزارة والاخر طبيب والثالث ضابط بوليس والرابع فى الجامعة ، وانت ؟
لا شئ ، لم يكن عندك سوى الخروف وقد سحبته بنفسك للشيخ حمزة .

ورد محمود فى خوف شديد من كلام اخيه الذى يبدو معقولا الى حد ما رغم
ما فيه من كفر شديد ..
- اصله نذر علينا ..

- نذر .. هكذا صاح مبروك فى تهكم لاذع .. ومن قال لك انذر شيئا ..
لا يكلف الله نفسا الا وسعها ، اراهن انك لم تأكل اللحم طول العام وجلبابك
تملؤه الثقوب وكأنه غريبال ، لقد هرمت وييسرت واصبحت جلدا على عظم
وستموت قبل الا وان ، ولكن لك ان تفعل ما تريد فلن أنصحك حتى تموت .
وتوقف محمود عن ازدراد الطعام الذى امامه رغم انه كان يحس جوعا

يمزق احشائه ، وجذبت زوجة اخيه غطاء رأسها الى الامام حتى لامس حاجبيها وقالت فى لهجة مضغوطة وكأنها تتحدث من انفها .

— اكمل اكلك ، والا الكلام اللى فى صالحك يزعل ، احنا مالناش دعوة ، كل واحد عقله فى رأسه يعرف خلاصه . ثم قامت فغادرت الحجرة على الفور ، وظل الرجلان صامتين كأنهما تمثالان من النحاس حتى بعد ان نهض محمود وغسل يديه ثم عاد ولبس الحذاء وتأهب للخروج ، ولم يحاول اخوه ان يستبقيه بل مد يده فى فتور بورقتين من فئة العشرة القروش دسهما فى يد محمود الذى طوى اصابعه الخمسة عليهما على الفور ، ودون ان يستدير لمواجهة اخيه فتح الباب فى هدوء وانصرف عائدا الى العباسية .

وصل محمود الى ساحة المولد فى المساء . كانت الانوار تتلألأ من بعيد وصوت مرتل التواشيح يدوى فى الميكروفون ، وخلق كثيرون يحومون فى الساحة الكبرى فى ملابس بيضاء ، والليله الختامية تبدو عامرة جميلة لائقة بمقام الشيخ حمزة الكبير . وصادم محمود فى احلامه عن « العشوة الطيبة » التى كان يمنى نفسه بها ، فقد قدم العشاء منذ الساعة الخامسة وظل الجميع يأكلون حتى الثامنة مساء والذين حضروا بعد الثامنة لم يقدم لهم شئ فجلسوا فى الساحة الكبرى حول الضريح يزفرون وقد فترت حماستهم للمولد وراحوا يتحدثون فى امور شتى متصلة اتصالا وثيقا بالمعاشيش والارزاق ، وافترش محمود الارض وسط مجموعة من قرى مختلفة بالمنوفية جمعتهم الليلة المباركة ، وكان الحديث يدور كله حول كرامات الشيخ حمزة وكيف ان خلقا كثيرين حضروا الليلة من بلاد بعيدة واكثرهم ممن لم يكونوا على اتصال به فى حياته التى امتدت عشرات السنين .

وراح كل منهم يتحدث عن كرامات الشيخ التى سمع بها والتى رآها بنفسه . وكان يتزعم الجميع الشيخ حسنين فهو اعلمهم جميعا بكرامات الشيخ ، فهو ينيف على السبعين وكان من الواصلين على الشيخ ومن صحابته المفضلين . وذكر الشيخ حسنين واقعة حدثت فى صباه وكانت فى مولد الشيخ معروف والد الشيخ حمزة الكبير وكيف ان الالف المؤلفة التى هرعت لاحياء الليلة اكلت حتى شبت من خروف واحد و « مشنة » عيش واحدة لان يد الشيخ حمزة كانت مبروكة بفضل الله . وتلمل محمود فى جلسته وهو يستمع لفضائل الشيخ حمزة الكبير ، وتحسر لانه ليس حيا الان ، اذن لاستطاع محمود ان يتناول عشاءه فلا يعانى

عضة الجوع كما يعانيتها الان ، وفكر محمود في أن يشتري شيئاً يأكله ، ولكن كل ما معه ثلاثون قرشاً ، سيركب بعشرة ، والريال سيقطع به جلباباً للولد سيد ، وهو يستطيع ان يصبر حتى الصباح وسيصل القرية في الضحى ويستطيع ان يأكل هناك ما يريد .

وكان الحديث بين المجموعة قد انتقل من واحد الى آخر وصمت المجلس كله بعد ذلك ، وطالت فترة الصمت ، وكان الجوع قد نال من الجميع فاضطجعوا على الرمال يحدقون في النجوم .. وفجأة هتف محمود بصوت غير مسموع .. وكأنه لم يكن يقصد ان يقول .. « انا جيت خروف النهاردة » .. وانتفض جاره عبد المقصود وشب على ركبتيه وقد مال بجسمه الى الامام مستنداً بيده اليسرى الى الرمال وهتف صارخاً في وجه محمود :

— بتقول ايه ؟

وهرش محمود قفاه قبل ان يقول وكأنه يعتذر عما قال :

— ده نذر علينا ، خروف لامؤاخذه سمين .

وخطب عبد المقصود كما بكف وهو يلعن كل شيء ، ومع كل شيء هذه اجداد الذين نسلوا محمود منذ عهد آدم الى اخر الزمان .

— بقى خروف يا بغل وقاعد بطنك تصوصو من ..

ولم يواصل عبد المقصود حديثه ، فقد أقبل الشيخ حمزة عليهم فوقفوا جميعاً ، ونظر الى كل واحد منهم بعينيه الناعستين الجميلتين ، ووجهه الاحمر السمين المستدير وبشرته الناعمة اللامعة الحمراء ، ومد يده البضة المشربة بالحمرة فاخترطفها محمود بسرعة وطبع عليها قبلة طويلة وسأل الشيخ وعلى شفتيه ابتسامة مضيئة :

— عسى ان تكونوا في خير حال ، وان يكون العشاء قد قدم لكم جميعاً ، فان الدنيا « هايصة » كما ترون ، وهذه ليلة مباركة نسأل الله ان يعيدها عليكم بالخير والبركات .

وزام عبد المقصود ولم يتكلم ، وهرش الشيخ حسن قفاه وتحول

الآخرون يبحثون فى الرمال عن احذيتهم أو عن شىء آخر عليهم يكونون قد نسوه هناك ، وتولى الاجابة محمود فهتف صارخا :

— الحمد لله ، خير الله كثير ، وبركة الشيخ كثيرة .

وانصرف الشيخ بعد ان اعلن الجميع عن اقتراب موعد « حضرة » الذكر ليستعدوا لها ..

وأقبل الجميع على ساحة الذكر ، وانفلت محمود بعيدا فأخرج القروش الثلاثين وعدها اكثر من مرة ، ثم اختار لها مكانا فى السروال عند الجنب الايمن ، ومن ثم اتجه الى حلقة الذكر فأخذ مكانه وراح يتطوح فى حركات منسجمة مع الصف الطويل من الرجال ، وكان الجوع والارهاق قد هدا كيانه وسلبا حيويته وقدرته على حركات الذكر ، ولكن ما ان مر الوقت ومست الجميع الرحمة الربانية ، وطفا الزبد على افواه البعض وتدفق العرق غزيرا من جباه الرجال حتى اندمج محمود هو الآخر وذاب فى الذكر حتى نسي متاعبه تماما .. حتى أنه بعد ساعة من الزمان سقط مغشيا عليه فلم يبق الا فى الصباح .

وتذكر محمود ما حدث له فى الصباح وهو يسير على الطريق الزراعى الطويل عند قرية سنتريس عندما فتح عينيه وكانت حرارة الشمس حامية والصحراء قد تحولت الى جهنم وهو نائم فى مكان يبعد عن حلقة الذكر مسافة طويلة والسكون يشمل كل شىء ، سكون عميق كثيف وكأنه ضباب ، حتى ان محمود قد ضرب رأسه بيده ليتأكد أنه مازال على قيد الحياة ورويدا رويدا بدأ يفيق وبصره يميز الاشياء التى من حوله .. الخيمة مازالت مكانها واثار ليلة الامس تبدو واضحة .. قصاصات ورق كثيرة تتحرك وكأن فيها حياة حين يهب عليها نسيم الصحراء الساخن الجاف ، وفردة حذاء مقلوبة ، وطاقيّة صوف مدفونة فى الرمال واثار اقدام حافية على الطريق بين الخيمة والضريح ، والشيخ حمزة واقف وسط مجموعة من العمال يناقشهم فى صوت مسموع حول اجر الميكروفون والكراسى القטיפيّة التى خصصت للمقرئين والضيوف العظام .. ودس محمود يده فى طيات ملابسه يتحسس جسمه الذى لم ير الماء منذ شهور ، ومست يده نفس المكان الذى اودعه بالامس القروش الثلاثين ، ثم هب واقفا وكأنها لدغة ثعبان .. ومن

اجل البحث عن الثروة الضائعة خلع محمود الجلباب والفانلة ثم خلع السروال ، ووقف وسط الصحراء « بلبوصا » يفتش في كل خرق عن القروش التى ضاعت مع ليلة الامس ومضى أكثر من ساعة ومحمود يجار بأعلى صوته وهو يلطم خديه دون مجيب ، حتى خيل اليه ان من كرامات الشيخ حمزة الصغير ان اذنه لا تلتقط مثل هذه الاصوات التى نهى عنها الله كما قال الشيخ نفسه عندما ذهب اليه محمود يشكو ماحدث له :

— اسمع يا محمود .. ان ما يفقده الانسان ما هو الا تكفير عن سيئات ارتكبها المرء دون ان يشعر وربما هو تعويض لمال حرام اكتسبه الانسان دون ان يدري بمصدره ، والدنيا على حالها منذ الازل فى اخذ وعطاء ، وما ضاع اليوم قد يأتى به الغد وتناول محمود يد الشيخ فقبلها وعبرة يتيمة تنحدر من عينيه الى جانب فمه المفتوح فى ذهول .

واختطف الشيخ يده بسرعة ودسها فى جيبه وهو يعيد باقى النقود التى نقدتها للعمال اجرا عن الكراسى والميكروفون وهتف بصوت مسموع .

— عاوز فلوس ولا حاجة يا محمود .

وهتف محمود فى صوت عاجز .

— متشكر يا سيدى الشيخ انا رايح لاخويا .

واتجه الشيخ فى خطوات واثقة مطمئنة الى عربة كانت تقف الى جانب الطريق واختفى داخلها وسرعان ما اختفت هى الاخرى عن الانظار ، بعد ان اثارت خلفها زوبعة من الرمال آذت عينى محمود . واكتشف محمود وهو يبتلع حسرته انها نفس العربة التى حملت الخروف بالامس .

واستدار محمود وذيل جلبابه على رأسه فى طريقه الى القلعة .. الى اخيه .. وطافت برأسه وهو يسير مسرعا فى شارع الجيش ذكرى المقابلة الفاترة وبقايا الطعام البائت ، الكلام الموجه والنظرة المتحفزة ، والتهكم اللاذع ، وارتعش بدن محمود وهو يذكر كل هذا .. وكانت القلعة تقف شامخة أعلى الجبل وتبدو لعينه وهو واقف فى صرة العتبة الخضراء يرنو اليها من بعيد والافكار المزعجة السوداء تتزاحم حوله وتسد عليه

الطريق الى هناك ، واستدار محمود الى الخلف الى شارع كلوت بك الى
شبرا البلد على قدميه .

كانت الشمس قد مالت للمغرب ، ورائحة الارض الطيبة السوداء تملأ
خيائسيمي ، ونقيق الضفادع أخذ يعلو في الجو ، وعواء نئاب جائعة هائمة
وسط الحقول يأتي من بعيد ، ونباح كلاب متحفزة يحمله الريح من الضفة
الآخري للنهر .. ومجرى الرياح المتوفى يتدفق عميقا باردا مخضرا مسرعا
نحو الشمال حاملا على صفحته كميات هائلة من العشب والنخيل .

واذاح محمود جليابه عن رأسه ، وانحدر الى الضفة النهر ثم
انحنى يشرب بقمه من المياه الجارية وهو ينخر كالحصان .. ثم ارتقى
الى « بهناى » على بعد خطوات من مكانه وهو يتلو الفاتحة في همس على
المنحدر من جديد وهو يمسح بيده رأسه ورقبته ، ورفع رأسه ينظر
روح الشيخ حمزة ، وساقاه النحيلتان تسرعان الخطى حتى اختفى داخل
مسارب القرية الضيقة ..



خواجات شاع الهرم



تذكر الناس في قرية « نكله » قصة حسن أبو سويلم
و « الخوجاية » في تلك الليلة الباردة من ليالي الشتاء ،
مع أنهم كانوا قد نسوها منذ أعوام ٠٠ وكانت المناسبة
التي ذكرتهم بالقصة هي موت حسن بعد أن اعتكف طويلا
في المصلية التي على حرف النهر .

وعندما تهادى نعشه في المساء وسط المصابيح والمشاعل ، وقف الناس
الذين كانوا في المقهى رافعين أصابعهم متممين بالشهادتين على روح الذي
في النعش ٠٠ فقد كان صديقا لهم في أيام بعيدة ، يوم أن كان يجلس على
المقهى ويحكى قصة الخوجاية البيضاء التي سلبت عقله في شارع الهرم ٠٠
وكان حسن قبل أن يموت يعمل في الجمعية التعاونية وقبل ذلك كان في مصر ،
ولم يدر أحد من أهل القرية ماذا كان يفعل هناك ، ولكنه قبل ذلك كان يسرح
خلف الجمل طول النهار من القرية الى المدينة وبالعكس .

وأصل القصة أن حسن كان يسير خلف الجمل ذات صباح في طريق
الهرم في طريقه الى « نكله » عندما وقف فجأة راشقا العصا المشمش الرقيقة
بين جلد ظهره وجلبابه الازرق الرقيق ، وراح يهرش بقسوة مخترقا ظهره
طولا وعرضا ، حافرا بطرفها المديب قنوات وسط العرق والطين وظل عشر
دقائق وهو يهرش هرشا متصلا محركا أكتافه خلال عملية الهرش ملتقطا
أنفاسه بسرعة وهو يلهث كالكلب ، مغلقا عينيه فاتحا فمه من اللذة التي تجتاح
جسده كله ٠٠

ولم يكن في نيته أن يكف عن الهرش أبدا ، لولا أن الجمل ترك الطريق منحرفا نحو المزارع فجرى خلفه ، وعندما استدار به نحو الطريق العام استوقفه ثلاثة اشخاص : « خوجاية » ورجلان معها ، ظلوا ينظرون الى الجمل فترة طويلة ، وهم يحومون حوله وكأنهم لم يروا مثله من قبل ، والست « الخوجاية » تربت عليه في حنان ، وحسن واقف خلف الجمل وكأنه ليس موجودا في نظر هؤلاء الناس . والتفتت الخوجاية الى حسن أخيرا ، وطلبت اليه بالإشارة أن يسمح لها بركوب الجمل برهة ، وشمر حسن عن ساعديه ، ورفع الخوجاية من وسطها الى أعلا ، وأزاح الهواء فستانها الرقيق فكشف عن جسدها ، أفخاذ ممتلئة جميلة شديدة البياض والاحمرار . ورائحة نفاذة لم تدخل خياشيم حسن من قبل . تفوح من الجلد الناعم الرقيق مثل الفستان الذي يغطيه .

ودارت الأرض بحسن فلم يستطع أن يرفع الخوجاية الى أكثر من هذا ، وعندما هوى بها الى الأرض ، ارتمت على صدره فاحتضنها ، وأحس بصدرها الناهد وشعرها الاشقر الناعم ووجهها الذي يطغح دما وجمالا . ولم يستطع الوقوف على قدميه بعد ذلك . وأحس رغبة في الجلوس ، فجلس متعبا على الرصيف يلهث كقطعة تلد !

وصعدت الخوجاية على ظهر الجمل بمساعدة الرجلين ، ثم لم يلبثوا طويلا حتى ذهبوا تاركين في يد حسن ورقة من فئة الخمسين قرشا وسعادة تغمر كيانه وترعشه .

ولحق حسن شفتيه وهو يسيير خلف الجمل والدنيا لا تكاد تتسمع له فى طريقه الى قريته « نكله » ويداه معلقتان على طرفى العصا من خلف عنقه وتمنى لو أن معه خوجاية من هذا النوع فيغلق عليها وعلى نفسه بابا المندرة ، فلا يأكل ولا يشرب ولا يعمل ، وهو واثق تماما أنه معها لن يموت ، وقفزت الى ذهنه صورة زوجته « لظيمة » فانقبضت نفسه وعاد يهوى بالعصا من جديد على ظهر الجمل حتى وصل الى القرية ، وعشرة ايام مرت عليه في قريته لم يغادرها وهو جالس على الدكة أمام المقهى عند حرف التربة يحكى للناس قصة الخوجاية البيضاء التى فى لون العسل والحليب والناس تسمع وتضحك وهو يروى التفاصيل ، كيف رفعها بذراعيه ؟ وكيف طار الفستان الحريري ، وكيف ظهر الجسد الباتع اللين الاملس كالحرير ، وكيف أصابه

الدوار ٠٠ و ٠٠ و ٠٠ ثم يسكت حسن فجأة كلما قصها مرة ٠٠ وهو يعرض على شفتيه ، وفي آخر الليل كان يجمع طرف جلبابه بين أصابعه الخمسة وهو يزوم كالذئب السلوخ ويشيح بيده في وجوه الحاضرين وملء أشداقه عبارة واحدة :

— روحوا ٠٠ داحنا متجوزين غفر !

ولم يمض أسبوعان حتى طلق حسن زوجته ، وتفرغ للجلوس على المقهى ، رافضا العروض الكثيرة التي عرضت عليه لنقل المحاصيل بالجمل الى المدينة مكتفيا بالهرش فى ظهره بطرف العصا ، ورواية قصة الخوجاية البيضاء لكل من يقابله في الطريق .

ومضى شهر وتزوج حسن فتاة بيضاء فى لون البفطة ، نحيلة مثل العصا المشمش التى لا تفارقه ولكن الذين رأوه ليلة الزفاف أيقنوا من سعادته لعرض الابتسامة التى احتلت فمه ، وانقطع عن المقهى ، وذهب بالجمل الى المدينة وإلى القرى المجاورة ، والزوجة الجديدة تخرج الى الحقل ، فان حسن يملك قيراطين ووقته لا يسمح له بالتفرغ لزراعتهما ، ومرت شهور ، وأصبحت الزوجة سوداء كغيرها من النساء فى القرية ، وكون الطين والتراب والعمل الشاق الطويل طبقة جديدة نحاسية اللون فوق وجهها ، وعاد حسن الى المقهى يحكى من جديد قصة الخوجاية فى شارع الهرم ، مضيفا للقصة فصولا جديدة : كيف مالت هى عليه ؟ وكيف ربتت على خده ؟ ومسحت بشفتيها على جبينه العريض ؟ ولم تمض أيام كثيرة حتى طلق حسن زوجته ، وفي آخر كل ليل يلعن أجداد الحاضرين وأذواقهم الفامدة .

— دانتم متجوزين حدايات .

ومرت شهور طويلة وأصدقاؤه يهمسون فى أذنه بأسماء العذارى فى القرية ، وحسن لا يعجبه أحد ، ولا ترضيه واحدة منهم على الاطلاق كلهن غربان وكلهن « غفر » ! ولكن ثلاثة أرادب قمح كان ينقلها بالجمل من قريته الى المنصورية ، غيرت رأيه وزحزحته عن مكانه فقد وجد ضالته فى المنصورية ، عذراء صغيرة فى الخامسة عشرة بيضاء جميلة ، شعرها ناعم طويل ، وعيناها واسعتان ، تعرف القراءة أيضا ولا تعرف كيف تعمل فى الغيط ، وفى نفس المساء تزوجها حسن ، ثم عاد بها

الى القرية بعد أيام ، واقتقد رواد المقاهى حسن ونسوا قصته ، فقد باع
الجمال وهجر القرية كلها ، وذهب الى القاهرة مع زوجته الجميلة ، وعثا
حاول حسن أن يجد عملا ملائما ولكنه لم يستطع ، وثمان الجمل يتبخر من
بين أصابعه حتى لم يعد معه شيء وتقطع رقبة حسن ولا يعود الى القرية ، انه
يستطيع ان يزحزح جبلا من مكانه ، انه قوى كالثور ، فليزحل الى الميدان
بقوته ٠٠ وفي ميدان المحطة وقف حسن يرفع الحقائق على كتفيه ، ويخطف
رجله ليحضر عربة ويدخل جيب حسن كل يوم من مطلع الشمس حتى آخر
النهار خمسة عشر قرشا ، المهم انه يأكل وزوجته تنام شعبانه والحياة تمضي
به وبها ، وهو في غير حاجة الآن الى مواجهة الفشل ونظرات الناس في قرية
« نكلة » ، واحتمل حسن كل شيء في سبيل البقاء في القاهرة والاحتفاظ
بزوجته ! وأيام كثيرة اسود من الخروب مرت عليه ، ولا يأكل ولا يشرب ،
يشاغب الشياطين ، وعساكر البوليس ، وأحيانا المسافرين ، وعرف حسن
الطريق الى القسم ، ونام على أسفلت الحجز ، والزوجة الصغيرة يشحب
لونها وتنحل ، والصفرة تضرب في وجنتيها وتحت عينيها وعظام صدرها
تبرز الى الامام ، وعنقها أصبح كحبة السمسم وهى تبصق دما كل صباح ،
وحسن يرى ولا يعرف ، ثم لم تلبث ان ماتت ذات مساء ، وعاد هو الى
« نكلة » ، فقد وجد مبررا لعودته الى هناك ، وعاد رواد المقهى التي على
حرف الترعة يلتفون كل مساء حول حسن وهو يروي لهم قصة الخوفاية
البيضة التي فى لون العسل والقشدة واللبن الحليب ، وأصبح فى جعبة حسن
قصص كثيرة عن « الخوجايات » فى مصر ، وكلهن جميلات ، وكلهن مثل
العسل والحليب ، وهن يسرن فى الطريق ، أنصاف عرايا وأذرعتهن
كالفطير ، وأرجلهن كالسمن وأصواتهن ٠٠ يا مغيث !! واشتغل حسن
فى الجمعية التعاونية ، يحمل الكيماوى على ظهره من الجمعية الى
البيوت ، وفى الليل كان أمامه متسع للقصص عن خوفاية شوارع
الهرم ، وخوجايات مصر كلهن ، حتى التقى ذات مساء فى المقهى
بجندى بوليس يعمل فى نقطة « نكلة » منتول حديثا من مصر ، شاب فى حوالى
السادسة والثلاثين متوسط القامة شاحب اللون ، فمه مفتوح دائما عن
أسنان ذهبية ، وجد حسن فيه شيئا ينقصه ويشير فقد كان يتحدث دائما عن
مغامرات نسائية قام بها فى البندر وفى الريف ، وفى كل مكان ذهب اليه ، وفى
جيبه عدد من صور النساء وكلهن بيضاوات وجميلات وسمينات أيضا ،

وريق حسن يجف كل مساء وهو ينظر الى الصور الكثيرة وكأنها أوراق
كوتشينة ، مدققا النظر في الملاءة اللف ، والآخرى الاسبور ، والثالثة الفلاحة
والرابعة والخامسة ، وحسن مشغوف به وبصوره حتى أصبح يقلده في
حركاته ، ويختار نفس لون الجلباب الذى يلبسه عسكرى البوليس في أوقات
الراحة ، وأصبح جيب حسن هو الآخر عامرا بصور كثيرة لشادية وماجدة
وفاتن حمامة ، اشترأها جميعا من مصر في مشواره مع العسكرى الصديق
وتسائل العسكرى مرة عن سر عزوف حسن عن الزواج ، وكان الجواب
أنه لم يعثر على بنت الحلال بعد ، ورشق العسكرى أصبعه في أنفه ثم في
فمه ، ثم خبط براحة يده على فخذ حسن ثم هتف قائلا :

— واللى يجيبك بنت الحلال ؟

وأجاب حسن بسرعة متسائلا في الوقت نفسه :

— بيضة ؟

— وشعرها طويل ، وحاجة عال العمال .

وخطف حسن رجله الى مصر مع العسكرى ورآها وجلس معها ، بيضاء
كالنهار ، وجميلة ، وسمينة كالعجل البناتى ، وتعمل خادمة في بيت أحد
الاثرياء ، وليست عبيطة مثل الفلاحات ، وقال حسن عال ، ورد العسكرى
مبروك .. وأخذها حسن في ذراعه وعاد الى نكلة . ولم يعد أحد يراه في
المقهى ، أصبح من بيته الى عمله ، وجلبابه دائما نظيف ، والمداس لا يبارح
تقدميه ، والترعة تستقبله كل صباح وأصبحت سهرته في نطاق ضيق ، مع
العسكرى في الليل عند حرف الترعة يشربون أقداح الشاى ويدخنون كراسى
المسل بالحشيش ، وأغلق باب المندرة في وجوه الجميع ، لم يكن أحد
ليستطيع الدخول في المندرة الا العسكرى ذو الاسنان الذهبية ، فهو تقريبا
ولى امر العروس وهو وكيلها أيضا فى صيغة العقد ، وحسن نشوان بالزوجة
الجديدة ولا يسمح لها بالعمل فى الغيط ولا فى البيت ، ولولا العيب لطبخ
حسن وكنس المندرة ، وأعد الفراش وغسل الغسيل كله ، وجلباب واحد
عند حسن وعشرة عند زوجته ورطل اللحم يأكل منه قطعة وزوجته تأكله
كله ، وهى تأمره وهو يطيع ، وأحيانا تحدث المناوشات بينها وبينه ، الجيران
يتسمعون من خلف الجدران ، وصوته خفيض ذليل ، صوتها يلعلع بالشتائم
وأحيانا ترن الصفعات على قفاه وهو صامت وربما سعيد ، وحسن يكسب

كثيرا من توصيل الكيماوى للمنازل فأصبح يعمل اليوم بطوله والمكسب لفتحية ، وأيام الاسواق يقترض حسن حمارا من القرية ويعود ومعه ربطة فى حجم شوال الكيماوى مناديل مزينة بالترتر وقطع طوب حمراء اللون لفسيل الكعبين ، وكحل ولبان وبخور ، والعسكرى معه يشتري له أرخص قليلا ويفسح له الطريق وينتقى له الالوان والانواع ، وحسن يصفق برجليه ويديه فرحا للحظ الذى هبط عليه من السماء ، الزوجة الحسنة والخل الوفى وذات مساء وكان حسن فى قرية مجاورة ، وعاد بعد العشاء بقليل وعندما انحرف الى داخل الدرب الذى يقطنه وأصبح الى جوار الشباك ، سمع صوتا وهمسا فى الداخل رغم أن الظلام كان يسود المكان وتوقف حسن قليلا ينصت الى الذى يدور فى الظلام ، وسمع حسن ضحكا ومزاحا وتبين صوت العسكرى وصوت زوجته ، وفكر حسن ماذا يفعل . . ثم لم يلبث أن انتحى جانباً فى الدرب وجلس على حجر كبير لا يدري ماذا يفعل . . وأكثر من مرة وحسن يهيم بالدخول الى المنذرة ، ولكن شجاعته تخونه وقدماه تعودان به الى حيث كان ! وأربع ساعات طوال وحسن مسمر مكانه يرسم على الارض اشكالا مختلفة بعصاه المشمش الطويلة ، ثم فجأة برز شبح فى الظلام خارجا من المنذرة ولم يكن سوى العسكرى فى جلبابه الازرق المخطط بأقلام عريضة بيضاء ، ووقف العسكرى يتلفت حوله ، ثم مضى فى طريقه الى التربة ودخل حسن بعد دقائق ! كانت زوجته نائمة ، وعلى وجهها تبدو نشوة وسعادة لا حد لها ، وقد زينت بمنديل جديد ، وفى عينيها كحل غامق ، وكعباها نظيفان من أثر الدعك الشديد ، وأيقظها حسن فى قسوة ، ولكنها عندما استيقظت لم يستلح أن ينظر اليها ، وجلس حسن أمامها وهى نصف نائمة ممددة فى ارتخاء لذىذ . . . وسألها حسن فجأة دون أن ينظر اليها :

— مين اللى كان هنا النهاردة ؟

وردت هى بعد فترة :

— مفيش حد .

وعاد هو يسأل وهو لا يقوى على النظر اليها :

— مفيش حد يعنى ايه ، آمال توفيق العسكرى كان بيعمل ايه ؟

وردت هي مستنكرة :

— توفيق العسكري ده ايه ، مش صاحبك ، وانت اللي داخل معاه خارج معاه ، كمان ده راخر ، والنبي تتمسى كده وتنام ، انت باين عليك سكران .

وبسرعة عجيبه لهنها حسن بكفه على صدغها ، ثم انهال عليها بالصفعات واللكمات وهى ترد له الصفعات وتعضه فى ذراعه .

واستيقظ الجيران على الاصوات المنبعثة من مندره حسن وضاع الطرق الذى استهدف له باب حسن ولم يفتح ليلتها لاحد ، وخرج حسن فى الصباح الى الجمعية التعاونية ، ووجهه يبدو عليه الاجهاد الشديد ، وعيناه حمراوتان بلون الدم ، وجلبابه ممزق ، حتى المداس نسيه فى المندره ، ولم يحمل على ظهره جوارات الكيماوى ولم يشرب الشاى كما اعتاد ، بل جلس يرسم على الارض اشكالا بطرف عصاه المشمش التى كان يضرب بها الجمل ويهرش بها ظهره فى الزمن الذى مضى ، وتحسر على الزمن الذى طواه لاهثا منذ اعوام ، وعلى المعروف الذى قدمه للدايخة التى كانت تعمل خادمة فى مصر وفكر فى طريقة للانتقام من توفيق العسكري ، وفكر فى ان يقتله ، او يذهب الى المديرية وينقله الى مكان بعيد ، او يطلق زوجته ، او يذهب اليه فى منزله ويضربه ويفضحه ، ولكنه أسف بينه وبين نفسه لعجزه عن الانتقام ، فتوفيق قوى ، وهو عسكري أيضا يستطيع ان يؤذيه . يهرش بقسوة كما كان يفعل من قبل ، وأحس بالنشوة تسرى فى كيانه ، ثم خطر له ان يهجر القرية قبل ان يستيقظ الناس ليتوارى عن عيونهم ، ولكنه لا يملك شيئا ، وليس أمامه ما يفعله اذا هرب ، والتجربة البشعة التى مرت به فى مصر مازالت ماثلة لعينيه ، ولعن حسن مصر والخوجاية والشيطان الذى القى بالعسكري فى طريقه ، وتمنى لو يستطيع استرضاء زوجته فترضى ، وتمر الايام فينسى وتنسى ، ثم يأخذ حذره بعد ذلك ، فيقاطع العسكري ، ويحرص على زوجته ، كانت الشمس قد ارتفعت فى الافق والاف فكرة تطوف فى رأس حسن والعصا المشمش فى يده يرسم بها على تراب الطريق الزراعى رسوما مختلفة وخطوطا متشابكة ، وفجأة برز توفيق العسكري من عند القنطرة مهرولا بجلبابه وعلى وجهه يبدو الشر العنيف ، وابتسم حسن ابتسامة بلهاء

عندما اقترب منه توفيق والشرر يتطاير من عينيه ، ومن أنفه ينبعث دخان كثيف وفكر حسن في أن يطلق ساقيه للريح هاربا من القرية ، ولكنه لم يستطع حتى تحريك أصابعه الضخمة ، ولم يتحدث توفيق ولم يفتح مجالا للمناقشة ، بل انهال على رأس حسن ووجهه باللكمات ، وركله في بطنه بالحذاء وهو يزمجر أثناء ذلك كله :

— تفضحنى وسط الناس يا ابن ...

وحسن يصرخ ويستنجد بطوب الأرض .

— حتك على ياعم توفيق ، أنا غلطان ياعم توفيق .. ورفعه توفيق من جلبابه فأوقفه على قدميه وكانت الناس قد التفت حولهما وجاءت فتحية أيضا تسبه وتضربه ، وتوفيق يقسم بأغلظ الإيمان أنه لن يتركه الا في النقطة . وتدخل الناس و « معلش ياسى توفيق » ده غلبان ياشاويش توفيق .

ورضى توفيق أخيرا أن يتركه على شرط .. أن يدفع ما عليه !

ونظر الناس الى حسن وهو يغض بصره نحو الأرض ، علم الناس في ذلك الصباح أن توفيق يدينه في عشرة جنديات دفعها ليلة الزفاف ليدفعها حسن مقدم الصداق لزوجته ، ونام حسن في تلك الليلة وفي الليالي التالية في الجمعية ثم باع القيراطين ليدفع مؤخر الصداق والدين الذى عليه . وظلت فتحية في المندرة وانتقل اليها توفيق العسكرى ، ومضت شهور طويلة وحسن بلا بيت ولا عمل ، وتعلم حسن الصلاة ، فقد كان ينام في المصلية التى على حرف النهر خارج القرية ، وقال الناس انه « مخاوى » .. احدى جنديات البحر بيضاء وشعرها طويل وأسنانها لامعة ، وأظافرها حادة قاتلة ، وانها تخرج اليه في الليالي القمرية عند المصلية ، وعندما مرض العسكرى بعد ذلك ومات قال الناس انه قد استعان بالجنية للانتقام منه ، وانه سينتقم غدا من زوجته ، ولكنها لم تلبث أن غادرت القرية ذات صباح الى حيث لا يعلم احد ، وفي بعض الليالي كان الناس يذهبون الى حسن في المصلية وكان يحكى لهم دوما حلمه الذى رآه في الليل وهو نائم عندما جاءه سيدى الخضر وأنبأه بقرب نهاية العالم وان الأرض لن تلبث أن تزول بما فيها ومن فيها .. ثم لا يلبث أن يسأله أحد الحاضرين :

— واية حكاية الخوجاية ؟

ويحكيها حسن .. ولكن بأسلوب آخر ، وذقنه التي طالت تضرب في صدره الذي ضاق ، وعبارة واحدة يختتم بها الحديث دائما :

— اخص على الخواجات وعلى سنينهم ، دول ناس مسخرة .

●●
كان الرجال الذين كانوا على المقهى وقت أن مر النعش في طريقه الى المقابر مازالوا في أماكنهم عندما هبطت النسوة من فوق الاكمة الى القرية حاملات المشاعل وقد اطفئت جميعها الا مشعلا واحدا لينير لهن الطريق ، وعندما أصبحن في محاذاة الرجال صاح أحدهم متكهما :

— الله يرحمك يا حسن ... دول صحيح كلهم غريان ! وعرض الآخرون على شفاههم وهم يهرثون في أفقيتهم .. وتذكروا كيف كانوا يسخررون بحسن وبقصته ، وان كان كل منهم قد يتمنى في أعماقه أن يكون له امرأة بيضاء مثل اللبن الحليب شبيهة بتلك التي رآها حسن واحتضنها بين ذراعيه ذات صباح في طريق الهرم .



جاء الشتاء



تجاوبت جدران السجن الصماء بأصداء صرخات الحراس
الرهيبية ووقع أقدام المجرمين المثقلة بالحديد ، وهم
يجرونها فى ردهات السجن الطويلة نحو مصيرهم الذى
الفوه ، وانتهت المضجة فى لحظات ، فقد اصطَف
المسجونون فى طاوور بائس طويل ينتفضون من موجة
المبرد المشديدة التى وفدت فجأة على المدينة وكان الطقس
بالامس دافئاً جميلاً ، ولكنهم سرعان ما نسوا البرد ،
فقد دبت الحرارة فى أوصالهم المرتعشة وهم يسيرون
فى حماس شديد نحو الجبل ، وكأنهم لفرقة من الجند
عائدة من ميدان القتال الى المدينة ..

ولم يكن ثمة مايثير انتباه أحد بين هذا الطاوور التعس من الرجال الاشقياء
اذ كل شئ يسير فى نظامه المعهود ، على الطريق الحجرى الطويل بين سور
مضروب من الاسلاك الشائكة وبنادق الجند المصوبة فى خمول الى صدور
المجرمين .

ثمة رجل واحد كان يسير فى نهاية الطاوور ، وكل شئ يبدو جديدا امامه
وغير مألوف لديه .

فقد كانت قدماء تصافح أحجار الطريق للمرة الاولى . ولم تكن تشيع
فى وجهه علامات الرضا كغيره من أفراد الطاوور ، بل كان يبدو قلقا وأسنان
الصغيرة الحادة كأسنان فأرة تقضم أظافر أصابعه الخمسة فى عصبية
محمومة .

لقد كان كل شيء يبدو أمام عقله الصغير غريبا هذه المرة .. لقد دخل
المسجن من قبل مرات عديدة .. وكان هو الذى يسعى اليه .. ولكنه فى هذه
المرّة فى الليمان .. وهؤلاء الذين يمشى معهم وحوش وليسوا آدميين ، وكل
منهم نجا من حبل المشنقة بأعجوبة .. انهم موتى غير أن قلوبهم حية تنبض
بالحقد المرير ..

وتعجب حسن لهذا القدر الذى جمع فى هذا الطابور عددا وفيرا
من القتلة - وهو أيضا .. قاتل مثلهم .. ولكن ..
وصرخ حسن من الألم ، فقد هوت على كتفيه كعوب بنادق الجند ، فقد
أخل حسن بالنظام وهو « سارح » فى وجوده الضائع .
وعاد حسن يجرى وهو يلث ليلحق بالقطيع البائس ، وعندما لحق
بمكانه فى الطابور لم ينظر اليه أحد ولم يهتم به انسان .
ان كل فرد فى الطابور لايهتم بغيره ، ان نفسه فقط هى المحور الذى
تدور حوله حياته .
وعاد حسن من جديد يقضم أظفاره وعقله يقضم من أحشاء الماضى قصة
وجوده الذى ضاع .

انه منذ عشرة أعوام وهو يمارس الحياة فى حى السبتية ، وكان يمارسها
قبل ذلك بسبعة عشر عاما .. غير أن فصولها الاولى ضاعت ولم تبق منها
الآن الا صور باهتة . غير أنه منذ عشرة أعوام وهو يذكر جيدا انه بدأ يمارس
الحياة بوعى لكل ما يجرى حوله ..

كان فتى قويا شديد البأس كأنه ضبع ، وعندما واجه الحياة كانت نفسه
تفيض آمالا عذبة : مسكن فسيح ، وعمل مستقر ، وزوجة تملأ بيته ..
ولكن كيف السبيل الى تحقيقها ؟ بالمال .. ثم أين المال ؟ بالعمل ، صحيح
أن حسن عمل خبازا مدة طويلة ، يعجن كالنساء مع خمسة من أقرانه ، وقوته
تذوب مع الليل الكئيب ، وخمسة عشر قرشا هى كل ما يناله حسن فى
الصباح .

خمسة عشر قرشا .. وعمل تافه كالنساء ..
.. وهكذا أصبح حسن « قهوجى » فى حى السبتية .. عمل أنظف
وأكثر راحة ولائق بالرجال ، والثلثين واحد .. خمسة عشر قرشا ..
وفى المقهى يجلس عبيد وأصابه العشرة تزينها خواتم من ذهب ..

والصديري الشاهى يبرز من فتحة جلبابه الجوخ . والملاسة الحريرية تلتف حول رقبته ، والحذاء اللامع يبرق فى قدميه ، وهو لا يعمل ولا يجرى ، وانما يوزع الحشيش على الراغبين ويكسب ويتزوج ويطلق ، وله فى السبئية أكثر من عشيقة وأكثر من تابع ذليل .

وترك حسن العمل فى المقهى وجلس فيها وأصبح جيبه عامرا يلفافات الحشيش ، وعرف المارة طريقهم اليه . ولم يعد حسن يجرى ولا يلهث ، وهو يكسب جنيتها وأحيانا أكثر ، ولسوف يهبط الثراء عليه يوما ما ، فهو ليس أقل من عبيد ، بل هو أقوى وأكثر شبابا . ولكنه أفقر ، والزمن الذى يجرى به كفيل بحل المشكلة ولكن الزمن كان يجرى به فى الطريق المضاد ، فقد وقعت « كابسة » على المقهى وضبط حسن ، وفر عبيد قبل أن يحضر البوليس فقد كان يعرف .

وهكذا دخل حسن السجن أول مرة ، ولم يمكث طويلا ، فقد قضى الشتاء بطوله ثم عاد الى السبئية مع الصيف .

ولم يفلح حسن هذه المرة فى أن يصبح تاجر حشيش ، فهو مفلس ليس معه شيء ، والتجار الكبار رفضوا التعامل معه ، فهو مشبوه معرض للوقوع فى أيدي البوليس ، ومعنى هذا ضياع أموالهم كما ضاعت من قبل ، والحشيش تجارة ، والكبار فى ميدان التجارة يسحقون الصغار بلا هوادة وحسن صغير فى الميدان وعبيد من الكبار ونجح فى أن يسحقه .

عاش حسن شهور الصيف . وهو نفسه لا يدري كيف ؟ . المهم انه كان يأكل ويشرب وينام دون عمل فهو منذ ان هجر المخبز وقد قرأ لا يعود اليه ، ومنذ تذوق ربح الحشيش لا يستطيع أن يقبل خمسة عشر قرشا ليخدم الاوغاد والعاطلين المترددين فى مقهى السبئية .

ولكن شيئا ما أزعجه ، فقد حل الشتاء ، ولم يعد يستطيع النوم على رصيف الشارع ، ولم يعد يحتمل الجوع ، فالبرد قارس ، وهو فى حاجة الى غذاء ، وليس هناك من سبيل .

وتذكر حسن والريح تعصف بوجهه الشتاء الذى مضى ، وهو فى زنزانة السجن الدافئة ومن تحته البرش والوجبات الثلاث كل يوم والحياة الرتيبة . ولا تفكير فى الغد .

وشهدت مقهى الكمال فى الصباح معركة عنيفة دارت بين حسن والذين

كانوا فى المقهى ذلك الوقت الباكر من الصباح ٠٠ ولا احد يعلم السبب فى الشجار ٠٠ المهم ان حسن حطم الكراسى والاوانى والاكواب ٠٠ وأكثر من رأس ٠٠

واختفى حسن من حى السبئية شهورا عديدة ، ثم عاد مع الصيف يعيش مثلما كان فى الصيف الذى مضى ، يأكل ويشرب وينام ٠٠ وهو نفسه لا يدري ٠٠ كيف ؟

وعندما جاء الشتاء شهد المقهى المواجه لمقهى الكمال معركة رهيبة كان بطلها حسن ٠

وكما لم يعرف الناس سبب المعركة الماضية لم يستطيعوا معرفة السبب فى معركة اليوم ، المهم أن حسن حطم المقهى تماما ، واختفى بين أيدي البوليس وراء جدران السجن ٠ وشاعت قصة حسن فى الحى ٠٠

وعندما عاد هذه المرة كان قد أصبح أحموثة ، فالنساء يتغامزن حوله وهو سائر بين أزقة الحى من خلف النوافذ ٠٠ والرجال يقفون ويفسحون له الطريق ٠٠ وأصحاب المقاهى يحلفون بالطلاق أن يشرفهم حسن بالجلوس معهم قليلا ٠

وعرفت النقود طريقها اليه من جديد « شغلة » جديدة وسهلة ليس فيها عرق الفرن ولا مذلة الخدمة ولا مغامرة التجارة فى الحشيش ، انه يطلب فقط ، والناس من حوله تلبى ما يطلبه ٠٠

وعندما حل الشتاء هذه المرة لم يجد حسن نفسه مضطرا الى تحطيم شىء ، فهو يأكل ويشرب ، والنقود من بين يديه ، وله أكثر من عشيقة ، والناس تخشاه ٠٠ حتى عبيد نفسه أصبح يهاب حسن ويخشاه ٠٠

وعاد حسن يصرخ من الألم ٠٠ وكعوب البنادق تنهال على كتفه ، فقد اخل بالنظام من جديد وهو « سارج » فى ماضيه ، وعندما وصل الى مكانه فى الطابور ، كان كل شىء يبدو هادئا حوله ٠٠

وعاد حسن من جديد ليفكر فى ماضيه بعد ان أصبح له فى الحى مكان رفيع ٠٠

وتذكر فردوس التى استعصت على كل الرجال ما عداه ٠٠ وتذكرها وهى تخطر من أمام المقهى فى « الملاءة اللف » ووجهها الصبوح كأنه ابتسامة عريضة وشعرها المتهدل يخفى عينها اليمين ٠٠

انه يذكرها عندما غمزت له ، وعندما لحق بها فى الزقاق الضيق الذى ينتهى الى الدحديرة ، ثم غزواته معها ، والهمس الذى كان يدور على السنة الجميع ..

.. ثم يذكر وهو يحث الخطى على الطريق . مناديل « الترتر » التى اشتراها لها .. وزجاجات الكحل التى أوصته عليها .. وأرطال اللحم المضأن التى كان يحضرها كل يوم لها .. وأنواع الفواكه التى كان يحملها معه كل مساء ، وسكوت أهلها ورضائهم رغم أنوفهم .

لقد كان ممكنا أن تسير به الحياة هكذا الى الابد ، فيأكل ويشرب وينعم بفردوس وغيرها .. ولكنه فوجئ بفتور من جانب الناس لم يلحظه بادئ الامر وقد ظنه أمرا عارضا لا يلبث أن يزال . ولكنه على مر الايام لاحظ أن الفتور قد زاد الى حد أن أصبح واضحا . والذين كانوا يدفعون الاتاوات كل يوم ، أصبحوا يدفعون يوما بعد يوم ، وأحيانا يوما كل أسبوع ، ثم يوما كل شهر .

ولم تعد تكفيه القروش القليلة ، أنه فى حاجة الى مال وفير ، ليأكل كما اعتاد وليدخن وليلبى طلبات فردوس التى تزداد يوما بعد يوم .

وفكر طويلا فى الامر .. ماذا يفعل ؟ .. هل يضرب الناس ؟ لقد بات يخشى السجن الذى كان يهواه وهو يرفض العمل .. ويريد أن يحتفظ بمكانه الذى وثب اليه فى الحياة ، ويود لو يحتفظ بكل ما ينعم به الآن ، دون مشاكل ولا أرهاق ، ولكن يبدو أن الناس قد اكتشفوا المضعف الذى تسلل الى قلبه .. اكتشفوا انه لم يعد ذلك الوحش الذى كان بالامس .. لقد أصبح مهذبا يحل المشاكل بالتفاهم بدلا من قبضة اليد ، لا بد ان الناس اكتشفوا تلك الحقيقة لانهم لم يعودوا يرفضون الدفع بل انهم يتحرشون به وكأنهم يمتحنون قوته وهو احيانا يكتم كل ما فى نفسه من ثورة ليمر الامر وكأنه لم يلحظه ، وأحيانا تسول له نفسه أن يبطش بمن يقف فى طريقه .. ولكن فردوس والحياة اللذيذة التى يحيها ، صحيح انه فقد الطمأنينة ، ولكن فليحتفظ بالحياة .. ومرت أيام طويلة وحسن يضطر الى تدخين السجاير « الفرط » .. والتهام الوجبات غير المناسبة .. والبعد عن فردوس أياما لا يراها ، ولا تراه .. وأحيانا كان حسن يتميز غيظا وهو قابع وحده فى مكان بعيد وينطح رأسه الحائط وهو يحدث نفسه : هل هو حقا جبان ؟ ان الخوف لم يعرف

طريقه اليه من قبل ٠٠ وهو مستعد الآن لان يحارب قبيلة وبلا سلاح ٠٠ اذن ماذا ؟ انه الحرص ، ولكن ، على أى أمل ، ان تعود المياه وحدهم الى مجاريها ٠

ولكن حسن كان واهما ٠٠ فكل يوم يمر به كان يؤكد له ان نجمه قد أفل ، وان أياما سوداء مقبلة عليه ٠٠ وكان من الممكن أن يحدث حسن كل شيء الا هذا الذى حدث ٠٠ فقد أصبح الفتور وباء معديا ينتقل بسرعة مذهلة فيصيب الناس حتى أصاب آخر الامر ٠٠ فردوس ٠

ولكن ما السبب ؟ انه لم يبخل عليها بشيء على الإطلاق ٠ كان دائما رهن اشارتها ، كانت تطلب وهو يجيب ٠٠ وفكر حسن قليلا ، لابد أن هذا هو السبب فهو منذ مدة طويلة لم يعد فى استطاعته أن يجيب ٠٠ وهى دائما تطلب ، وألف رجل على استعداد أن يجيب ، وكان الذى أصاب هذه المرة ٠٠ عبيد ٠

لقد سحقه مرة فى دنيا التجارة وها هو يسحقه مرة أخرى فى عالم النساء ٠٠ وهاهو أحيانا يعتريه ضعف فيتراجع ولكنه دائما ينتصر ٠٠ وأحس حسن بالمرارة تفيض بها نفسه ، وتمنى فى سريره لو استطاع أن يشارك عبيد فى فردوس حتى تعود الاحوال الى ما كانت عليه ٠ وفكر حسن فى أن يقتل عبيد ، ولكنه قوى ، وعنده مال ورجال ، ويستطيع بسهولة أن يسحقه كما كان يفعل من قبل ، اذن من يقتل والرغبة تلح عليه فى أن يقتل أى انسان ٠

ثم جاءت فرصة عندما ذهب الى فردوس يطلب منها حلية ذهبية كان قد أهداها لها فى أيام بعيدة ، ولم يجدها هناك ، ووجد زوجها ٠٠ هذا البائس المحطم كأنه عود قصب تحالفت عليه أنواء الشتاء ٠٠ ولم يدر حسن ماذا يفعل ، لقد رفع قطعة حديد بيده وهوى بها على الزوج ٠٠ ولم يكن فى الحقيقة يريد قتله ، كان فقط يريد أن ينتصر عليه ٠

وعاد حسن من جديد يذكر ماذا حدث بعد ذلك ، التحقيق والمحاكمة والحكم بالاشغال المؤبدة ٠٠ وتذكر وجوه الصف الطويل من الشهود الذين شهدوا ضده ووقفوا ضده ، وهو خلف قضبان الحديد من أصحاب المقاهى والباعة والمتشردين ، والذين كانوا يقبلون يديه ٠٠ ولكنه لم يهتم لهذه الوجوه الكثيرة قدر اهتمامه بوجهين : وجه فردوس ،

ووجه عبيد ، وجهها وهى تحكى ، كيف راودها عن نفسها ٠٠ وكيف صدته
برفق فى البداية حتى لا تثير فضيحة ، ثم اضطرت الى ابلاغ زوجها بالامر ٠٠
ووجه عبيد وهو يروى فى هدوء وورع ، كيف أن هذا الواقف خلف قضبان
الحديد خطر على المفضيلة والامانة والامن العام ٠٠

وضغط حسن على أسنانه وهو يذكر عبيد ٠٠ لقد انتصر فى النهاية على
كل أعدائه ، حسن فى السجن ، والزوج فى التراب ولا بد هو الآن يحكم الحى
من فوق كرسيه بمقهى الكمال بالسبئية ٠

كان الطابور البائس من الرجال الاشقياء قد وصل الى نهاية سفح
الجبل عندما انهزم المطر فجأة وبشدة ، وكأن عددا وفيرا من المأسى الرهيبة
قد هز أشجان السماء فراحت تذرف الدمع الهتون عليه يجرف أمامه كل ما هو
شر ، على أرض البشر ٠٠ وانتشر الرجال الاشقياء فى أنحاء الجبل ليفروا
بجلودهم من المطر ٠٠

رجل واحد كان يقف مرفوع الرأس نحو السماء الممطرة ، وعلى فمه
ابتسامة الرضا وقد غاب القلق عن قسमत وجهه العريض ٠ لقد جاء الشتاء ،
وهو ليس فى حاجة لتحطيم المقاعد والرؤوس ليدخل السجن ٠



في ليلة العيد



كان المقهى عامرا هذه الليلة .. ليلة العيد ، والزبائن
يبدون غريهم بالامس .. فهم رغم المكآبة المطلة من
عيونهم المنتفخة الا ان احاديثهم فكهة وملابسهم جديدة،
وفي جيوبهم بعض النقود .. والمعلم أمين صاحب المقهى
يبدو فرحا هو الآخر ، منتفخا كالديك فى جلسته الهادئة على الرصيف
المقابل ، والشيشة فى فمه ، واصابعه النحيلية المدببة كمخالب الطير تلمع
بالخواتم الذهب ، والصديرى الشاهى يبرز من بين فتحة الجلابب الصوف ،
والليلة ليلة صيف ، والنسيم يهب حينارطبا نديا ، وحيناً آخر مشبعا بالتراب .
و « المعلم » أمين يفلسف كعادته دائما لافراد الشلة الذين تناثروا حوله على
المقاعد فوق الرصيف : كاذب من يقول ان التراب يضر بصحة الناس اننا جميعا
من التراب ، لا يضر بالناس الا الاعمال السيئة .. ويجيب القطيع البائس
الجالس حول المعلم أمين بهز الرؤوس ومصمصة الشفاه علامة الاعجاب
الممزوج بالدهشة من قول المعلم أمين ، ان احدا من الجالسين لا يستطيع ان
يناقش اقوال المعلم ، انهم لا يفهمون معنى النقاش ، وهم ايضا ليسوا فى
حاجة اليه .. لقد تعودوا سماع مثل هذه الحكم البالغة من المعلم فى بعض
الليالى التى ينجلى فيها ، وهم يفرحون لمثل تلك الليالى لان كلا منهم يستطيع
ان يشرب على « الحساب » او يقامر على الحساب بل وفى بعض الليالى التى
يكون فيها المعلم مبتهجا للغاية يستطيع بعضهم ان يقترض شيئا من النقود .
ويعود المعلم أمين الى حديثه محركا الهواء براحة يده متعمدا خلال ذلك
ان يرى الجمع المحتشد حوله ، الخواتم الذهبية اللامعة ، والفصوص الياقوت

التي تبدو وكأنها عيون ملتتهبة لشياطين أقزام . والفانلة الحمراء ذات الكم الطويل المشغول بالابرة في نهايته ثم يرفع حذاءه الاجلسيه الى أعلى قليلا محركا أصابعه داخل الحذاء قبل أن يقول :

- صحيح ليس التراب هو الذى يضر بالناس ، وليس هو الطين أو الدود ، أنا أعرف مخلوقات في حجم الجان وفي قوة سباع الغاب ، يقضون حياتهم أبدا ، وطعامهم دود المش ، وشرابهم طين النهر . . . وعملهم نيش الارض بأظافر الديدن والقدمين . . . انه اذن ليس التراب والطين والدود الذى يضر بصحة الناس وانما الذى يضرهم هو الطمع هو الشره ، هو اللهث الذى لا ينتهى أبدا في سبيل جمع المال .

وعادت الدهشة الممزوجة بالرضا ترتسم على وجوه الناس المنصتين في غير حماس الى قول المعلم أمين وكأنما لاحظ المعلم هذا التراخي ——— جانب الجالسين ، فصفق بشدة للجرسون الذى أقبل على عجل يقطع الشارع وثبا بكلتا قدميه كحيوان الكنجر . وطلب المعلم مشروبات للجالسين ، ثم تمطى في خمول وتثائب فاغرا فاه فبدا في وجهه حفرة واسعة كباب القبر ، وبدت أسنانه الصددنة الصفراء المتأكلة كأنها بقايا عظام ميت . . . ومضت فترة صمت طويلة قبل أن يعود المعلم أمين الى حديثه الذى يتناول كل شيء تقريبا ، من شئون الدنيا والدين الى الحب وروايات السينما الى موضوعه المفضل دائما . . . أيام زمان .

- نعم ، اننا نقتل بعضنا بعضا ، بالظلم والحقد والحسد . . . كلنا في هذه الحياة قتلة ومقتولون . . . ولا أدري لماذا أصبحت الحياة شقية بائسة الى هذا الحد . . . وكانت منذ أربعين عاما هيئة لينة جميلة على الدوام . . . هل أجذبت الارض ؟ هل جف ماء النهر ؟ هل نقصت خيرات الله ؟ لا بد أن شيئا من هذا قد حدث . . . والا . . . فلماذا كل هذا البؤس ، وكل هذا الظلم ، وكل هذا القتال العنيف في سبيل الحياة . . .

وكان المعلم أمين يكرر هذا الحديث كلما اجتمع حوله بعض الرجال وكان يبين من حديثه أنه دوما تواق الى . . . أيام زمان تلك الايام التي عاشها في شبابه قاطعا مسافات شاسعة من الارض لهثا وراء قطيع من الاغنام في طريقه الى المذبح جامعاً قرشا فوق قرش حتى كون ثروة ضئيلة استطاع أن يشتري بها المقهى وأن يلبس القفاطين الشاهى والساعة ذات الكتيبة الذهب

والحذاء الاجلسيه ٠٠ واستطاع أيضا أن يشتري كل هؤلاء الرجـال
المنصتين .

وكان من المفروض أن يستمر المعلم أمين في حديثه وأن يستمر الذين
حوله في أماكنهم طالما أن المعلم لا ينسأهم خلال حديثه فيصفق بشدة بين
الحين والحين طالبا المشاريب مجانا لهؤلاء الصحاب . ولكن المعلم قطع
حديثه فجأة وقد لمعت عيناه وهو يصوب بصره داخل زقاق الاباصيري الذي
يمتد بجدار المقهى وينتهى بجدار أسود اللون من أثر دخان « مستوقد » الفول
الذى يجاوره . ولحظ الرجال الذين كانوا على الرصيف شيئا يخطر على
مهل في طريقه من داخل الزقاق الى الشارع العمومى ٠٠ وقبل أن يصل
الشبح الى ناصية الشارع كان المعلم قد أسرع متجها ناحيته وانتحى به
جانبا فترة من الوقت ، مضى بعدها الشبح فى طريقه الى الشارع ، وعندئذ
تبين للرجال أن الشبح لامرأة تبدو داخل الملاء السوداء صغيرة جميلة لدنة
كالعصا الخيزران ٠٠ ومن جديد عاد المعلم أمين الى جلسته مع الصحاب ،
ولكنه لم يتكلم بل ظل صامتا بعد أن دس شيئا صغيرا كان بين أصابعه فى فمه
٠٠ ونادى على الجرسون ودس فى يده جنيتها وطلب ثلاثة أرطال من اللحم
الضأن وأربعة أرغفة وحزمة من الفجل وليمونة خضراء .

ثم جلس هادئا مزهوا كأنه قائد يخرج لتوه منتصرا فى معركة ٠٠ ومر
ماسح الاحذية ونقر بفرشاته على الصندوق ولكن المعلم أمين لم يجبه مكتفيا
بالنظر الى الحذاء اللامع وعاور الصبى الصغير النقر على الصندوق ، فركله
المعلم أمين بقدمه فى بطنه ، فتقهقر عائدا للخلف فى خطوات سريعة غير
منتظمة ثم اعتدل ٠٠ ومضى .

وعاد المعلم أمين الى جلسته الهادئة المنتفخة كأنه ديك ٠٠ وأقبل بعد قليل
رجل سمين قصير القامة منتفخ الوداج أصلع الرأس لامع البشرة يبدو وكأنه
عجل صغير معد للذبح ٠٠ فى نظرتة تبدو الطيبة ممزجة بالبالاهة والغباء ،
ملطخ الملابس ببقع الدم وبقايا قطع اللحم الرخيص ٠٠ وحيا الرجل المعلم أمين
وصحبه ٠٠ ثم أدخل بيده خلال فتحة الجلباب وضرب ركبتة بيده قبل أن يقول :
- مفيش لعب يا معلم ؟

ودون أن يتحرك المعلم من مكانه قال فى هدوء :

- ايه الحكاية يا معلم نسر ٠٠ لازم غنى النهارده !!

- نجرب يا معلم ..

- طيب استنى اما أجيبك الواد سيد *

وغاب الجرسون قليلا ثم عاد ومعه سيد .. نحيفا ضئيلا غائر العينين بارز عظام الوجه له نظرة لص غشاش ، وان كانت تفصح في نفس الوقت عن شخصية ذكية طموحة وأعصاب قلقة شائرة ، وصفق سيد فرحا وقفز في الهواء عدة قفزات متتالية :

- مساء الفل يا معلم نسر .. العشرة بجنيه مشفى ..

ورد النسر فى بلاهة :

- نتفرج ..

ونهب المعلم أمين على الفور ليعد لهما المائدة والدسطة الجديدة والمقاعد وقطع الطباشير ، ولم يكن فى المقهى سوى أربع موائد مشغولة باللاعبين ، فانقض المعلم على احداها وحملها بين يديه وقذف بها على الرصيف ، وعندما احتج اللاعبون صفع كلا منهم على وجهه وقذف بهم الى عرض الطريق .. وهكذا أعدت الجلسة بسرعة للمباراة التى ستندشب بين السرجلين ، ونهب أصحاب الذين كانوا حول المعلم أمين فالتفوا باللاعبين *

وبدأت المباراة ، قذف كل منهما ورقة من ذات الجنيه وبدأ التفريط والتفريق واللعب وطار الجنيه الاول والثانى والثالث والرابع ، وعقارب الساعة تأكل ظلام الليل ، واللعب وتبد رتيب والخسارة تتزايد وأعصاب اللاعبين والمتفرجين على السواء قلقة محترقة بتأثير السهر واللعب والنيكوتين .. وجاء الجرسون فهمس فى أذن المعلم أمين بكلمات قصيرة ، فاستأذن بعد أن سلم « التأمين » لاحد الحاضرين وغاب داخل الزقاق ومضت ساعات طويلة قبل أن يبرز ضوء الفجر ، ومع الفجر عاد المعلم أمين ، وكان الرجل الضئيل النحيل سيد قد خسر كل ما معه .. خمسة عشر جنيهًا بالتمام ، وآخر « عشرة » قد انتهت ، والمعلم نسر يفتن الكوتشينة ، وسيد يبحث فى كل خرق من جلبابه عن نقود ، والمتفرجون يشرحون فى لذة فائقة سير العشرة الاخيرة وكيف أن المعلم نسر ترك « الاس البسطونى » من يده ، ولو تمهل قليلا لحسم العشرة قبل الاوان *

واشترك الجميع فى هذا النقاش الذى يدور عادة بعد كل عشرة فنية وكان الحاضرون قد بلغوا العشرين رجلا ، فقد خرج كسل زبائن المقهى

ليشهدوا سير المعركة الرهيبة بين المعلم نسر وسيد ٠٠ أو أبو سيد كما يطلق عليه المعلم أمين من باب المزاح ٠٠ ٠٠ وقطع هذه الشرثرة الفسارغة على المشاهدين صوت أبو سيد وهو يصرخ فجأة :

- خمس دقائق أروح أجيب فلوس واجى ٠٠
- وفى هدوء بالغ رد المعلم نسر :
- وأنا ايه اللي يخلينى أستنك ؟
- لازم تكفينى لعب ، كده الاصول
- الاصول هى اللي بقولك عليها ٠٠

ووافق المعلم أمين على كلام نسر وأيده كذلك كل الحاضرين ، فان نسر كان لا يهدأ طوال اللعب فى طلب المشاريب « للجدعان » الذين التفوا حول المائدة وسادت فترة صمت قصيرة قبل أن يمد أبو سيد يده فى حركة عصبية محمومة الى المعلم أمين ويقول :

- هات جنيه لحد الصبح يا معلم ٠٠
- ماحنا الصبح دلوقت ٠٠ كل سنة وانت طيب ٠٠
- قصدى لحد ما روح البيت ٠٠
- على الطلاق من بيتى ما فيه فى جيبى سليم خرده
- وكانت المفاجأة قاسية لابو سيد لم يستطع تحملها فازدرد ريقه عدة مرات ثم قال للمعلم بنفس الصوت المخنوق بعبرات غير منظورة :
- أنا شايف معاك فلوس زى البذك دلوقت والا خسارة فيه الجنيه ؟
- كانما اثار هذا التحدى والاصرار من جانب أبو سيد المعلم أمين فصرخ مهتاجا :

- الله ، انت شريكى ؟ ٠٠ حالف من بيتى طلاق تلاته ما سلف أخويا
- ابن أمى وأبويا ٠٠ حد شريكى !!
- وفى لمح البصر هب أبو سيد كالمجنون خالعا عنه جلبابه وقذف بها فى حجر المعلم ثم جلس وقبض نسر على الجلباب قبل أن يقول مستنكرا :
- دى ماتساويش نكله ٠

- هيه ايه دى - على الحرام انت ما تعرف تلبسها ٠٠
- وحسم المعلم أمين النقاش بأن وافق على استئناف اللعب على أن تكون آخر « عشرة » اذا خسر أبو سيد اللعب ٠٠ وهكذا بدأ التفتيط والتفريق ولكن

بهدهوء أعمق وعدم مبالاة من جانب المعلم نسر ، وبعصية أشد من جانب
أبو سيد . وجاء عسكري الداورية فسلم على الجميع ، وكل سنة وانت طيب
يا معلم . وانت طيب يا حضرة الصول .
شأى الاصطباحة يا واد للباش شاويش
حاضر يا معلم

كل هذا واللعب يدور بين الغريمين أشبه بمعركة حربية يتوقف عليها مصير
الحرب ولم يمض وقت طويل حتى ظهر واضحا ان الحظ قد فر تلك الليلة من
جانب أبو سيد وأنه سيخسر حتى جلبابه . . هكذا أدرك أبو سيد أيضا وهو
يلعب آخر « طبلية » واللعب يسير خفيفا وبحذر وتباشير الصباح تلوح
فيما وراء الأفق وصياح الديكة يملأ الجو وقرقعة عربات « الكارو » تسمع
من بعيد والنسمات الباردة الندية التي تهب في مثل هذا الوقت من كل
صباح تنعش الجميع الا اللاعبين فقد كانا يتصببان عرقا وكأنهما خارجان
لتوهما من حمام ساخن .

وهكذا انتهت العشرة وخسر سيد جلبابه فبدت عيناه المنتفختان حمراوين
كحبات التين البرشومي المعطوبة . . وأخذ الرجال الذين كانوا يشهدون
اللعبة في الانسحاب في هدوء وقى اصرار مد أبو سيد يده الى المعلم نسر
وقال بصوت مخنوق وكأنه طفل قضى في البكاء وقتا طويلا .
- هات اثنين جنيه يا نسر -

- ولا مليم
قالها نسر في هدوء غير متكلف وعاد أبو سيد يطلب بنفس الاعصاب
الثائرة والصوت المخنوق .
- لا حاخذ اثنين جنيه -

- والنبي لما تتشقق ، انا خسران معاك الجلد والسقط .

وأدرك أبو سيد انه لا فائدة ترجى من وراء النقاش وأنه حتما ذاهب
الى منزله بلا جلباب ولا نقود . . وأطرق قليلا نحو الارض يفكر وهو يصرعلى
أسنانه كالكلب ويدعك عينيه باصبعه ، وبسرعة خاطفه سدد أبو سيد لكمة
قوية الى فك غريمه أنتجت صوتا أشبه بذلك الذي يحدث من احتراق خشب
داخل فرن متقد . . وعندما أفاق المعلم نسر من المفاجأة قذف بغريمه في عرض
الطريق وظل يلاحقه بالركل والضرب بقسوة وشدة بالغة وكأنه ينتوى قتله . .

وعندما وقف أبو سيد على قدميه أدرك أن عسكرى البوليس قد قرر أن يؤدى واجبه فانسحب مخترقا الزقاق الى منزله .

كانت الشمس قد بدأت ترسل أشعتها نحو الارض والزقاق يبدو رغم الصباح مظلمًا والبيوت التى الى جانبيه متداعية الاركان مهالكة تشققت جوانبها بفعل السنين الطويلة التى مرت عليها والنوافذ تفسخت وتحطم زجاجها منذ عهد غابر وبقيت بقاياها على النوافذ مكتسبا لونها الذى كان ناصعا يوما ما . لونا آخر شبيه بلون المياه الراكدة ومصباح الحكومة الذى يتوسط الزقاق يلفظ آخر أنفاسه ولم يبق فيه سوى ذبالة ضئيلة مرتعشة خافتة وأحس أبو سيد بالدوار وهو يفتح الباب الخشبي الضخم الذى تزينه نقوش كالمحة كنقوش التجاعيد التى يضيفها الزمن الجبار الى الوجوه الشائخة .

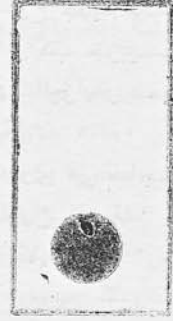
وعندما أغلق الباب من خلفه حدث فى وسط الساحة الرطبة شئ غريب لم يكن يتوقعه وكان ولده أبو حباجة فى طريقه الى الخارج فمد يده اليه :

— هات قرش —

وانتفض سيد كالمجنون وبكل ما تبقى فيه من قوة صفعه على وجهه وحمله بين يديه وفتح الباب وقذفه الى الزقاق وهو يتمم بكلمات غير مفهومة، وضج الزقاق بصراخ الطفل ونباح كلب عجوز كان نائما أزعجه الصراخ فقام محتجا بصوته البغيض على تلك الضجة المقلقة وجرى بعض الرجال الذين كانوا ما يزالون فى أماكنهم عند ناصية الشارع ليلحقوا بالطفل المطروح على أرض الزقاق . . . وعندما رفعوا الطفل من فوق الارض . . . كان هناك فى الطابق الاعلى من المنزل رأس امرأة صغيرة حسناء رغم الشحوب الذى يبدو فى وجهها وكانت هى أم الطفل وزوجة سيد النقاش . . . وعرف الرجال فى ذلك الصباح أنها هى التى انتحى بها المعلم أمين فى ظلام الليلة الماضية فترة فى الزقاق . . .



ديان بيان قو



محمد عبيد أمى لا يقرأ ولا يكتب • ولكنه قادر على
التفاهم بخمس لغات • وهو نكى من طول ما عمل
فى ميناء بور سعيد ، يعرف جنسية الخواجا من
سماطته ، ويكسب القرش بالفهلوة • وهو
مشهور بين عمال الميناء باسم الفهلوى • وعندما نشبت الحرب اغلقت
الحكومة البوغاز ، ولم يعد الميناء يشهد سوى مراكب حربية كتيبة يركبها
جنود فقراء • تدخل سرا وتخرج سرا • والاقتراب منها ممنوع • ومع
ان الفهلوى فى استطاعته ان يصعد على ظهر اية باخرة يشاء وفى اى وقت
يريد • وبلا تصريح ، الا انه لم يرغب فى الصعود على ظهر واحدة من
هذه البواخر الكتيبة التى تنقل بدل البضائع والركاب • قنابل ومدافع
وجنود • المهم ان الحرب راحت وجاء السلام ، ومع السلام جاءت المراكب
عبر البحار تحمل ركابا كأيام زمان • ولكن ليتها ما جاءت • فركبها
أفقر من العساكر ، واغلبهم مهاجرون الى استراليا • تحسر الفهلوى على
خواجهات زمان • العجايز الاثرياء • يبدو ان الحرب قد قضت على هذا
النوع من الناس ، واشاعت الفقر والخراب فى بلاد بره • والا ، فلماذا كل
هذا الهم والفقر الذى يعيش فيه هؤلاء الواقفون من خلف البحار •
وبالرغم من هذا كله فالفهلوى حريص على الذهاب كل صباح الى الميناء ،
يصعد على البواخر • يبيع احيانا صورا تذكارية ، وحيانا اخرى يضطر
الى ان يشتمغل حاويا ويخرج الكتكوت من البيضة ، واغلب الاحيان كان يصعد

الى البواخر وليس معه شئ وينزل منها ومعه اشياء كثيرة . وهو يربح ما يكفيه ويستطيع ان يربح اكثر لو اراد ، ولكن آه لو وقع فى يد البوليس .

شئ واحد فقط كان يقلق بال الفهلوى ويعذبه . وهو عدم الاستقرار على مهنة تضمن له مستقبله ، حتى جاءت الى الميناء مراكب من نوع جديد تحمل عساكر من فرنسا فى طريقها الى بلاد بعيدة . ورغم ان المراكب حربية الا ان الصعود على ظهرها مباح . والعساكر الذين تحملهم البواخر معهم نقود فرنسية ، وهم يستبدلونهم بنقود من عملة الهند الصينية .

عمل سهل وعريح . وقلة تعمل وحدها فى الميدان . والفهلوى فى حاجة الى مهنة . . . وهاهى الفرصة امامه والمراكب التى من هذا النوع كثيرة . ان يبدو ان حربا هائلة نشبت فى تلك البقاع ويبدو ايضا انها لن تنتهى ابدا .

وراح الفهلوى يصعد على البواخر يستبدل النقود . . . ويربح كثيرا . والاوراق التى فى يده تتضخم وتزيد . واصبح الفهلوى تاجر نقود فى الميناء يكسب جنيهين واحيانا ثلاثة كل يوم . ثم زادت المراكب فزاد الربح ، وتضاعف الربح بعد ان اصبحت المراكب تأتى وتعود . وهو يستبدل النقود فى الذهاب والعودة ، وغمر السرور قلب الفهلوى ، فهو يكسب كثيرا وينفق اكثر ، ويتزوج ويطلق واصبح له فى بور سعيد عشيقات .

وأربع سنين كاملة والفهلوى يرتع فى النعمة . . . وخزائنه اصبحت تضيق بالنقود من هذه العملة الغريبة . . . عملة الهند الصينية .

صحيح ان الدنيا حظوظ ، والحرب التى تدور فى تلك البلاد البعيدة تدر عليه ربحا وفيرا ، ولكن اين تقع تلك البلاد البعيدة التى درت عليه كل هذا الربح ، واصبح الفهلوى اكثر اهتماما بالمشكلة عن ذى قبل . وراح يتتبع انباء المعارك التى تدور هناك باهتمام ، فهناك ثورة . . . وفرنسا تحاربها ، وهو يدعو لفرنسا بالنصر ، وهى حتما ستنتصر . . . فهى اقوى ولديها كثير من الرجال والعتاد . وحفظ عن ظهر قلب اسماء القادة الذين يحاربون هناك ، الجنرال كاسترو الفرنسى . . . انه فى صورته يبدو عظيما وشديدا وسيأتى النصر قطعاً على يديه . فهو يحمل على صدره حفنة من النياشين ، وهو لابد خاض من قبل كثيرا من المعارك .

والجنرال جياب قائد الثوار يبدو هزيلا ضعيفا . . . وسترته قديمة وليس على صدره أية اوسمة وهو يبدو فى الصورة غلبان كعساكر البوليس .

انه الآن وبعد ان شاهد صورته متفائل بالنتيجة • وهل هناك شك فى انتصار الفرنسيين • وآه لو انتصروا ، اذن لاستطاع الفهلوى فى نهاية الحرب ان يستبدل كل النقود التى معه بعملة مصرية • • وهى تساوى عندئذ نصف مليون جنيه • وسيهجر العمل طبعاً • • وسيجرب لأول مرة فى حياته عيشة الاثرياء المعاجز الذين كانت تحملهم البواخر الى الميناء قبل الحرب •

ولكن لو خسر الفرنسيون الحرب ! مش معقول !!!
ولكنه خاطر كئيب احياناً يطوف بنفس الفهلوى فيزعجه ويحيل حياته الى جحيم •

فانهم لو خسروا الحرب • • لخرج الفهلوى من الصفقة عارياً كما كان • ولعاد من جديد الى الميناء يصعد على ظهر البواخر يبيع صـوـراً تذكارية ، ويخرج الكتكوت من البيضة • • وينشل جيوب الخواجات • • فهو وان كان واثقاً من نتيجة المعركة الا ان هذا الشعور الغريب احياناً يعتريه عندما يصعد على ظهر باخرة مستشفى قادمة من تلك البلاد التى تدور فيها الحرب • وفى بطن السفينة كان يشهد المأساة بعينه • • مئات من الجنود الجرحى فقدوا اعز اجزائهم وناموا فى ذهول ، بعضهم فقد نور عينيه • وكان يعجب لان أغلب الجرحى ليسوا من الفرنسيين • • هم فى الغالب سود من الصومال او سمر من شمال افريقيا • • وكانوا يصعبون عليه ، و احياناً كثيرة ساعد بعضهم على الهرب لقاء بضعة جنيهات من عملة الهند الصينية •

ومرة انتاب الفهلوى الذعر ، حين تقهقر الفرنسيون فجأة • • • وتقهقر معهم سعر الجنيه الهندوشين • ولم يغمض للفهلوى جفن الا عندما صمد الفرنسيون واستعادوا مراكزهم • • كانت محنة ولكنها علمته أشياء كثيرة • • فتقهقر الفرنسيين شئ مزعج حقاً • • ولكنه مفيد فى الوقت نفسه ، اذ انه يساعد على مد اجل الحرب •

ولكن فجأة حدث ما لم يكن فى الحسبان ابداً • • فقد جاءت الانباء من بعيد بانسحاب الفرنسيين انسحاباً طويلاً متواصلاً تاركين خلفهم عشرات المدن وملايين الافدنة والاف القتلى والجرحى • • وظل الفهلوى اياماً طويلة متفائلاً بالنتيجة • • • صابراً على المحنة • • والصبر طيب • • ولكن كل يوم يمر كان يخيب ظنه فى فرنسا •

وجاءت اللحظات الحاسمة فى تاريخ عبيد وتاريخ الحرب فى الهند-
الصينية . وبرز الى الوجود اسم قلعة ديان بيان فو . واصبح هذا الاسم
جزءا من حياة الفهلوى . واكثر من خناقة عنيفة نشبت بينه وبين بعض
التلاميذ من مدرسة بور سعيد . الذين يتحمسون للثوار ويتمنون لهم النصر!!
مغفلون هؤلاء الاطفال لا يدركون عظم المصيبة التى ستحط على رأس
الفهلوى لو حدث ما يتمنونه . واصبح الفهلوى حاد المزاج ، يضرب الناس
لاتفه سبب ، ويقلب مائدة الطعام بلا سبب ويصفع زوجته كل صباح عدة
أقلام سخنين . . . ويسبب الدين والدنيا ، ويصق على حال الدنيا الذى لا يدوم
لاحد . حتى ولا لفرنسا واصبح الفهلوى زبونا للصحف ، يقرأ انباء المعركة
بشغف . ولم يعد يختلط بأحد . . او يحتك بانسان . حتى عمله فى المراكب
هجره فى انتظار نتيجة المعركة . وزوجته طلقها واستراح من وجهها النحس،
واصبح شغله الشاغل كله . الجنرال كاسترو . الذى يحس نحوه حيننا
عجيبا . والجنرال جياب الذى يود من صميم فؤاده لو تتيح له الايام فرصة
صفعه على قفاه .

وجاءه النبأ المريع بعد أيام ، فقد انتصر الثوار وخسر الفرنسيون
المعركة ، وخسر هو كل ما عنده من نقود . . فلم تعد تساوى ثمن الجبر الذى
طبعت به . وتهاوى الفهلوى تحت عظم الصدمة فمرض واصفر لونه واستبد
به الهزال . . ثم اصيب بالشلل فلم يعد قادرا على الحركة .

وأيام طويلة كئيبة بائسة مرت عليه وهو يفكر عميقا فى المأساة . ويكاد
يفقد عقله وهو يتساءل فى ذهول : كيف هزمت فرنسا ؟ وكان أحيانا يخرج
من بحثه الطويل بسبب يرضيه ، لا بد انها ارادة الله ، فقد عصت فرنسا
تعاليمه ، وهو يعلم تماما انها بلد المساهر ، وانها بؤرة الرذيلة والشيطان .

شئ واحد فقط لم يستطع تعليله على الاطلاق .
كيف هزم الجنرال كاسترو . . وهو يحمل على صدره كل هذه المجموعة
الهائلة من النياشين .

وكيف انتصر الجنرال جياب . . . وهو فى بذلته الحقيبة ، وليس على
صدره أثر لنيشان . . . ويبدو فى الصورة غلبانا كعساكر البوليس . . لا بد
انها حكمة الله !!!

جنة رضوان



خيم المسكون والليل على « دحديرة » ابن طولون ،
ولفت المظلمة الحالكة كل شيء في الممر المضيق الملتوى
المتصق بجدار الجامع العتيق ، وخلا الطريق من كل
شيء الا من وقع أقدام بعض الرجال المتعبين المعاندين الى
منازلهم في أعلى الدحديرة ، أو طفل يجلس القرفصاء
بجوار الحائط يقضى حاجته •

ولكن من أول الدحديرة كان يبدو نور قهوة المعلم سلطان بأهرا كضوء
الشمس ، وصوت الراديو يلعلع من بعيد ، وعلى الضوء كانت أشباح
الجالسين في حلقات تظهر بوضوح ، وهم يتبادلون الجوزة فيما بينهم في
استرخاء طبيعي لذيق • والواد برهومة يلف كالدبور حول الزبائن والكراسي
وصوته يملأ الجوع الفاضل وع المليان ، وعندما شاهد المعلم رضوان مقبلا
من بعيد أول الدحديرة هتف وهو يضبط ساعته على التاسعة تماما :
— كراسى يا واد للمعلم رضوان وصحبته ••

ومع أنه لم يكن هناك واد سيلبى نداء برهومة ، الا أنها كانت عاداته
دائما كلما لمح المعلم رضوان مقبلا من بعيد • والمعلم رضوان زبون دائم منذ
أكثر من عشرة أعوام ، لم يتخلف يوما عن موعد حضوره الى المقهى كل
مساء فى التاسعة تماما • فهو يعمل خبازا فى فرن مجاور للمقهى ، وهو
يبدأ عمله فى الثانية عشرة تماما ، فهو يقضى فى المقهى كل يوم ثلاث ساعات ،
وكانت فلسفته دائما التى يشرحها لكل من يسأله عن سر مواظبته على موعد
المقهى :

- ونعمل ايه ، عشان يبقى البيت جنب الغيط ، مش أحسن ما نروح سيما ولا نسكر ونعمل منكر مايرضيش الله ! والحقيقة ان المعلم رضوان لم يغضب الله أبدا ٠٠ فهو فى الخمسين من عمره الآن ، وهو منذ أن ماتت زوجته وهو يعيش حياته على وتيرة واحدة ٠ من الثانية عشرة حتى الصباح أمام النار يخبز العيش ، ومن الصباح حتى غروب الشمس نائم فى البيت ، ومن التاسعة حتى بدء العمل فى الفرن على مقهى المعلم سلطان ٠ وهو لاياتى الى المقهى وحده ، بل دائما تحوطه شلة من الأصدقاء ، هو دائما أعلمهم ، ودائما أغناهم ، فجميع الطلبات التى تنزل الأرضية على حساب المعلم رضوان وفى ذلك المساء عندما حضر ومعه شلته اختاروا مكانا خارج المقهى وجلس صامتا يكركر فى الشيشة العجمى التى لا تفارق فمه أبدا مادام هو موجود فى مقهى المعلم سلطان ، ولكنه فجأة قطع الصمت المخيم على الجميع وهتف فى صوت ممطوط :

- أنا حلمت حلم النهارده ربنا يجعله خير ٠٠

وهتف الكل فى نفس واحد :

- خير انشالله ٠٠

وعاد المعلم رضوان يقول فى نفس الصوت المنغم الممطوط :

- خير !! حلمت ان واحد جه صحانى م النوم وقاللى قوم يا رضوان ، قتلته على فين ، قاللى اللى خلقك عاوزك ، قلت سبحان الله لا اله الا الله ٠

وبلا سبب أو مبرر مفهوم ، هتف أحد الجالسين على الفور :

- يا سلام يا معلم ٠٠ يحيى العظام وهى رميم ٠

- أمال ، قدرة ، الغرض أنا قمت معاه على طول ٠٠ فضلنا ماشيين مع

بعض لما صادفنا باب الأخضر دخلنا منه ٠

وقطع الحديث رجل آخر ، هتف وجسمه كله يهتز من النشوة ٠

- الله أكبر ٠٠ ربنا يوعدنا ، حاكم الباب الأخضر ده خير ٠

وفى ثقة واطمئنان ، قال المعلم رضوان :

- أمال ! ٠٠ الغرض دخلنا م الباب الأخضر بصيت لقيتك جناين على

كل لون ٠ ورد ، وزرع ، وخضرة ترد الروح وفواكه من كل صنف مالهاش

سعر ٠٠ جوافه ، وفول أخضر ، وتفاح أمريكانى م اللى كان ببيجى هنا قبل

الحرب ، حاكم النوع الذى شفته ده فى الحلم ، غنيه ماشفتوش بعد الحرب
أبدا ..

ورد شاب صغير كان يجلس مع الجمع المحتشد حول المعلم رضوان :
- يابخت اللى عاش قبل الحرب ، ده أبويا بيقول ان العشر بيضات كانوا
بقرش واحد .

وعلق بعض الجالسين على كلام الشاب بفتور .. وعاد المعلم رضوان
فاستأنف حديثه على الفور :

- الغرض بصيت لقيت فى الناحية الثانية وحوش من كل نوع ، غزلان
تلاقى ، سبوعة تلاقى ، لبو تلاقى .. انما هادية وواقفة ساكتة بأمر ربها .
سألت الجدد اللى معايا فى الحلم ، قتلته احنا فين ؟ .. قاللى احنا فى الجنة
ياعبيط ، وهو قال الكلمتين دول .. وبصيت مالقتوش قدامى وصحيت م النوم
قلت اللهم اجعله خير يارب .

وهتف الجميع فى نفس واحد :

- خير انشالله ..

وقال واحد :

- ده ربنا كتبك طولة العمر ، حاكم الموت فى الحلم يعنى عمر طويل ..
كل شئ يبقى عكسه فى الأحلام .

وضحك المعلم رضوان فى فتور .. وقال :

- والا الموت يا سيدى ، ما كلنا لها ، حد بيخال فيها .

وقال برهومة الجرسون ، وكان قد سمع شطرا من الحديث :

- أبدا وحياتك يا معلم .. شقى وأخرتها قطنة ، وياريت نطولها .

وجذب المعلم رضوان عدة أنفاس متلاحقة محمومة من الشيشة ، ثم قال

فى هدوء :

- ياعم والله بنتمنها ، هيه مقابلة ربنا حد يطولها .. بس ربنا يجعل

آخرتنا حلوة ، ونشوف الجنة ..

وسكت قليلا قبل أن يقول :

- دى الجنة حلوه يا جدعان ، اللهم صلى على أجدع نبى ..

ثم رفع يديه فجأة الى السماء .. وهتف على الفور :

- الفاتحة على روح أمواتنا وأموات المسلمين ..

ورفع الجميع أيديهم الى السماء ، وقرأوا الفاتحة في صوت خفيض ثم مسحوا وجوههم بأيديهم وجلسوا صامتين ، وقطع الصمت واحد منهم ، قال فجأة وكأنه يريد أن يطمئن نفسه :

— الجنة حلوه ، بس مين يطولها يا معلم .

وفى الحال رفع المعلم رضوان ساقه ووضعها على الساق الأخرى ، ومال بنصفه الأعلى الى الامام ، ونظر بعينه الضيقتين الى محدثه ، وقال فى هدوء شديد :

— كل المسلمين هيطلوها ، حاكم ، النبى بتاعنا متشفع لنا ، ووارد فى المكتب حديث عن النبى بيقول « يارب أمة المسلمين أنا متشفع لها » .

وفتح السائل فمه فى دهشة وعجب ، وقال :

— يا سلام ع القدرة يا جدعان ، بقى يعنى الواحد هيشوف الجنة ، سبحان الله . أنا كنت بقول الجماعة الفقرا اللى زى حالتنا عمرهم ما هيشوفوا ميتها .

وقال المعلم رضوان فى ثقة العالم بالأمور :

— كذب ، مافيش حاجة اسمها غنى وفقير عند ربنا ، كله يوم القيامة واحد . نقف فى طابور واحد قدام بابين ، باب أخضر وباب أحمر . الباب الأخضر ده الجنة والاحمر النار والعيان بالله . اللى مكتوبله الجنة يخش م الأخضر ، واللى بعيد عنكم مكتوب عليه النار يخش م الباب الأحمر . اللى هيخش م الأخضر بيص يلاقى على طول الجنان فى وشه . جناين مالهاش حدود ، ويلاقى السرايات على الجنين ، كل واحد يستلم سراية ، وحاكم سرايات الجنة مش كبيرة ، يدوبك على أد الواحد . وهيه كل الحكاية دورين . أول دور من غير مؤاخذه للأكل بس ، وتانى دور للنوم . وهناك نظام مفيش بعد كده . الواحد يصحى الساعة حذاشر ، اتناشر . على مهله ، مفيش شغل هناك ، وساعة ما يصحى ينزل يغسل وشه ، ويلبس جلابية بيضة نظيفة ، ويقعد ع السفارة زى الناس الذوات . بيص يلاقى ع السفارة دى كل شىء قلبك يحبه من خيرات الله . قول زى الألمان مهروس فى الزبدة البقرى الحلوه ، وعسل وطحينة ، وجبنه حلوم بخيرها ، واللبن اللى لسه محلوب من بز أمه ، والدقة اللى معمولية بصنعة نظيفة ، والعيش الأبيض اللى زى الفل ، وجرجير وفجل من خيرات ربنا اللى فى الجنينة . قول

ياكل ده بده ، ويقوم يتمشى شوية فى الجنانين ، أو يقعد جنب الشـــــــــــــــــباك
المفتوح ع البحرى يجيب تراوة ترد الروح ، حاكم كل الشبابيك اللى فى الجنة
ع البحرى ٠٠ والجو دايمًا هناك خريف يرد الروح ، ولا ترابة تـــــــــلاقى ،
ولا عفارة تلاقى ، حاجة نضافة مفيش بعد كده بقدرة ربنا ٠٠

كان الجمع المحتشد قد أصغى بكل ما فيه من حواس لحديث المعلم
رضوان ، وأشرف الجميع على مقاعدهم يستمعون فى نشوة وأعجاب وهم
يلعقون ألسنتهم تارة ، ويهرشون بين أفخاذهم تارة أخرى ويتشاءبون على
الدوام . ولم يحاول أحدهم أن يقاطع المعلم رضوان ، فعاد الأخير يسرد القصة
فى حماس هادئ جميل :

— المهم بعد كده ، الواحد يطلع تانى ينام ، ما هو مفيش شغل هناك ،
ولا قوم روح الفرن ولا شوف العجين ولا كافة حاجة من دى ، كل واحد حر
نفسه ، فعلى طول الواحد يطلع ينام تانى لحد الساعة خمسة ، الساعة ستة ،
على كيفه . وعند ما يصحى يلاقى السفرة متحضرة ، فراخ عتاقى محمرة ،
كتاكت مشوية ، أرانب بالملوخية ، كبده على كلاوى ٠٠ حاجات م اللى تجرى
الدم فى عروق الواحد وتخلي عنيه تفنجل .

ولعق المعلم رضوان ريقه ، وكذلك فعل بقية الموجودين ٠٠ وسأله واحد :

— مفيش شوية طرشى يا معلم ؟ ٠٠

ورد المعلم فى ثقة بالغة :

— دى مسألة مزاجات بقى ، عاوز طرشى يجبولك ، كافة شىء ترغبه
نفسك يحضر على طول ، آمال هيه جنبه ليه ؟!

ثم عاد المعلم رضوان يسرد قصته الجميلة ٠٠ والآخرون يستمعون فى
لذة فائقة :

— بعد الأكل بقى الواحد يغسل ايديه ، مفيش هناك حاجة اسمها تكسل
تغسل ايديك ، النضافة واجبة هناك . وبعد كده يجيبك الحور العين ، ستات
زى البقلاوة ، حاجة تفتح النفس ، مش زى الستات الللى الواحد بيشوفهم فى
السك دول ، ما يغركش الأحمر والابيض ، دى مسائل بوليتيكا كلها ، انما
هناك حاجة طبيعى بتاعة ربنا ، وكل واحد يختار الللى على كيفه ، حلاله .
وعلى أد الواحد مايحرم نفسه من الدنيا دى ، على أد ما يمتع نفسه هناك ،
والعين بالعين والسدن بالسدن ٠٠

وهتف واحد من الجالسين :
- الله أكبر يا معلم .. أد كده ..
ورد المعلم على الفور :

- آمال ، ماهو يعنى ايه حكاية العين بالعين دى ، يعنى زى ما تعمل
تلاقى . تهيص فى الدنيا وتلعب تنشوى فى نار جهنم ، تمشى عدل وتشوف
أوامر ربنا ، تتمتع زى ما بقولك دلوقت بالظبط ..
وسكت المعلم رضوان قليلا ، ريثما أزاح عمامته الى الخلف قليلا قبل
أن يقول :

- المهم الساعة اتناشر بالليل يكون العشا جاهز فى الجنة تنزل تتعشى
لقمة خفيفة ، شوية لبن ، حطة مربى ، حطة جبنه ، شويه زتون ، لقمة عيش
فينو . وتطلع تتمشى شوية فى التراوة ، وفى القمر الحلو .. حاكم القمر
ما يخنفيش أبدا فى الجنة . يتنه منور على طول . عاوز تشوف حد ، تود حد ،
عاوز تزور جماعة صحابك ، جماعة كده كده .. زى مانت عاوز ..

وهرش واحد من الجالسين قبل أن يسأل المعلم رضوان سؤالاً محيراً :
- لكن الجنة واسعة قوى يا معلم .. الواحد هيزور الناس فيها
ازاى ؟

- لا ما هو كل جماعة صحاب جنب بعض ، وع العموم ان كنت عاوز
تشوف حد فى الجنة بس تتمنى فى نفسك .. وعلى طول تشوفه .

- ازاى دى بقى ؟

وارتبك المعلم رضوان قليلا قبل أن يقول :

- الله !! أهو دا اللى حصل بقى . انت شريكه .

وسكت الرجل ، فقد أفحمه منطق المعلم رضوان .. ودار الهمس بين
الجميع ، وتحركت السنتهم بتعليقات شتى :

- صحيح يا ناس ربنا قادر على كل شيء ..

- سبحانه .. هوه المغنى ..

- يعز من يشاء ، ويذل من يشاء ..

- ده ربك كبير ..

وعندما سكنت الأصوات ، وهم المعلم رضوان باستئناف الحديث من جديد ، زعق الواد برهومة كالغراب :

— يا معلم رضوان ، الساعة بقت اتناشر ..

وضرب المعلم يده فى جيب الصديرى فانقزع ساعته الضخمة القديمة .. كانت الثانية عشرة تماما .. فأعادها الى جيبه من جديد ، وقام فانتحى ببرهومة جانبا وحاسبه على المشاريب ، ثم حيا الجميع من بعيد ، وراح يحث الخطى على بلاط الدحديرة حتى وصل الى الفرن . وعندما أصبح فى فم الباب أحس بوهج النار تكاد تلهب بحرارتها حتى الجدران ، ونسى المعلم رضوان كل شيء ووثب نحو الداخل على عجل ، وخلع جلبابه فعلقه فى رأس المسمار ، ثم قفز الى أسفل وفتح باب الفرن ، فأحس كأنه فتح بوابة جهنم ، وتصبب العرق على جبهته بغزارة وهو يتناول أرغفة العيش ليقذف بها داخل النار ، وفى رأسه تطوف كل الصبور التى رسمها بنفسه للجنة التى لا بد وأن يراها فى يوم من الأيام ..



غيط القصب



يا وكستك يا حمدان بعد العمر الطويل تطلع حرامى
وتدخل اللومان ويموت أولادك من الجوع فى كفى
الغنائم ٠٠ وانت طول عمرك شريف تضع على رأسك
لبدة ، وعلى صدرك نمرة ، وعلى كتفك بندقية تحرس
بها غيط القصب للشركة ، ولك مرتب ثابت كالمستوظفين
وانت طول عمرك قانع يا حمدان بالجنيهاات الثلاثة كل
شهر ، تدفع اثنين منهم للعيال فى كفى الغنائم ،
وتصرف انت واحد طول الشهر تأكل وتنام وتلبس
وتشرب المشاى وأحياناً تدخن السجاير الممتازة .

والجنيه صحيح لا يكفك ، والأمراض تنهش جسمك والروماتزم ينشر
عظمك وأصابع قدميك تطل من بوز الجزمة ، والعقارب تسرح حولك فى الجحر
الذى تأوى اليه والشقوق التى تمزق يديك تقيحت والخيبة تحط عليك من
كل مكان .

وقطع على حمدان تفكيره غلام جاء يعدو من بعيد ، ويزعق بصوت
كريبه وكأنه غراب :

— فز يا حمدان لفندى فى الشركة ٠٠

وزام حمدان كأسد أسير ولم يتكلم ، وأعاد الولد نداه ، ثم استدار
وراح قافزا مثلما جاء ، وقضم حمدان أبهامه ، ثم نكش شعر شاربه المنفوش ،
وعاد يفكر فى الوكسة العريضة التى أصابته آخر الزمان ٠٠ فلا بد أنها ساعة

نحس تلك التى رآه فيها الأفندى معاون الشركة وهو يبيع حزمة القصب
بقرشين والأفندى معاون مؤذى لا يرحم أمه ، وسيطرده حتما وربما قدمه
للمركز مقبوضا عليه ، والمركز يسمع كلام الشركة ٠٠ ونهارك أزرق يا حمدان
لو سجنوك ٠٠ فمرة قبل الآن ضبطوه وهو يسرق القصب ٠٠ ويومها سلموه
للمركز ٠٠ وضربه العساكر بالكفوف والقوايش ٠٠ وبات أربعة أيام على
الأسفلت ثم أطلقوه حرا بلا تهمة ولا عمل ٠٠ لانهم فى الشركة استغنوا عن
خدماته ٠٠ وليس يعقل أن تقبل الشركة بين خفرائها لصوصا من عينة حمدان
٠٠ ولكن حمدان ليس لصا ، وهو لا يصدق أبدا أن الشركة تفصله من أجل حزمة
قصب يضع مثلها عشر مرات فى كل ساعة ، طعاما للذباب ، والفلاحين الذين
يعبرون الطريق ، واللصوص الذين يعيشون داخل غيط القصب والشركة لن
يلحقها الخراب من أجل حزمة قصب يبيعها حمدان لابد أنها عين أصابته من
العاطلين المطوعين على جانبى السكك فى كفر الغنايم ، وحفيت أقدام حمدان
عند الشيخ ، وعند النائب ، وقبل رجل الضابط ، وانحنى على يد الشاويش ٠٠
ونام أياما عند بيت معاون ٠٠ ثم قبلت الشركة أن يعود الى عمله على
شرط الا تمتد يده الى عود واحد من القصب ٠٠ ورضى حمدان بشرط الشركة ٠٠
وهو على يقين بأن يده ستمتد دائما الى غيط القصب ينتزع منه عيدانا يمصها
وأخرى يبيعها ويحصل على ثمن الدخان ، وغيط الشركة مثل بحر المالـح
ليس له برور ٠٠

وعاد حمدان الى غيط القصب يحرسه ، والتجربة التى خاضها قد
غمرت نفسه بأحاسيس جديدة ، وحركت برأسه أسئلة كثيرة لم تكن تطوف به
من قبل لماذا تكره الشركة السرقة عندما تكون من جانب حمدان ، مع أن
الشركة تسكت على سرقات على نطاق أوسع من جانب لصوص يعيشون
داخل القصب ، والشركة تعرف هؤلاء واحدا واحدا ، وتدفع لكل منهم أجرا
كبيرا يوازى أجر المدير ٠ وتحترمهم أيضا وتتركهم ينتزعون محصول فدادين
كثيرة والشركة تبدو راضية كل الرضى ٠٠ بل انها فى أحيان كثيرة تأمر
بتعيين أنفار لا حاجة اليهم لأن هؤلاء اللصوص أشاروا بتعيينهم وهو يعرف
هؤلاء اللصوص جيدا ، فهم ينزلون ليالى كثيرة عليه ويقضون ساعات
الليل معه ، يشربون الشاي ويتحدثون احاديث فاجرة ٠٠ ويشتمون المدير
والمعاون ويتحدثون عن الضابط حديثا صريحا وكأنهم لا يخشونه ، ومن خلال

تلك الأحاديث فهم حمدان أنهم على علاقة وثيقة بالشيخ وبالنائب ، وأنهم أحيانا ينزلون ضيوفا عليهم وعلى الأعيان يأكلون ويسمرون وكأنهم معهم فى نفس المنزلة ..

وتوقف حمدان عن السرحان فقد ناداه خفير آخر من عند باب الشركة بصوت مرتفع ..

- يا حمدان كلم لفندى المعاون عاوزك ورد حمدان بصوت أعلى :

- طيب ، يعنى هو مستعجل جوى ع الشر ..

واستدار الخفير الآخر ومضى داخل الشركة ، وعندما غاب عن ناظره عاد يفكر وهو يتساءل فى دهشة عن السر الذى يفصل بينه وبين هؤلاء اللصوص الذين يعيشون داخل غيط القصب أنهم ليسوا أقوى منه جسدا ، بل هو أقوى من بعضهم ! طوله مفرط ، وقلبه ميت لا يخشى الأسود ومعه بندقية من نفس النوع الذى يحملونه ، ولكن هو عار ، وهم فى أبهى حلة ، الجلابيب الصوف والجوخ فى الشتاء ، ومن تحتها القفاطين الشاهى والجزم الطويلة فى أقدامهم ومن تحتها الشرابات الصوف ، والكتاين الذهب تتدلى من جيوبهم وفى الصيف يلبسون الحرير الطبيعى والفانلات المشغولة بالابرة والصنادل التى تكشف عن الأصابع والكعبين . وهو مفلس دائما ، وهم دائما فى سر ، محافظهم منتفخة ، وسجائرهم من نفس النوع الذى يدخله الضابط واللفندى المعاون ، وهو يشرب السجائر المفرط ، ولا يجدها بسهولة فيمد يده الى غيط القصب ليعيد عصافير رأسه التى تهرب منه وتطير .

سؤال غريب . احتار حمدان فى البحث عن جوابه .. ماذا يفصل بينه وبين هؤلاء اللصوص حتى أنهم يرتعون فى النعمة ، ويشرب هو كل ما فى الوجود من نل وهوان يرعبه الضابط ، ويبعد النوم عن عينيه أفندى مفعوص مثل المعاون انه أقوى من بعضهم والسلاح الذى معه مثل السلاح الذى معهم ولكنه يمتاز عنهم بأشياء كثيرة هى انه يستطيع المشى أمام مركز البوليس فى أى وقت يشاء وهم لا يستطيعون . وشيخ البلد يسأل عنه أحيانا ، ولا يسأل أبدا عن هؤلاء المطايرد والنائب زاره مرة فى بيته وجلس معه فوق الفرن وشرب معه الشاي وعامله بمودة ويوم الانتخابات ذهب ومعه تذكرة القى بها فى صندوق . والآخرين لا يستطيعون أن يذهبوا فليس لهم تذاكر ، وليس لهم

عند الحكومة وجود * وهو يخدم الشركة ، والآخرين يسرقونها ومع ذلك فله منها الاحتقار ، ولهم منها العطاء * أحوال مقلوبة مثل كل شيء فى الوجود ، ويبدو أنها ستظل مقلوبة ، ولا سبيل الى اصلاحها على الاطلاق * ولو أن هناك عدلا لمنحته الشركة العلاوة التى طلبها منذ عام ، اذن لما سرق ، ولما وقف هذا الموقف الذى لا يدرى كيف يواجهه * فقد فات الاوان واقشعر بدن حمدان كله وهو يتخيل نفسه فى الحديد ، وصفا من الجنود يحرسه ، ثم المحاكمة والسجن ومصير أسرته فى كفر الغنائم وكلام الناس عليه * وأطفاله كلهم صغار ليس فيهم من يستطيع أن يعول العائلة وكفر الغنائم كله سوف يشمت فيه * وستهنون أسرته وتذل ، وستخدم الذى يسوى والذى لا يساوى شيئا فى سوق الرجال * وهو نفسه بعد أن يخرج من السجن ويعود الى كفر الغنائم ، ماذا يفعل وهو لم يكن يجد عملا فى الحقول قبل أن يعمل فى الشركة ، انه سيبقى ملطوعا على جدار المضيفة يدور مع الشمس اينما تدور *

ولو أنه لم يسرق القصب فى تلك الساعة المهيبة التى كان المعاون يمر فيها على الخفراء لما حدث من هذا شيء ولكن ، الله يخرب بيته محمد أفندى المدرس الإلزامى هو الذى أصر على شراء حزمة القصب فى تلك الساعة لأن أولاده مغرمون بمص القصب فى النهار وهو طول عمره يسرق القصب ويبيعه فى الليل ، ولكن هكذا أراد له القدر ومحمد أفندى وأولاده المغرمون بمص القصب فى النهار أسباب ليس الا وليس أمامك يا حمدان الا التسليم بإرادة الله *

ونفخ حمدان وهو ينتزع بأصابعه من جيبيه الداخلى سيجارة يشعلها عليها تهدى أعصابه ، وتضغط بدخانها على الثورة التى تجيش بنفسه ، ولو كانت العسكرية قبلته لاستراح من هذا كله ، ولكنه لسوء البخت - أقرع - والعسكرية لا تأخذ القرع وعلى عينيه الشمال سحابة أصابه بها مرض لا يدرى عنه شيئا كاد يفقده نور عينيه وهو طفل صغير *

وأشعل حمدان السيجارة ، وجذب منها أنفاسا عميقة * وراح ينظر بعين نافذة الى غيط القصب الذى يتراعى أمامه عريضا مثل البحر المالح ليس له برور * وفى داخله تسكن اسود كاسرة من البنى آدم تحتقر المسدير والمعاون ، ولا تخشى الضابط ولا تعمل حسابا للخفراء وتلبس الصوف فى

الشتاء والحريز فى الصيف وجيوبها عامرة بالمال ، وسجائرهما فاخرة
النوع ، ولها من الشركة مرتب الخواجة المدير ، ومصمم حمدان شفتيه
وبدت على وجهه ابتسامة أرعشت معاله كلها . وجاءه نداء مرتفع من
الخلف يطلب اليه أن يسرع فى مقابلة المعاون . ولكن حمدان لم يسمع
النداء ولم يهتم به ، فقد تحسس سلاحه ونهض على قدميه ، واخترق هذا
السياج الذى يفصل بينه وبين الاسود الكواسر التى تسكن الغيط وانفرجت
أعواد القصب وتهشمت تحت أقدامه أعواد ما لبثت أن عادت وتآلفت ، وغاب
حمدان من خلفها عن الأنظار . وغدا سوف يصبح حمدان واحدا من الاسود
الكاسرين .



شد اللبان



يخرب بيت الذين نصحوك يارشوان بركوب المركب •
لقد انهد حيلك وانقطع قلبك ، وستموت حتما قبل أن
تصل الى مصر ، ولو فعلت كما أوحى لك تدبيرك وعقلك
لكنت الآن في الطريق الى مصر خفيفا على قدميك ، ولما
كانت الحبال قد أدمت كتفك وعنقك وانت مربوط فيها
طول النهار كأنك قرد ، والمركب من خلك ، ومن فوق
المركب آلاف البباليص ومن فوق البباليص عشرة رجال
يملكون المركب ولا يتحرك رجل منهم ليشد اللبان قليلا
يا رشوان •

وزفر رشوان زفرة حارة وهو ممدد كالفسيفة على ظهر المركب ينظر
فى نجوم السماء ، ومياه النيل ساكنة متموجة فى رفق ، ولا نسمه هواء
ويبدو انها لن تكون وسيشد اللبان فى الصباح كما شده كل يوم منذ شهر ،
ورفع رشوان يده التى أدامها الحبل يتحسس عظامه التى تحطمت وعروق
رقبته التى برزت وانتفخت وأصبح لونها أزرق من النيلة •• انه الآن فى بنى
سويف وبعد خمسة أيام سيصبح فى مصر ولكن من يدرى ، فقد لا يصل الى
مصر أبدا انه يحس الآن احساسا صادقا نابعا من جروحه التى تقيحت ، انه
سيموت فى الطريق وسيدفن فى قبور مهجورة مجهولة كالكلب ، والله ينكد
على صالح فهو الذى أشار عليه بهذه المشورة المهيبة وأكد له أنه لن يشد
اللبان أكثر من يوم •• وربما يومين وأحس رشوان بحركة غريبة من خلفه

فاستدار بعنقه ليرى من هناك ، ولم يكن هناك سوى الرئيس سليم الذى يملك أكبر حصّة فى المراكب ، وكان يتأهب للصلاة ، فرش جلبابه ناحية القبلة ، ثم بسمل ورفع يديه نحو رأسه ، ولكنه فجأة أحس برشوان يتقلب على ظهر المركب كالسمكة فسأله فى استنكار :

- جاعد كده ليه يارشوان ، عما تفكر فى ايه ؟

- فى حال الدنيا ..

- وما لها الدنيا ما هى عال ..

- عال جوى عشان مانت جاعد زى البلاص طول النهار ، وأنا عما اشد فى اللبان لما انهذ حيلى ..

عجائب ياخوانا على رجالة اليومين دول .. دى رجالة ورج .. وهلل الرئيس سليم وكبر واستغرق فى الصلاة ، ومرت على ذهن رشوان كل ذكريات الأيام المريرة التى عاشها فى النهر على ظهر المركب ولا عمل له الا شد اللبان ، فهو فى حاجة فعلا الى السفر الى مصر ، بعد أن وصله خطاب يفيد بضرورة الحضور للعمل فى شليش الخضار بروض الفرج ، وكانت أمنية رشوان الوحيدة أن يجد عملا فى مصر ولو من غير أجر ، فهو يعلم أن زيدان وعبد المعبود بدأوا حياتهم فى الشليش بوجبات اليوم ثم أصبحوا بعد ذلك معلمين كبارا وأصحاب أطيان ، وهو لا يهتم كيف يبدأ المهم أن يجد ما يبدأ به ، ولكن المشكلة كانت فى الطريقة التى يسافر بها الى مصر وهو لا يملك نقودا ولا يستطيع أن يقترض وفكر رشوان بعمق ثم قرر فى النهاية أن يرحل الى مصر مشيا على قدميه ، فكرة وليس أمامه سواها ، وهو لمن يعدم وسيلة ليجد غذاء وثمان الدخان على طول الطريق ، ولكن صالح وجد له حلا للمشكلة : لماذا لا يركب مركبا الى مصر ولن يدفع شيئا ، ولكنهم سيطلبون منه أحيانا أن يشد اللبان عندما تكون الريح هادئة والمركب عاجزة عن السير فى مجرى النهر .. وصالح نفسه جرب هذا من قبل ، ودخلت الفكرة رأس رشوان وهو قوى ويستطيع شد المركب عندما تهدأ الريح .. وهى لا تهدأ الا يوما وربما يومين ، وذهب رشوان الى النهر ، وساوّم واتفق وجاءت قرعته فى مركب الرئيس سليم .

وكانت الريح عظيمة نشطة ، والمركب تسير كالونش ولا حاجة هناك لشد اللبان ، خمسة أيام فقط ثم هدأت الريح تماما وكأنها ماتت .. وجاء الدور

على رشوان ليجرها بدل الريح ، وهكذا ربط نفسه فى انحبال وغاص فى الطين
عند حرف البحر وهىلا هوب والمركب تنهادى من خلفه ومن فوقها البلايص
ومن فوق البلايص عشرة رجال ، ومضى يوم ويومان وأسبوع والريح يبدو
أنها لن تبعث من جديد ..

ولو واحد فقط من الذين على ظهر المركب يشد اللبان ليوم واحد يستريح
فيه رشوان اذن لصار قادرا على الشد أيد الدهر ، ولكنهم جميعا يرفضون ..
انهم أصحاب المركب ، كل منهم له حصة ، ثم ان الاتفاق حدث بينهم وارتضاه
رشوان ولم يجبره أحد على أن يقبله .. وفى الأمسيات التى كان يسهرها
رشوان مع الرجال العشرة كان أحيانا يثور على الوضع الذى انتهى اليه
الحال على ظهر المركب ، وكان يصرخ فيهم محتجا ..

— هو ما فيش عدل .

— كلام ايه ده الملى انت بتجوله ؟

— هوه ما فيش رجالة تانى تشد .

— ما هوه انت الملى رضيت ، كان حد ضربك على جفاك ؟

— طيب وسيدى عبد الرحيم لماشى بكره وسايب المركب .

— مع السلامة يا خى ، انت حتشاركنا ولكنه كان يعجز دائما عن تنفيذ
وعيده ، انه لا يستطيع أن يغادر المركب ، لقد شد اللبان أكثر من أسبوعين
فكيف يتركها اذن وقد تهب الريح فجأة فيستريح ، ثم هى لا بد أن تهب حتى
لا يفوت الوقت وتضيع الشغلة .. ولو ضاعت اذن لمات جوعا فى مصر ،
وماتت الأولاد فى الصعيد . ولكن الريح ظلت ميتة حتى وصل المركب الى
أسيوط .. ونامت بعد ذلك بجوار الشاطئ خمسة أيام كاملة ولم يغادرها
رشوان أبدا كان مشغولا عن النزول الى البر بجروحه وهمومه وتفكيره الدائم
فى الشغلة وفى الأولاد ، وفى عبد المعبود وزيدان وصابر الذين أصبحوا
بنكيرة وأصحاب أطيان .. ثم جاءت الريح بعد ذلك وانزلت المركب فى الطريق
الى مصر ، واستطاع رشوان أن يهدأ وأن يطيب جروحه ، وأصبح قادرا على
الحركة وعلى المشى .. وأحيانا كان ينزل الى البر عند القرى التى تقف
عليها المركب فيطوف فى داخلها يشاهد معالمها .

ان الجو بعد أسيوط أرق منه فى داخل الصعيد ، والخير هنا أكثر
والناس أنظف وأغنى ، والنساء أجمل ولونهن أفتح من اللأى فى الصعيد

لأبد، أن النساء فى مصر يشبهن الخواجات السواح اللاتى يَفْدَن الى الصعيد فى الشتاء ، وياخرايك يا رشوان لو وقعت فى واحدة منهن ، عندها مال قارون ، وعمارات مثل عبد المعبود ، وغيطان مثل زيدان ، ياخرايك يارشوان لو حدث الذى فى بالك ، ولماذا لا يحدث ؟ والواد الترجمان العدمان صمويل ماتت فى دباديه خواجية من أمريكا ، وأصبح صمويل العدمان من أعيان أسوان وابتسم رشوان وهو يتخيل نفسه فى الجبة الجوخ والقفطان الحرير والعصايا الكريز والجوز الأجلسيه ، والخواتم الذهبية فى أصابعه والملاسة الكشمير على كتفيه ، والعيال فى الصعيد سيدفع لهم كل شهر مائة جنيه ، بل تكفى عشرة ٠٠ أحلام جميلة قد تتحقق ، ولكن لو تهب الريح فتدفع المركب الى مصر قبل أن تظير الشغلانة وهو يعلم أن العاطلين فى مصر أكثر من البلايص فى الصعيد ، ولكن الريح تموت مرة أخرى عند المنيا ، وهات ياشد ٠٠ ويئن رشوان ويتوجع ولا مجيب وقد استطاع أن يصل بالمركب الى بنى سويف ، وأمامه الآن خمسة أيام لو هبت الريح والريح كانت دائما تهب قبل أن يركب هو المركب ٠٠ ولكن لماذا ركب هو فى بؤونة ٠٠ انه سوء الحظ ٠٠ وكان من الممكن أن يستمر رشوان فى شد اللبان لولا زجاجة كبيرة مشطورة نصفين دخلت فى رجله فقطعتها ونزف دمه كأنه يسيل من حنفية ٠٠

وأحس رشوان بهبوط فى قواه ٠ فنام على ظهر المركب وقد حشا الجرح المفتوح طينا وترابا ولفه بخرقه وجدها عند الشاطئ وراح يزوم كالكلب المصاب ، والجرح يزداد ألما ، والحمى التى كانت فى ساقه الجريحة شملت جسمه كله ٠ وراح رشوان فى غيبوبة ٠٠ يتذكر أم عياله التى تركها بلا قرش ، وعياله الصغار والمشغلة التى فى الشليش ، والشورة المهبية التى أشار بها صالِح والتى لولاهما لكان الآن يسير على قدميه خفيفا كالفراشة نحو مصر ٠ ولم يدر رشوان وهو فى الغيبوبة ان الريح قد هبت قوية رغم بؤونة ، وان المركب تنزلق بسرعة مع التيار وانه قد أصبح فى مـديرية الجيزة ، وفى الصباح سيكون فى مصر ٠ لم يدر بشئ من هذا كله ، فقد كانت الحمى تأكله ، وتأكل وعيه ، فكان لا يرى الا الماء ولا يذكر الا شد اللبان الذى جاء بخبره ٠ وفى الليل حلم رشوان ، أحلاما مزعجة وهذى بكلام كثير حتى أن الرجال أصحاب المركب أيقنوا أنه سيموت فالتفوا حوله ، يبللون جبهته بالماء البارد ويقرأون حوله بعض الآيات ٠٠

وعندما جاء الصباح كانت المركب قد بدأت فى رحلتها مع التيار منذ
الفجر ، وكانت الشمس تقف عالية ناحية الشرق ورشوان ممدد مكانه على
ظهر المركب فاتحا عينيه وقد زالت عنه وطأة الحمى القاسية التى استبدت به .
ونهب فى تناقل وقد تأكد ان المركب تجرى وأن الريح تهب قوية نشطة .
والتيار يدفع بالمركب سريعا نحو مصر . وعندما رأى على الشاطئين البعيدين
سرايات جميلة وسيارات تسابق الريح تأكد انه أصبح فى مصر فاستدار الى
الناحية الأخرى مدققا النظر فى معالم الطريق الذى ينحدر فيه . وعندما رفع
بصره أمامه أشرق وجهه الكاليج ، وارتسمت ابتسامة عريضة على شفتيه . كان
كوبرى عباس يقف على بعد قليل يسد مجرى النهر وكأنه حارس عنيد . وجلس
رشوان مكانه وهو يشكر الله على أن نجاه من موت أكيد . وعندما اندفعت
المركب أسفل الكوبرى فى طريقها الى روض الفرج طاف بخياله عبد المعبود
وزيدان وصمويل الترجمان الذى أصبح بنكيرا ومن أعيان أسوان .



بإعزير



ازدانت القرية فى ذلك الصباح وشغلت نفسها بالحديث عن القادم اليها .. هذا البية الدكتور السدى يعرف كل شىء وفى رأسه علم الدنيا .. والمذى شرب العلم من بلاده ، عندما كان فى بلاد بره ، حتى فاق أهل بره علما وفنا !! ..

ومن فى الدنيا لا يعرف الدكتور شريف « ده متعلم فى أمريكا يا جدعان وشارب العلم من بز أمه » ..

هكذا أكد شندى لأهل القرية وهو يتحدث عن البية الدكتور السدى سيشف القرية فى المساء ليتحدث الى الفلاحين عن كيفية حلب البقرة ، ووسائل زيادة الثروة الحيوانية .. موضوع المحاضرة كما كتب على تذاكر الدعوة التى وزعها عضو مجلس الشيوخ على كبار المزارعين والأعيان ..

ولكن الفلاحين الغلابة لم تصل اليهم دعوات لحضور المحاضرة اكتفى العمدة بالمرور عليهم فى بيوتهم فى موكب مهيب من الخفراء وشيوخ الخفر ، وشيوخ البلد ، ونبه على كل منهم ألا يتأخر فى الحضور الى المركز الاجتماعى حتى لا تفوته محاضرة الدكتور ، لم ينس العمدة أن يخبرهم وابتسامة عريضة ترتسم على شفتيه أن البية المأمور سيشف الحفلة ..

ولم يعد هناك حديث للفلاحين الا البية الدكتور والمحاضر وراح كل منهم يرسم بخياله الواسع صورة للدكتور المتعلم بره .. فى أمريكا ، والمذى فاق أهل بره علما وفنا ..

- ولكن .. ما هى الثروة الحيوانية دى يا جدعان ..
هكذا تساءل أحمد البديوى ريس أنفار الدودة فى عزبة العمدة ، وسارح
محمد أفندى المدرس الالزامى بالرد عليه .

- الثروة الحيوانية يا بهيم ماتعرفهاش ..
وضحك أحمد البديوى حتى استلقى على قفاه ، وقال وهو يلهث من شدة
استغراقه فى الضحك ..

- يعنى هوه أبويا كان ودانى الجامعة ..
وضرب محمد أفندى كفا بكف وهو يلعن أبو البهايم .. ويزوم مثل كلب

جريح ..
- بقى فيه حد لسه مايعرفش الثروة الحيوانية يا جدعان وعاشين فى
الدنيا تعملوا ايه بالذمة . الثروة الحيوانية يا حيوان يعنى يعنى بدل مايبقى
عندك جاموسة تبقى عندك جاموستين ..
ورد احمد البديوى على الفور :

- طيب ويبقى عندى جاموستين ازاي وأنا ما ماعنديش فلوس . هوه أنا
لاقى أهرش ..
وضيق محمد أفندى ما بين حاجبيه وعينيه . وراح يخلع بأظافر يده ،
أظافر قدمه ، وقال فى هدوء بالغ :

- أهو ده اللى هتتعرفوا النهاردة فى المحاضرة ..
ثم أضاف بعد فترة صمت طويلة :

- حاكم البلاد كلها راح تشوف التمدن ، وبلدنا دى مكتوب عليها
الفقر ، طول مافيهها بهيم زى احمد البديوى .
وآثارت العبارة الأخيره احمد البديوى فزعق على الفور :

- جرا ايه يا محمد أفندى ، احنا يعنى غلطنا فى البخارى ، هو ده اسمه
كلام برضه ، بقى يعنى حلب البقرة عاوز محاضرة .
وضحك محمد أفندى طويلا ، وقال وهو يهز رأسه بشدة :

- محاضرة يا بهيم .. مش محاضرة ..
- أنا عارفك بقى .. أهو محاضرة زى محاضرة ..
ونفض محمد أفندى ، وقبض بيده على حفنة تراب وهو ينفض متناقلا ،
لقى بها على رأس البديوى ، وهو يقول ضاحكا :

- ياراجل روح شوفك تربة ، قبل الموت ما يغلى • وقال البديوى دون
ان يتحرك :

- أهو الموت جى •• يعنى هوه احنا راح نخلل ••
وعندما ابتعد محمد أفندى عن الجمع المحتشد عند دكان ونجث ، تساءل
ابراهيم عطوه فى خوف شديد :

- هوه الدكتور الملى جى الليلة راح يكشف ع البهايم ••
وهرش البديوى فى قفاه •• قبل أن يقول :
- حد عارفهم حاجة ••
وقال ابراهيم عطوة بحذر :

- حاكم البهيمه بتاعتنا عيانه قلت أخبيها هنا ولا هنا •
وارتفع صوت من وسط الجلسة يقول :

- خبيها برضه أحسن ، ما حدش عارف ايه الملى راح يجرا
وفى المساء كان المركز الاجتماعى يسبح فى الضوء ، ويموج بالمئات
الذين توافدوا اليه من أنحاء القرية والقرى المجاورة • وكان عساكر البوليس
يضربون حوله نطاقا ، وثمة صوت مزعج يصرخ فى الميكروفون لتجربته قبل
بدء الحفلة • ولم يكن بين الجمع الحاشد واحد من الأعيان اللهم الا عبد
الرسول شحاته وهو يملك عشرة أفدنة لا غير ، ومع ذلك أصر على الجلوس
فوق الكراسى القטיפية ، ورفض أن يتلحح من فوق الكرسي ولو اضطره الأمر
الى ارتكاب جناية !

وبعد قليل أقبل المأمور ومعه الدكتور شريف وبعض الأفندية ، فافسح
الناس لهم طريقا •• وسرعان ما اتخذ الجميع مجلسهم فى الصف الامامى ،
وأصر المأمور على ألا يجلس قبل أن يجلس عضو المشيوخ والدكتور أولا ••
كان الدكتور شابا فى الثلاثين من عمره يرتدى بذلة حريرية بيضاء ،
ويلبس نظارة سوداء رغم أن الشمس كانت قد اختفت منذ ساعات ، ويبدو
نحيفا خفيفا كأنه ريشة حمامة بيضاء ••

وهمس الفلاحون بأن العلم هو الذى سلبه حيويته ونضارته وأكل شبابه ،
وانه لولا العلم لكان مثل طور الوسية ، أو مثل احمد البديوى على الأقل ••
وعندما انتهى المقرئ من التلاوة ، قام الدكتور فى خفة ووقف أمام
الميكروفون ، وبعد أن تنحنح وشرب شفقة ماء واحدة قال فى صوت جميل ،
وعبارات واضحة :

- أيها الفلاحون الزملاء • السلام عليكم ورحمة الله •
ورد الجالسون جميعا وفى وقت واحد :
- وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته ••
ولكن يبدو أن الدكتور لم يكن ينتظر ردا منهم فأسرع مواصلا حديثه
على الفور :

- أن موضوع الساعة هو كيفية حلب البقرة ، ووسائل زيادة الثروة
الحيوانية ، وسأتحدث اليكم بعد خبرة خمسة عشر عاما قضيتها فى
أمريكا ••
فأولا لكى نحلب البقرة يجب أن يتم حلبها فى مكان نظيف مدهشون
بطلاء أبيض لراحة أعصاب البقرة ••

وثانيا يجب أن تتم عملية الحلب بواسطة خبير فى هذه العملية ويستحسن
أن يكون مرتديا قفازا من الجلد الناعم ، وجلبايا أبيض معقما فى درجة
حرارة أربعين مئوية ، ويجب وضع كمادة على الأنف أثناء عملية الحلب حتى
لا يتلوث الحليب بالميكروبات المختلفة ••

والى هذه اللحظة كان الجميع صامتين •• ولا حركة • ولكن أبو سويلم
الخفير •• هتف فى اذن جاره :

- همه راح يفرقوا علينا كمادات هيه الحـرب قامت والا ايه
يا جـدعان !!؟

ولم يدر أبو سويلم الا وصف طويل أمامه يضحك بصوت عال • كان
يجلس فى المصف معاون المستشفى ، وموظف البوستة • ولم يسكتوا الا عندما
التفت الأمور الى الخلف •• فعاد الصمت من جديد يخيم على الصالة ، وعاد
الدكتور الى حديثه قائلا :

- ولكى يكون اللبن مفيدا ومحفوظا بكافة المواد الغذائية يجب حفظه
فى أوان من المعدن ، ويلاحظ تعقيمها قبل وضع اللبن فيها • كما يجب
معاملة البقرة قبل عملية الحلب معاملة حسنة بحيث لا تتوتر أعصابها فتفسد
اللبن ، ويصبح غير صالح للاستعمال ••

وصمت الدكتور قليلا ريثما تناول شيفطة أخرى من كوب الماء الذى أمامه
ثم تناول منديل الحيرى ومسح به نظارته السوداء ، ثم أعادها كما
كانت وضرب بيده على المائدة •• وقال فى صوت جميل •

- وإذا اتبعتم هذه النصائح فسيزيد مقدار اللبن ، وسيصبح في مقدور البقرة أن تلد ولادة سهلة وميسورة ، وسيزيد وزنها حتما بفعل الراحة والمعاملة الحسنة ..

وفجأة قفز من بين الجالسين شيخ عجوز في السبعين من عمره ، وسأل في لهفة :

- ياسيدى الدكتور ، احنا راح نستلم البقرة امتى ؟ .. وضربت لكمة مع الدكتور فلم يدر كيف يجيب على سؤال العجوز . ولكنه بعد فترة رد على سؤاله بسؤال آخر :

- بقرة ايه ؟ ..

- البقرة الللى احنا راح نعاملها كويس
وابتسم الدكتور ابتسامة هادئة وأجابه :

- البقرة الللى عندك ..

وقال العجوز :

- أنا معنديش بقرة !!

وارتسمت علامات الوقار على وجه الدكتور وقال :

- لكن احنا بنتكلم عن الللى عندهم بقرة ..

وظاقت الصالة وارتفع الهمس بين الفلاحين . واحنا ما عندناش بقر ، والللى عنده حنة جاموسة عامل أبو على .. والنبي يخيب خبيتك الللى ما يقول يا عزيز .. يا عزيز ! ..

ولم تفلح التفاتة المأمور هذه المرة في إعادة السكون فاضطر الى أن يرفع صوته « هص .. هص » ..

وسكت الناس من جديد . غير أن الضجيج عاد عندما بدأوا يخرجون من الصالة ، خرج الرجل العجوز أولا ، وتبعه أبو سويلم الخفير ، وخرج خلفه أحمد البديوى ، ونصار الأقرع .. وتسلسل العشرات خلفهم الى الخارج ، وعندما انتهى الدكتور من محاضرتة لم يكن موجودا هناك سوى محمد أفندى ، ومعاون البوسطة ، ومعاون المستشفى والعمدة ، وعبد الرسول شحاته ، فقد كان قرب المسافة بينه وبين المأمور يغريه بالبقاء .

وعندما انتهى الدكتور من محاضرتة . صافح المأمور أولا ، ثم مد يده فصافح بقية الموجودين . وعند الباب الخارجى ، تقدم محمد أفندى اليه

فأشاد بالخطبة وموضوعها ، وبعلم الدكتور العزيز ، ولم ينس أن يشيد
بفضل البية المأمور في استتباب الأمن والنظام في دائرة المركز ..
وقال وهو يصلح من شأن جاكنته الكالحة :
- ماتزعلش من أهل بلدنا يادكتور . حاكم دول ناس بهائم !!
وقال الدكتور في هدوء ، وشبح ابتسامة طيبة ترتسم على شفتيه :
- لا أبدا ، دول ناس طيبين ..
وسحب المأمور من يده ، ودخلا العربة ثم مالبتت العربة أن تحركت ،
وغابت بهما عن الأنظار ..
وعندما مرت العربة على الجسر ، ونورها يكشف لها الطريق الى
مسافة بعيدة ، وزوبعة من الغبار تلاحقها على الطريق . هتف الفلاحون
الذين يجلسون على حرف المترعة في كسل لذيذ :
- دا الدكتور أهه ياجدعان ..
وقال أبو سويلم على الفور :
- يخيب خيبتك اللي مايقول ياعزيز ..
ورد الجميع في صوت واحد :
- يا عزيز !! ..

الكتاب الذهبي

رئيس التحرير
حسن فنّواد

الليست

رئيس مجلس الإدارة العضو المنتدب
عبد العزيز خميس سعاد رضا

العنوان : القاهرة - مؤسسة روز اليوسف
٨٩ شارع القصر العيني

هذه القصص



الأدب عند محمود السعدنى ليس تصويراً للحياة ، وإنما هو الحياة نفسها .
وشخصيات قصصه ليسوا رموزاً لتجسيد واقع يريد إبرازه أو أدوات يحركها للتعبير عن فكرة لديه . إنما هي حقائق حية ، عاشرها بنفسه ، وجاء يحكى لنا عنها .
وهو قد عاش هذه الشخصيات لأنه يحب أن يعاشر الناس .

وهو يحكى لنا عنها ، لأنه يحب أن يحكى .
وسر السعدنى هو أنه لا يوجد مكان ، أو بيئة ، أو مدينة ، أو شعب ، لا يشعر معه أنه فى بيته .
فهو يأكل الكافيار فى قصور السادة بنفس اللذة التى يأكل بها كوز الذرة على الرصيف وهو فى السجن كان يداعب السجنان ، ويقاسمه طبق القدس ، ويسمع أمجاده بلذة حقيقية . وفى بور سعيد كان يقضى الليل والنهار مع الصيادين .
ولا يمكن تفسير حياة محمود السعدنى إلا على ضوء الشخصيات التى عايشها ، والتى لا حصر لها ، ولا حدود لتنوعها . فهو لم يكتف بأنسه عايشها وإنما عاش كلا منها على سبيل التذوق .
وتوحد مع كل منها فى لحظة من اللحظات .
والقيمة الكبرى للقصص التى فى هذا الكتاب هى أنها جميعاً حقيقية وأنها جزء من حياة الكاتب .
.. لا من خياله .

« »

اثمن جنيهان



مطابع الزاوية